

الدين .. والدجل

(٢٠)

التنويريون ..
والصراع مع المقدسات

ردود علمية على مواقف التنويريين من المقدسات

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

من أخطر مظاهر التنوير المعاصر تلك الجرأة على الحقائق المقدسة المعصومة التي وردت في القرآن الكريم أوالسنة الصحيحة القطعية التي لا مجال معها للفكر، ولا للنظر، لأن كل ذلك جرأة على الله، وسوء أدب معه، وتقديم للهوى على النص..

فمن ذا الذي يعطي لنفسه الحق في أن يعقب على كلام ربه، أو كلام رسوله الذي لا ينطق عن الهوى؟.. ومن ذا الذي يتصور أنه أكثر علما وفهما وإحاطة بحقائق الوجود حتى يعطي لنفسه ذلك الحق؟

لكن التنويريين باتجاهاتهم المختلفة أعطوا لأنفسهم هذا الحق؛ فراحوا يناقشون في كل المقدسات التي اتفقت عليها الأمة وأجمعت عليها إجماعا كليا، لا طائفيا، وراحوا لأجل ذلك يلوون أعناق النصوص المقدسة، ويتلاعبون بها ليتحول الدين إلى مزاجهم وأهوائهم ورغباتهم.

ولذلك حاولنا في هذا الكتاب أن نناقش القضايا الكبرى التي تركز عليها الدعوات التنويرية، والتي حاولت بكل الوسائل أن ترفع عنها القداسة، ليصبح الدين مادة هلامية يتلاعب بها كل من هب ودب، وذلك عبر مقالات مختلفة كتبت في أوقات متباينة، وعبر بعض السجالات التي حصلت بيننا وبين بعض التنويريين.

الدين.. والدجل

(20)

التنويريون والصراع مع المقدسات

ردود علمية على مواقف التنويريين من المقدسات

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 . 2018

مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

من أخطـر مظـاهر التنـوير المعاصـر تلـك الجـرأة على الحقائق المقدسة المعصومة التي وردت في القـرآن الكـريم أوالسنة الصـحيحة القطعيـة الـتي لا مجـال معهـا للفكـر، ولا للنظر، لأن كل ذلك جرأة على الله، وسوء أدب معه، وتقديم للهوى على النص..

فمن ذا الــذي يعطي لنفســه الحــق في أن يعقب على كلام ربه، أو كلام رسوله الذي لا ينطق عن الهـوى؟.. ومن ذا الذي يتصور أنـه أكـثر علمـا وفهمـا وإحاطـة بحقـائق الوجـود حتى يعطي لنفسه ذلك الحق؟

لكن التنويريين باتجاهاتهم المختلفة أعطوا لأنفسهم هذا الحق؛ فراحوا يناقشون في كل المقدسات التي اتفقت عليها الأمة وأجمعت عليها إجماعا كليا، لا طائفيا، وراحوا لأجل ذلك يلوون أعناق النصوص المقدسة، ويتلاعبون بها ليتحول الـدين إلى مزاجهم وأهوائهم ورغباتهم.

ولذلك حاولنا في هذا الكتاب أن نناقش القضايا الكـبرى الـتي تركـز عليهـا الـدعوات التنويريـة، والـتي حـاولت بكـل الوسائل أن ترفع عنها القداسـة، ليصـبح الـدين مـادة هلاميـة يتلاعب بهـا كـل من هب ودب، وذلـك عـبر مقـالات مختلفـة كتبت في أوقات متباينة، وعبر بعض السجالات الـتي حصـلت بيننا وبين بعض التنويريين.

وبنـاء على طبيعتهـا والأغـراض الـتي تهـدف إليهـا، فقـد قسمتها إلى ثلاثة أقسام على الرغم من كونها متداخلة فيمــا بينهـا، لأن الهـدف منهـا جميعـا هـو توضـيح خطـورة الفكـرة التنويري، واعتباره نوعا من التطرف المضاد الـذي لا يختلـف عن التطــرف الســلفي أو الحــركي أو غيرهمــا من أنــواع التطرف التي حاولت هذه السلسلة علاجها.

القســـم الأول ـــــ التنويريـــون.. والمصـــادر

المقدسة: وقد حاولت أن أوضح فيه حقيقة موقف التنويريين من المصادر المقدسة، ابتداء من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وإجماع الأمة، بالإضافة إلى توضيح بعض النماذج عن ذلك التلاعب بالألفاظ، وتحريف الكلم عن مواضعه.

القسم الثاني ــ التنويريون.. والعقائد الإسلامية: وقد رددت فيه على تلك الطروحات المرتبطة ببعض العقائد الإسلامية التي شكك فيها التنويريون، كنماذج عن مواقفهم من سائر العقائد الإسلامية.

القسم الثالث ـ التنويريون.. وأحكام الشريعة: وقد ذكرت فيه بعض النماذج عن مواقف التنويريين من بعض أحكام الشريعة القطعية والمتفق عليها، وكيف حولوها عن مقاصدها الشرعية على الرغم من اتفاق الأمة جميعا، وفي جميع العصور عليها.

القسم الأول

التنويريون.. والمصادر المقدسة

التنويريون.. والقراءة المدنسة للقرآن

ربما يكون الأساس الأكبر الذي أوقع التنويريين، الحداثيين منهم، ومن يطلق عليهم زورا وبهتانا لقب [القرآنيين]، في أكثر الأخطاء التي وقعوا فيها، ولا يزالون يقعون، تلك الكبرياء في التعامل مع النص القرآني تنزيلا أوتأويلا.

فكلاهما يتوهم أنه يستطيع بعقله المحدود الإحاطة بالمعاني القرآنية، وفهمها، بعيدا عن كل جهة مقدسة وغير مقدسة، وذلك باستعماله لبعض القواميس، وبعض المناهج التي تلقفها من النقاد الغربيين تقليدا، وراح يطبقها، لتخرج لنا كل يوم قراءة جديدة للقرآن الكريم، ومعنى جديدا من معانيه.

ونحن لا نريد هنا أن نتحدث عن مدى صلة تلك القراءات قربا أو بعدا بالحقائق القرآنية؛ فذلك يستدعي النظر في كل قراءة، فليست كل قارئة باطلة، ولا كل قارئ مخطئا، ولكنا نريد أن نبين خطأ المنهج نفسه.. فالمشكلة ليست في القراءة، وإنما في المنهج المتبع فيها.

ولذلك نعتب على الذين يأتون ببعض النماذج عن بعض الفهوم السليمة لبعض تلك القراءات، ثم يقارنها ببعض الفهوم السقيمة الواردة في بعض كتب التراث، ثم يتصور أنه عبر ذلك النموذج الانتقائي يكون قد برهن على صوابية القراءة التنويرية وخطأ القراءة التراثية.

وهذا الأسلوب لا علاقة له بالعلم؛ فكما أن في التراث بعض القراءات الخاطئة، والتفاسير التي تحتاج إلى تصحيح، باعتبارها فهوما بشرية، لكن فيها الكثير، من الفهوم السليمة الراقية التي لا يجادل أحد في صحتها وقوتها.

والمشكلة ـ كما ذكرنا ــ لا ترتبط بالقراءات بقدر ما

ترتبط بالأسس التي تقوم عليها، وهنا محل الخلاف بين القراءة القديمة والقراءة التنويرية.

فالقديمة، وإن أخطأت في تفسير بعض الآيات، لكنها انطلقت من كونها كلام الله، وأنها وحيه المقدس الذي لا يستطيع العقل أن يحيط به، لذلك يحاول أن يلمسه ويقترب منه بكل أدب واحترام وتقديس، ويستغفر الله تعالى بعد ذلك من سوء الفهم أو قصوره.

بخلاف القراءة التنويرية بفرعيها، والتي تتصور أنها محيطة بالقرآن، وأنها ـ لكبرها ـ قد فهمت منه ما لم يفهمه الأوائل والأواخر، وأنه يحق لها بسبب تلك الآليات التي تضعها أن تمسح جميع كتب التفسير، لتضع للنصوص القرآنية تفاسير جديدة، لا علاقة لها بتاتا بتلك التفاسير القديمة.

والمشكلة الأكبر، والتي ينطلق منها الحداثيون خصوصا، قراءة القرآن باعتباره منتوجا ثقافيا بشريا، لا وحيا إلهيا مقدسا.. وهنا، وبسبب هذه القراءة المدنسة، تقع في كل ما وقع فيه المنحرفون عن القرآن الكريم والمعترضون عليه.

ذلك أن من يقرأ قوله تعالى: { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [الذاريات: 47 ـ 50] وهو يعتقد أن صاحب هذا الكلمات هو الله نفسه خالق الكون جميعا، وأنه هو الذي بنى السماء، وهو الذي يوسعها، وهو الذي فرش الأرض ومهدها.. يمتلئ هيبة وخشوعا وتعظيما لله.

لكن الذي يقرؤها ـ مثلما قرأها المشركون ــ باعتبارها منتوجا ثقافيا وأدبيا صاغه رسول الله ﷺ، فإنه لا محالة سيضحك على هذه العبارات، ويسخر منها، وربما يتوهم مثلما توهم المشركون أن قائلها مجنون أو كاهن.

وهكذا، فإن للبعد المقدس لقراءة القرآن الكريم تأثيره الكبير في فهمه واستيعابه والاستفادة منه، بخلاف الذي

يقرؤه كنص بشري، أو كنص مجهـول المصـدر، أو كنص غـير مقدس، فإنه لن يستفيد منـه شـيئا، بـل سـيرى فيـه دعـاوى كثيرة، لا يليق لبشر أن يدعيها.

وهذا واضح جـدا، فلـو أن الخطـاب الـذي يقدمـه رئيس الجمهورية، والذي هو صاحب القرار الأكبر في دولتـه، نسـب لبواب أو عامل بسيط لسخر منه، ذلك أن البواب لا يسـتطيع أن يقرر تلك القرارات الكبرى التي لا يقررها إلا الكبار.

وهكذا عندما يقـرأ الحـداثي أو التنـويري النص القـرآني بعيدا عن أصله المقدس؛ فإنـه يقـع لا محالـة في الاعـتراض، حتى لو لم يصرح باعتراضه، وكيف لا يعترض، وهو يتـوهم أن الذي يقـول: {خُـذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَـلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًـا فَاسْـلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَـانَ لَا يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ} [الحاقـة: 30 -ـ 34] مجـرد بشـر عـادي، لا إلـه هـذا الكـون جميعا.

أما عندما يقرأ تلك الآيات الكريمة، باعتبارها وحيا إلهيـا، وأن صاحبها هـو اللـه نفسـه خـالق الإنسـان، وخـالق الكـون جميعا؛ فإن فرائصه ترتعد عندما يسمعها، مثلما نرتعد عنـدما نسمع صـوت القاضـي، وهـو يحكم الأحكـام المشـددة، بينمـا نضحك على صوت البواب عنـدما يقلـده فيهـا، لأن البـواب لا علاقة له بالأحكام القضائية، بخلاف القاضي.

وهكـذا يكـون لاعتقـاد القداسـة دوره الكبـير في فهم القرآن الكريم، وفي التأثر به، والانفعـال لـه.. بـل إن الكثـير من التساؤلات الـتي قـد يـوحي بهـا الشـيطان أثنـاء القـراءة تزول مباشرة عند تـذكر أن هـذا الكلام كلام اللـه خـالق كـل شـيء، ومالـك كـل شـيء، من{ لَا يُسْـأَلُ عَمَّا يَفْعَـلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: 23]

ومن الأمثلـة على ذلـك قولـه تعـالى { يَاأَيُّهَـا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُـكَ مِمَّا

أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: 50]، والتي تشكل عقبة كبيرة في عقول التنويريين، لا يستطيعون استساغتها، بينما يقرؤها المؤمن بذوق عظيم، وروحانية عالية، لأنه يعلم من خلالها مكانة رسول الله ﷺ عند ربه، وكيف خصه بهذا التخصيص، ويرتبط من خلال تلك القراءة بالله ورسوله ﷺ، ويزداد إيمانا بهما.

لكن التنويري، يحاول الفرار من تلك الآية وغيرها، ويلتمس الحيل الكثيرة لذلك.. وربما يوقعه سوء ظنه في الكفر والجحود.. وهو ما نص عليه القرآن الكريم نفسه عندما قال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } [الإسراء: 82]

فالآية الواحدة يقرؤها المؤمن؛ فيزداد بها يقينا ونورا وهدى، ويقرؤها من حجب بعقله التنويري؛ فيقع في الأوهام وسوء الظن، وقد يبحث في القواميس ليحرف الكلم عن مواضعه، ويحول من القرآن الكريم أداة للتلاعب بالألفاظ والمعاني.

وهكذا ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى يمتحن عباده بأمثال تلك الآيات حتى يتميز من يسلم لله، ولا يقدم بين يديه شيئا، والآخر الذي يسقط في الامتحان، وعند أول اختبار.

ولهذا قال تعالى محذرا: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب: 36]، وقد جاء عقب هذه الآية قوله: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ

تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [الأحزاب: 37]، وهي الآيات التي ملأت قلوب التنويريين والغربيين أوهاما في حق النبوة وقدسيتها.

ولهذا ورد عن الكثير من الصحابة قولهم: (لقد عشنا برهة من دهر وأحدنا يرى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن نوقف عنده منها، كما تعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ولا يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه وينثره نثر الدقل)[1]

وهو يعني أن أثر القرآن الكريم والفهم السليم له، لا يكو ن إلا بعد تحصيل الإيمان بقداسته، واعتباره كلام الله الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]

ولهذا كان الأولى بالتنويريين ومن تبعهم البحث عن البراهين الدالة على كون القرآن الكريم وحيا من الله تعالى، وذلك بالنظر في الأدلة المختلفة التي ذكرها المتكلمون، أو بتأمل القرآن الكريم بصدق وحيادية.. وعندما يحصل لهم الإيمان يحصل لهم الفهم السليم.

أما تجريد القرآن الكريم من قداسته؛ فإنه لن يزيدهم إلا ضلالا في فهمه، كما قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82]

وبين الفرق بين القراءتين المقدسة والمدنسة، فقال: { أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى

[1] () رواه الطبراني في الأوسط، قال الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة ووافقه الذهبي.

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}[الرعد ١٩]

وأخبر عن الأحوال التي تعتري المقدسين للقرآن الكريم، والمدنسين له؛ فقال: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة: 124، 125]

ثم بين أن الله تعالى ينزل على عباده من الفتن ما يميز به المؤمنين من غيرهم، قال تعالى: { أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة: 126]

ومن أمثلة ذلك تلك الآيات التي تأمر بالقتال، والتي لا تزال تحدث آثارها السلبية في نفس أصحاب القراءات المدنسة، والتي راحوا يؤلونها بصنوف التأويل والتحريف، قال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: 20، 21]

ومنها ما عبره عنه قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرً} [الإسراء: 60]

وهكذا نرى القرآن الكريم يخبرنا أن فيه معايير لتحديد الصادقين من غيرهم، فالصادقون مع الله هم الذين يقرؤون القرآن الكريم بقناعة تامة أنه من الله، ولذلك يتناولون ما فيه بكل تقديس، ولا يخطر لهم نحوه أي خاطر سوء.. أما الآخرون، فهم يرونه منتجا ثقافيا، وليد بيئة جاهلية، وزمن قديم.. فلذلك يحقرونه ويزدرونه شعروا أو لم يشعروا، وذلك

ما يحول بينهم وبين فهمه أو تناول معانيه، فهو كما هدى للمتقين، وليس هدى لغيرهم.

ولهذا ذكر الغزالي عند بيان الآداب الباطنة لتلاوة القرآن الكريم، هذان الأدبان الرفيعان، اللذان لا يمكن أن يفهم القرآن من دون تحققهما.

أما أولهما، فهو **استحضار عظمة القرآن**: لما لذلك من تأثير نفسي على القارئ، ولهذا الاستحضار تأثير كبير في تلقي التالي واستعداده للفهوم التي يفيضها الله على عباده العارفين بعظمة كلامه، وذلك لأن فيها فتحا لمجالات مطلقة للقرآن الكريم لا يحدها التركيب اللغوي المحدود [1].

وأما الثاني، فهو **استحضار عظمة الله تعالى**، وذلك بأن يعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، ولهذا كان بعض الصحابة ــ كما ينقل الغزالي ــ إذا نشر المصحف غشي عليه،ويقول: (هو كلام ربي، هو كلام ربي)[2]،وطريق التحقق بهذا ــ كما يرى الغزالي ــ هو أن يحضر بباله عند بداية التلاوة العرش والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما من الجن و الإنس و الدواب والأشجار، ويعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضته، مترددون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله[3].

وهذا التعظيم التمهيدي هو وسيلة وغاية في نفس الوقت، لأنه بقدر تعظيمه عند القراءة يكون فهمه عن الله، وبقدر فهمه عن الله تكون معرفته ويزداد تعظيمه.

1() إحياء علوم الدين، 1/280.

2() المصدر السابق، 1/281.

3() المصدر السابق، 1/281.

هكذا يقرأ القرآن الكريم، وهكذا يمكن أن يفهم، أما كل أولئك التنويريين الغارقين في ظلمات أنفسهم وأهوائهم، فهم محجوبون عن القرآن.. لأنه لا يمكن أن يفهم القرآن من حجب عن رسول الله ﷺ، أو تصور أنه مجرد بشر كسائر البشر، من غير أن يوحي إليه شيء.

ولايمكن أن يفهم القرآن ذلك المغرور الذي يتصور أنه يمكن أن يفهمه بعيدا عن النبوة، وعن ورثة النبوة.. فالمتكبر المستعلي محجوب عن آيات الله، كما قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: 146]

التنويريون.. والجرأة على السنة

يكاد يتفق التنويريون جميعا بمختلف طوائفهم على احتقار السنة النبوية المطهرة، وعدم اعتمادها أو اعتبارها، بل هم يذبونها عنهم مثلما يذبون الذباب، لا يتكلفون في ذلك أي عناء ولا جهد ولا بحث.. فلازمتم المعروفة هي مخالفة السنة للعقل، وللقرآن، وللفطرة، وأنها من إنتاج الأمويين أو العباسيين، أو من نتاج الكذابين الوضاعين.

وعندما يذكرون ذلك، يتوهم الكثير أن هذه النتائج قد تولدت عن بحث طويل، أو عناء شديد في النظر في أسانيد الأحاديث أو طرقها، أو أنهم عرضوها فعلا على القرآن الكريم أو العقل الحكيم.. بينما هم لم يفعلوا شيئا من ذلك.. ذلك أنهم لم يعرضوها إلا على هواهم المجرد، والذي يسمونه مرة قرآنا، ومرة عقلا، ومرة فطرة، وهو في حقيقته لا يعدو أن يكون هواجس نفس أمارة، أو وساوس شيطان رجيم.

ولذلك يمكن اعتبار موقفهم من السنة المطهرة هو السبب في كل البلايا التي وقعوا فيها، ذلك أن احترام السنة احترام لصاحبها، وتعظيم له، واحتقارها احتقار له، ويستحيل على من يفعل ذلك مع رسول الله ﷺ أن يوفق لأي خير، أو يهتدي لأي صواب.

فالله تعالى نهانا عن مجرد دعاء رسول الله ﷺ باسمه، أو رفع الصوت أمامه؛ بل اعتبر ذلك محبطا للعمل؛ فكيف بالتجرؤ على إنكار سنته، أو إدخال الهوى فيها؟

لذلك نجد الصادقين لا يتجرؤون على ردها، ولا على مناقشتها، ولا على كتمانها، وإنما يجتهدون في تفعيلها في كل شيء، مثلما يجتهدون في تفعيل القرآن الكريم، فكلاهما من مشكاة واحدة، هي مشكاة الحقيقة المطلقة، وقد قال الله تعالى عن رسوله ﷺ: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ

إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 3، 4]

وهم لا يقولون أبدا تلك المقولة التي يرددها القرآنيــون، والتي هي سبب كل بلاء وقع في الأمة: (حسبنا كتــاب اللــه)، ذلك أن اللــه تعــالى هــو الــذي وكــل رســوله ﷺ ببيــان كتابــه، ووضع الضوابط لدينــه حــتى لا تتلاعب بــه الأهــواء، كمــا قــال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُــزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 44]، وقال: { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَــابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُــوا فِيــهِ وَهُــدًى وَرَحْمَــةً لِقَــوْمٍ يُؤْمِنُــونَ} [النحل: 64]

وقــد ورد في الحــديث الشــريف وصــف دقيــق لأمثــال هؤلاء، والذي لم يخلوا من أمثالهم التــاريخ، فقــد قــال ﷺ: (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكتــه، يأتيــه الأمــر من أمــري ممــا أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا نــدري، مــا وجــدنا في كتــاب الله اتبعناه) [1]

وعن الحسن بن جابر قــال ســمعت المقــدام بن معــدي كرب يقول: (حرم رسول الله ﷺ يوم خيــبر أشــياء، ثم قــال: (يوشك أحدكم أن يكذبني، وهو متكئ يحدث بحديثي؛ فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فمــا وجــدنا فيــه من حلال اســتحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا إن ما حــرم رســول اللــه مثل ما حرم الله)[2]

وهكذا تــواترت النصــوص الكثــيرة الــواردة في المصــادر الحديثية للمــدارس الإســلامية المختلفــة على تعظيم الســنة، وخطورة ردهــا بــالهوى المجــرد، أو خطــورة ضــربها بــالقرآن الكريم، مع كونهــا لم تــرد إلا لبيانــه وتأكيــد معانيــه، وتفصــيل مجمله، وتوضيح كيفية تنفيذه في الواقع؛ فرسول اللــه ﷺ لم يكن سوى قرآنا ناطقا، ولم يكن خلقه إلا القرآن.

---

[1] () الترمذي العلم (2663)، أبو داود السنة (4605)، ابن ماجه المقدمة (13)، أحمد (6/8).

[2] () الترمذي العلم (2664)، أبو داود السنة (4604)، ابن ماجه المقدمة (12)، أحمد (4/132)، الدارمي المقدمة (586).

ولهذا كان الصالحون يعتبرون كل حياة رسول الله ﷺ سنة، ما قبل البعثة وما بعدها، حتى خلوته في غار حراء، يعتبرونها من السنن النبوية التي يمكن تفعيلها في الواقع.. لأن حقيقة رسول الله ﷺ كانت متمثلة بالنبوة وبطهارتها وسموها، ولم يكن الوحي المقدس الذي أوحي له إلا تتويجا لتلك النبوة السابقة، كما قال رسول الله ﷺ نفسه مخبرا عن موعد نبوته عندما سئل: يا رسول الله، متى كتبت نبيا؟ فقال: (وآدم عليه السلام بين الروح والجسد)[1]

وقد كان ﷺ يكلف أصحابه بتبليغ سنته مثلما يكفهم بتبليغ القرآن الكريم، ويعدهم من الأجر مثلما يعدهم به، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأنه كان يوصي أصحابه في خطبته أن يبلغ شاهدهم غائبهم، ومن ذلك ما حصل يوم حجة الوداع في يوم عرفة وفي يوم النحر حين قال لهم: (فليبلغ الشاهد الغائب، فرب من يبلغه أوعى له ممن سمعه) [2]

ومن خلال استقراء أطروحات التنويريين المرتبطة بالقرآن الكريم نجد أنها لا تعدو تعلقها بمغالطتين اثنتين، أولاهما حول حجية السنة نفسها، وعدم اعتبارها، والثانية، هي الاعتراف بتلك الحجية، مع مناقشة ثبوتها، ووضع العراقيل الكثيرة التي تتيح لأي هوى أن يرد ما شاء من السنة، من غير بينة ولا اجتهاد ولا نظر.

وسنناقش كلا الشبهتين فيما يلي:

أولا ـ المغالطات المرتبطة بحجية السنة:

ينطلق التنويريون في ردهم للاحتجاج بالسنة المطهرة

1() أحمد 4/66 (16740) و5/379 (23599)، وقال في (مجمع الزوائد: 8/ 223): رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

2() البخاري الحج (1654)، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (1679)، ابن ماجه المقدمة (233)، أحمد (5/37)، الدارمي المناسك (1916).

من تلـك المقـولات المتطرفـة الـتي تجعـل من الأحـاديث الشريفة أصلا يُتحاكم إليه قبل القرآن الكريم نفسـه، ولـذلك ترى إمكانية نسخ القرآن بالسنة، أو القول بنسخه وتخصيصه من خلال الروايات الـواردة في أسـباب الـنزول، أو من خلال تلـك المبالغـات في اعتبـار الروايـات تفسـيرا نهائيـا للنص القرآني.

وكان في إمكان التنويريين مواجهة هذا الموقـف، والـرد عليـه في المحـل الـذي وقـع فيـه الخطـأ من دون تجـاوزه، لكنهم، ولكسل العقل التنويري الـذي يعتمـد الهـدم لا البنـاء، راحوا يستغلون تلك الأخطاء لرمي السنة جميعا.

وهذا ما أوقعهم في انحراف لا يقل خطـرا عن انحـراف السلفيين أو من هو على شاكلتهم ممن عطل نصوصا قرآنية كثيرة بسبب روايات وأحاديث رواها واعتمدها من غير تحقيق في أسانيدها ولا تثبت في مدى صحة الاحتجـاج بهـا في حـال معارضتها للقرآن الكريم.

فكلا الطــرفين وقــع في خطــأ التعميم.. أولهمــا: وهم السلفيون ومن تبعهم أخطـأوا في اعتمـاد الأحـاديث اعتمـادا مطلقا حـتى لـو خـالفت القـرآن الكـريم وعارضـته معارضـة صـريحة.. وثانيهمـا: التنويريـون، الـذين راحـوا يسـخرون من كتب السنة، ويستعملون تلك الأخطاء مبررا لهجماتها عليها.

أما الموقف الوسط، وهـو الـذي تبنينـاه بحمـد اللـه في كتبنا، فهو اعتبار القرآن الكـريم والسـنة المطهـرة، لكن مـع مناقشة أحاديث السنة المعارضة للقرآن الكريم، إما بتأويلهـا لتتناسب معه، أو بردها إذا لم تتناسب مطلقا معه، بنــاء على الأحاديث الواردة في ذلك.

وقــد وجــدت بحمــد اللــه، ومن خلال تلــك الروايــات المحدودة التي تتعارض مـع القـرآن الكـريم، أنـه يمكن ردهـا من خلال الموضوعية في مناقشتها سندا، أو من خلال تأويلها لتتناسب مع القرآن الكريم.

ومن أمثلة على ذلك ما ذكرناه بتفصيل في كتاب [الطائفيون والحكماء السبعة]، حيث رددنا فيه حديث (من بدل دينه فاقتلوه)[1]، مع كونه مرويا في الصحاح، لا لكونه يخالف الآيات الكريمة الكثيرة، والتي تتحدث على عقوبة الردة، ولكنها لا تنص على الحد الدنيوي المرتبط بها، بخلاف سائر الجرائم التي ذكرت حدودها، وإنما لكون مناقشته سندا تقتضي ذلك، فهذا الحديث من رواية عكرمة مولى ابن عباس، وقد انفرد بها دون تلاميذ ابن عباس جميعا، مع كون الكثير منهم مثل سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد وغيرهم ممن هم أكثر اختصاصاً به من دواعي التوقف في قبول هذا الحديث.. بالإضافة إلى ذلك فإن تلاميذ ابن عباس المتفق على ثقتهم يعدون بالعشرات، ولم يرووه عنه رغم أهمية الحديث واختصاره وسهولة حفظه، ورغم ارتباطه بحد من الحدود الخطيرة.. فكيف يجهل عشرات الرواة عن ابن عباس هذا الحديث، ويجهل هذا الحديث الصحابة والتابعون، ويعلمها تابعي واحد هو نفسه محل إشكال واختلاف؟

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان عكرمة من الخوارج الذين حاربوا الإمام عليا.. وهذا الحديث فيه تجريح خطير للإمام علي.

بالإضافة إلى ذلك، فقد رويت الروايات الكثيرة التي تتهمه من لدن الصحابة أنفسهم، فقد روي عن ابن عمر أنه قال لنافع: (لا تكذب عليَّ كما كذب عكرمة على ابن عباس)، وفي ذلك أكبر تجريح له.. فالذي جرحه ليس البخاري ولا يحي بن معين، بل هو ابن عمر نفسه.. وهو من الصحابة.. وهو يعرفه.. وهو أدرى الناس به.. لكن لحبنا للحديث غفلنا عن ذلك كله وتغافلنا عنه.

وهكذا روي عن جرير بن عبد الحميد عن يزيد بن أبي زياد، قال: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس وعكرمة

---

[1] البخاري 12 / 238 و 239.

مقيد، فقلت: ما لهذا؟ قال: إنه يكذب على أبي [1].

وقال ابن حجر عنه: (وفد عكرمة على نجدة الحروري فأقام عنده تسعة أشهر، ثم رجع إلى ابن عباس فسلم عليه، فقال: قد جاء الخبيث قال: فكان يحدث برأي نجدة، وكان يعني نجدة أول من أحدث رأي الصفرية وقال الجوزجاني قلت لأحمد بن حنبل أكان عكرمة إباضيا فقال: يقال: إنه كان صفرياً، وقال أبو طالب عن أحمد كان يرى رأي الخوارج الصفرية، وقال يحيى بن معين كان ينتحل مذهب الصفرية ولأجل هذا تركه مالك، وقال مصعب الزبيري كان يرى رأي الخوارج)[2]

وهكذا لو تأملنا كل الأحاديث التي عارضت القرآن الكريم معارضة صريحة، وجدناها من هذا الباب، يمكن مناقشتها سندا.

وفي المقابل نجد مئات الأحاديث في المصادر الإسلامية المختلفة ممتلئة بالجمال والقيم النبيلة، ولا يصح عقلا أو شرعا رميها جميع بحجة مخالفتها للقرآن..

فمعظم أحاديث الترغيب والترهيب، حتى الكثير من الضعيف منها يمكن الاستفادة منها في تحقيق المقاصد القرآنية، ومن الخطأ رميها ورفضها، بحجة أن السنة تحجب عن القرآن، وكيف تحجب عنه، وهما من مشكاة واحدة.

ولهذا اعتمدنا بحمد الله في كتبنا كل المصادر الحديثية ورأينا حرمتها وقداستها، وقد قلت في مقدمة كتابي [رسول الله والقلوب المريضة]، وهو الكتاب الذين ناقشنا فيه

1() انظر: وفيات الأعيان 1: 320، وتهذيب التهذيب 7: 238 وسير أعلام النبلاء للذهبي 5: 22.

2() مقدمة فتح الباري 425.

الأحاديث التي تشوه النبوة، وتسيء إليها: (ونحب في هذا المحل أيضا أن ننكر نكيرا شديدا على من يتجرأ على كتب الحديث بمدارسها المختلفة.. كصحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرها من كتب الحديث في المدرسة السنية.. أو كتاب الكافي في الأصول والفروع للكليني، أو تهذيب الأحكام والاستبصار للطوسي، أو من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.. وغيرها من كتب الحديث في المدرسة الشيعية.. أو مسند الربيع بن حبيب في المدرسة الإباضية، فكتب الحديث هي المحال التي جمع فيها الحديث بصحيحه وضعيفه وموضوعه، ولذلك من الخطأ الكبير أن نسب مصدرا كاملا للحديث بسبب بعض الأحاديث المردودة فيه.. بل لو لم يصح من كتاب كامل إلا حديث واحد لكان من الأدب مع رسول الله ﷺ أن نحترم ذلك الكتاب)[1]

وقلت فيه: (لهذا فإني ـ مع ردي بعض الأحاديث الواردة في المصادر الحديثية المختلفة ـ لا أرد الأحاديث مع اعتقادي أن رسول الله ﷺ قالها أو فعلها.. فذلك عين الضلال، بل عين الكفر، فمن يتجرأ على تكذيب رسول الله ﷺ لا يبقى له من الإسلام شيء.. ومثل ذلك فإني لا أتهم الصحابي الذي روى الحديث، لأن الحديث لم نسمعه من الصحابة مباشرة، وإنما ورد إلينا عن طريق طويل قد يختلط فيه الحابل بالنابل، والمحق من المبطل.. ومثل ذلك لا أتهم صاحب الكتاب الذي ورد فيه الحديث، لأن أكثر المحدثين كانوا يجمعون الأحاديث، ويتركون المواقف منها ومن فهمها للفقهاء والمفسرين وغيرهم، كما قال ﷺ: (نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه)[2].. ومثل ذلك لا أتهم أي راو من الرواة بأنه هو من وضع الحديث لأن ذلك غيب.. والله أعلم به.. كل الذي أفعله هو أني أقارن الحديث

---

[1] رسول الله والقلوب المريضة، ص12.

[2] رواه أبو داود.

بالصورة التي وردت في القرآن الكريم حول رسول الله ﷺ، وورد مثلها في الأحاديث الكثيرة، وفوق ذلك تؤيدها الفطرة الصافية والعقل السليم. فإن وجدت الحديث موافقا لها، قلت به، وصدقته حتى لو كان راويه متهما بالضعف.. وكل حديث مخالف لذلك أنكرته ونقدته حتى لو كان الراوي قد وثق من الجميع)[1]

واستدللت لذلك بما فعله العلماء الكبار من ردهم لبعض الأحاديث بسبب تعارضها مع القرآن الكريم، ومن ذلك ما ذكره جمال الدين القاسمي ـ عند تبريره لانتقاده الشديد لحديث سحر النبي ﷺ ـ من الأمثلة من فعل السلف، فنقل عن الإمام الغزالي قوله في (المستصفى): (ما من أحد من الصحابة إلا وقد ردّ خبر الواحد. كردّ عليّ خبر أبي سنان الأشجعي في قصة (بروع بنت واشق) وقد ظهر منه أنه كان يحلف على الحديث. وكردّ عائشة خبر ابن عمر في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه. وظهر من عمر نهيه لأبي موسى وأبي هريرة عن الحديث)[2]

ونقل عن ابن تيمية في (المسوّدة) قوله: (الصواب أن من ردّ الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده، لاعتقاده غلط الناقل أو كذبه، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق، وإن لم يكن اعتقاده مطابقا، فقد ردّ غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث)[3]

ونقل عن العلامة الفناري في (فصول البدائع) قوله: (ولا يضلل جاحد الآحاد)

---

[1] () رسول الله والقلوب المريضة، ص12.

[2]) محاسن التأويل: 9/ 578.

[3]) محاسن التأويل : 9/ 578.

ثم قال تعقيبا على ذلك كله: (والمسألة معروفة في الأصول، وإنما توسعت في نقولها لأني رأيت من متعصبة أهل الرأي من أكبر رد خبر رواه مثل البخاري، وضلل منكره، فعلمت أن هذا من الجهل بفن الأصول، لا بل بأصول مذهبه. كما رأيت عن الفناري. ثم قلت: العهد بأهل الرأي أن لا يقيموا للبخاري وزنا. وقد ردوا المئين من مروياته بالتأويل والنسخ، فمتى صادقوه حتى يضللوا من ردّ خبرا فيه؟)(1)

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك موقف الإمام مالك من الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)، والذي يدل بصيغة قطعية على أن لكل من المتبايعين حق إمضاء العقد أو إلغائه ماداما لم يتفرقا بالأبدان.

وقد ورد ما يؤكد هذا من السنن الأخرى، فقد روى البيهقي عن عبد الله بن عمر قال: (بعت من أمير المؤمنين عثمان مالاً بالوادي بمال له بخيبر، فلما تبايعنا رجعت على عقبي حتى خرجت من بيته خشية أن يردني البيع، وكانت السنة أن المتبايعين بالخيار حتى يتفرقا)

وقد ذهب إلى هذا جماهير العلماء من الصحابة والتابعين.. لكن الإمام مالك خالف ذلك، ورد الحديث حتى نقل عن ابن أبي ذئب –وهو من كبار علماء المدينة - أنه لما ذكر له أن مالكا لم يعمل به، قال: (يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه)(2)

بل أكد موقفه هذا الإمام أحمد نفسه حيث قال عن ابن

1) محاسن التأويل: 9/ 578.

2) سير أعلام النبلاء: 1/ 49.

أبي ذئب: (هو أورع وأقول بالحق من مالك) (3)

لكن مع ذلك نجد العلماء جميعا يعتذرون لمالك، ويقفون منه موقفا طيبا، بل يبررون قوله، والمالكية إلى الآن لا زالوا يأخذون بقوله في المسألة، ولا يأخذون بالحديث الوارد في صحيحي البخاري ومسلم.

وهذا الموقف هو الموقف الوسط، وهو الذي كان على التنويريين أن يقوموا به، لا أن يرفضوا الأحاديث جميعا، ومن دون دراسة ولا بحث، وإنما يسارعون إلى ذلك من دون تثبت.

ولا نحتاج في هذا المحل إلى ذكر النصوص القرآنية الكثيرة التي تأمر بالرجوع للنبي ﷺ، واعتباره حكما وشارحا ومفصلا لآيات الذكر الحكيم، فهي كثيرة جدا، ودلالتها صريحة جدا، ولا ينكرها إلا جاحد.

ولعل أشهرها وأوضحها قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب: 36]، فهذه الآية الكريمة واضحة في دلالتها على كون ما قضى به رسول الله ﷺ هو نفسه ما قضى به الله تعالى؛ فرسول الله ﷺ لا ينطق الهوى.

ومثل ذلك تلك الآيات الكثيرة التي تأمر بطاعة رسول الله ﷺ، وتقرنها بطاعة الله، كما قال تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [آل عمران: 132]، وقوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [المائدة: 92]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تتحول إلى آيات لا يمكن تطبيقها إلا في الواقع الذي عاش فيه رسول الله ﷺ، فكيف نطيع رسول الله ﷺ، وكيف نتبع أوامره، ونحن ننكرها

---

3) سير أعلام النبلاء:1/ 49.

ونردها.

أما ادعاء القرآنيين بأن القرآن الكريم حوى كـل شـيء، وأنـه لـذلك يمكن الاستغناء عن السـنة، كمـا قـال عبـد اللـه جكرالوي مؤسس فرقة القرآنيين: (إن الكتاب المجيـد ذكـر كل شـيء يحتـاج إليـه في الـدين مفصـلا ومشـروحا من كـل وجه، فما الداعي إلى الوحي الخفي وما الحاجة إلى السـنة)[1]، وقال: (كتاب الله كامل مفصل لا يحتـاج إلى الشـرح ولا إلى تفسـير محمـد ﷺ لـه وتوضـيحه إيـاه أو التعليم العملي بمقتضاه)[2]، فهو قول ممتلئ بالمغالطات.

ذلـك أن الكثـير من الأحكـام لا يمكن تنفيـذها من دون السنة المطهرة، ولذلك تولت سنة رسول الله ﷺ بيان ذلك.. وفصلته وعلمته لنا.

وقد يتصور البعض أن هذا خاص بالعبادات فقط، ولـذلك يذكرون إمكانية الاعتماد على السنة في هـذا المجـال، وهـذا خطأ، فحـتى في القضـايا الأخـرى، نجـد شـروحا وتفاصـيل لا يمكن فهم القرآن الكريم إلا من خلالها.

ومن الأمثلـة على ذلـك تفسـير رسـول اللـه ﷺ لمعـنى الغيبة، والفرق بينها وبين البهتان، فقـد قـال ﷺ: (أتـدرون مـا الغيبة؟)، قالوا: الله ورسـوله أعلم، قـال: (ذكـرك أخـاك بمـا يكره)، قيل: أفـرأيت إن كـان في أخي مـا أقـول؟ قـال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه مـا تقـول فقـد بَهَتَّه)[3]

وهكـذا نجـد الأحـاديث الكثـيرة الـتي تنهانـا عن الغيبـة،

---

1 () مجلة إشاعة القرآن ص 49 العدد الثالث سنة 1902م، وإشاعة السنة 19 ص 286 سنة 1902.

2 () ترك افتراء تعامل 10 وقد قال بمثله الخواجه أحمد الدين والحافظ أسلم. انظر برهان القرآن 4، ونكات قرآن 49.

3 () رواه مسلم، 2589.

وتؤكد حرمتها، وتبين عظم خطورتهـا، وهـو مـا يـزد الحقـائق القرآنية المرتبطة بهذا الجانب توثيقا وتأكيدا وتحقيقا.

ولسنا ندري لم نرمي كل تلك الـثروة الأخلاقيـة، بسـبب بعض الأحاديث التي خالفت القرآن الكريم، والتي كان يمكننا رفضها لوحدها، أو محاولة فهمها على ضـوء القـرآن الكـريم، أمـا أن نـرمي السـنة جميعـا بسـببها، فهـذا بهتـان عظيم، فالتعميم دائما يحمل الأخطاء.

ولهذا، قلنا في كتاب [أبو هريرة وأحاديثه في المـيزان]، والذي اتهمنا فيـه البعض بإنكـار السـنة: (ولـذلك لا نريـد من خلال هـذا البحث رمي أحـاديث أبي هريـرة، ولا طرحهـا، ولا تكذيبها جميعا، وإنما ندعو إلى تمحيصها حتى نميز السـم عن العســـل، والصـــدق عن الكـــذب، والإلهي عن البشـــري، والمقدس عن المـدنس، ذلـك أن الكثـير من الروايـات الـتي رواها أبو هريرة نجدها مروية من طـرق غـيره من الصـحابة، بـل نجـدها عنـد الشـيعة أو غـيرهم من فـرق المسـلمين بأسانيدهم الخاصة بهم، لكن غيرها، وخاصـة ممـا اختص بـه، نحتاج فيه إلى تحقيـق كبـير، ذلـك أن أبـا هريـرة لم يكن من الصحابة السابقين، ولا من الذين اكتفوا بالتلمذة على رسول الله ﷺ.. بل كان تلميذا نجيبـا لغـيره، وخاصـة لكعب الأحبـار، ولذلك اختلطت ـ باتفاق العلمـاء والمحـدثين ــ أحاديثـه الـتي رواها عن كعب بأحاديثه التي رواها عن رسول الله ﷺ، وكان له فوق ذلك اجتهاداته في بعض روايـات الحـديث، حيث كـان يروي الحـديث، ثم يضـيف لـه بعض الإضـافات الـتي يسـميها العلماء إدراجا، ويعبر عنها هو بأنها من كيسه)

وبناء على ذلك قمنا بدراسة رواياته، وخاصـة تلـك الـتي انفرد بها، وعرضها على القرآن الكريم، بل عرضها على كلام أهل العلم أنفسهم، وقد وجـدنا أنهم يفنـدونها ويردونهـا حـتى أن

ومن الأمثلـة على ذلـك الحـديث الـذي رواه مسـلم عن أبي هريرة قال: (أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: (خلـق اللـه

عز وجل التربة يوم السبت، وخلـق فيهـا الجبـال يـوم الأحـد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلـق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعـة في آخـر الخلـق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل) (1)

وهذا الحديث الذي يصرح فيه أبـو هريـرة بالسـماع، بـل يصرح بأن رسول الله ﷺ خصه به، بـل أخـذ بيـده حين قالـه، اتفق العلماء على عدم صحة نسبته إلى الرسول ﷺ، وأن أبـا هريرة أخطأ فيها، فبـدل أن يقـول: أخـذ كعب الأحبـار بيـدي، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي.

يقـول ابن كثـير في تفسـيره تعليقـا عليـه: (فقـد رواه مسلم بن الحجاج في صـحيحه، والنسـائي من غـير وجـه عن حجاج وهو ابن محمد الأعور عن ابن جريج به وفيه اسـتيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيـام، ولهـذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا) (2)

بل إن ابن تيمية نفسه رد الحـديث، فقـال في (مجمـوع الفتـاوى): (.. خلـق الـدواب يـوم الخميس وخلـق آدم يـوم الجمعة فإن هذا طعن فيه من هو أعلم من مسلم مثل يحيى بن معين ومثل البخارى وغيرهمـا وذكـر البخـارى أن هـذا من كلام كعب الأحبار) (3)

بل إن السلف الأول من الصحابة أنفسهم ردوا أحاديثـه، واتهموه في الرواية، بل فيهم من اتهمه بالكذب، ومن الأمثلة

---

1) مسلم (2789)

2) تفسير ابن كثير ج 2 ص 294.

3) مجموع فتاوى ابن تيمية ج 18 ص 18.

على ذلك ما روي من رد عائشة على أبي هريرة حول ما رواه عن رسول الله ﷺ من قوله: (إنما الطيرة في المرأة، والدابة، والدار)، ففي الحديث عن أبي حسان الأعرج، أن رجلين، دخلا على عائشة فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله ﷺ، كان يقول: (إنما الطيرة في المرأة، والدابة، والدار)، قال: فطارت شقة منها في السماء، وشقة في الأرض، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول، ولكن نبي الله ﷺ كان يقول: (كان أهل الجاهلية يقولون: الطيرة في المرأة والدار والدابة، ثم قرأت عائشة: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22]) [1]

وفي رواية عن مكحول، قيل لعائشة إن أبا هريرة، يقول: قال رسول الله ﷺ: (الشؤم في ثلاثة: في الدار والمرأة والفرس)، فقالت عائشة: لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله ﷺ، يقول: (قاتل الله اليهود، يقولون إن الشؤم في ثلاثة: في الدار والمرأة والفرس، فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله)

فهذا الحديث بروايتيه يشير إلى ذلك التسرع الذي اتسمت به رواية أبي هريرة للأحاديث، وهو ما جعله يقع في خلط كثير، ولهذا غضبت عائشة، بل طارت شقة منها في السماء، وشقة في الأرض، من ذلك الخلط الذي يمارسه أبو هريرة في رواية الحديث.

ومع ذلك، لم نرم كل أحاديث أبي هريرة، بل إنا ذكرنا الكثير منها في كتبنا، لأنا لم نر بها بأسا، فمعانيها شرعية صحيحة، وإنما اقتصر ردنا على ما نراه مخالفا لما ورد في القرآن الكريم من تنزيه الله أو تنزيه رسله، أو الدعوة للقيم النبيلة.

---

1) رواه أحمد 6/150، وفي 6/240 وفي 6/246.

وهذا هو الحل الصحيح في التعامل مع السنة المطهـرة، لا رميها جميعا، وتكـذيبها جميعـا، بجـرة قلم واحـدة، لأن هـذا وليد الكسل والمراهقة الفكرية.. ولا قبولها جميعا كذلك، لأن بعض الروايــات يفعــل فعــل الســم في تحطيم الشــريعة وتشويهها وتشويه كل القيم النبيلة التي جاءت بها.

ثانيا ـ المغالطات المرتبطة بثبوت السنة:

مثلمـا انطلـق المنكـرون لحجيـة السـنة من بعض تلـك الأخطـاء الـتي وقـع فيهـا الـذين أخـروا القـرآن الكـريم عن السـنة، وجعلـوا أحكامـه منسـوخة أو مخصصـة أو مقيـدة بسببها، فكذلك فعل المنكرون لثبوت السنة، والـذين توهمـوا أنهم بإنكار ثبوتها، يكونون قد ألغوا الحاجة إليها.

فقد اعتمدوا هم أيضـا على تلـك الروايـات الضـعيفة، أو تلك الأسانيد المريضة، أو ذلك الوضع الذي انتشر في فترات مختلفة من التاريخ، ليعمموه على كـل الأحـاديث والروايـات، وهذا خطأ كبير، لا يقل عن الخطأ السابق.

بل إن بعضهم، ومبالغة في تأكيد مغالطته راح يزعم هذا الزعم الذي عبر عنه بقوله: (لو كانت السنة جزءاً من الــدين لوضع لهـا رسـول اللـه ﷺ منهجـا كمنهج القـرآن من الكتابـة والحفظ والمذاكرة.. لأن مقام النبوة يقتضي أن يعطي الدين لأمتـه على شـكل محفـوظ، لكنّـه ﷺ احتـاط بكـلّ الوسـائل الممكنـة لكتـاب اللـه، ولم يفعـل شـيئا لسـنّته، بـل نهى عن كتابتها بقوله: لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عـني غـير القرآن فليمحه)[1]

ومـا ذكـره غـير صـحيح، فالأحـاديث الكثـيرة تـدل على وجوب تبليغ الأمة لسنته ﷺ، وهي لم تحدد كيفية ذلك اعتمادا على صدق المبلغين وذاكرتهم القوية، بل هي لم تحـدد حـتى منهج حفظ القرآن الكريم، ولا أمرت بتكثير نسـخه، بـل كـان الاعتماد الأكبر على حفظ الصدور، كما هي عادة العرب.

[1] مقام حديث 7.

وقد قال رسول الله ﷺ آمرا بتبليغ سنته: (نضر الله امرأ سمع منّا شيئاً فبلّغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع)[1]، وقال مرات كثيرة: (ليبلغ الشاهد الغائب)[2]

أما الحديث الوحيد الذي استدل به هؤلاء في النهي عن كتابة الحديث، وهو ما رواه مسلم من طريق همام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ : (لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه)[3] فهو مردود سندا ومتنا.

أما الرد عليه سندا، فهو كونه لم يروه مرفوعا إلى النبي ﷺ إلا همام بن يحيى، فقد قال الخطيب: (تفرد همام بروايته هذا الحديث عن زيد بن أسلم هكذا مرفوعا، ويقال: إن المحفوظ رواية هذا الحديث، عن أبي سعيد - هو - من قوله، غير مرفوع إلى النبي ﷺ)، ونقل عن البخاري وغيره: أن حديث أبي سعيد - هذا - موقوف عليه، فلا يصح الاحتجاج به ونسبه ابن حجر إلى بعض الأئمة.

وهذا الاضطراب في رفع الحديث ووقفه يرجح وقفه، لا رفعه، خاصة مع وجود الأحاديث الكثيرة المعارضة، وقد قال الحازمي - في الوجه العشرين، من وجوه الترجيح بين الخبرين اللذين تعذر الجمع بينهما -: (أن يكون أ حد الحديثين متفقا على رفعه، والآخر قد اختلف في رفعه ووقفه على الصحابي، فيجب ترجيح ما لم يختلف فيه، على ما اختلف فيه، لأن المتفق على رفعه حجة من جميع جهاته، والمختلف في رفعه على تقدير الوقف، هل يكون حجة أم لا ؟ فيه خلاف، والأخذ بالمتفق عليه، أقرب إلى الحيطة)

1() أخرجه الترمذي (2647) واللفظ له، وابن ماجه (232) من حديث ابن مسعود، وهو حديث متواتر.

2() أخرجه البخاري (67) ومسلم (1679).

3 () صحيح مسلم (3004) كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن من علل هذا الحديث الكبرى كونه غريبا، فقد تفرد به همام عن زيد، وهذا ما يجعل أحاديث إباحة الكتابة الصحيحة أرجح منه، فليس فيها التفرد الذي في هذا الحديث.

بالإضافة إلى ذلك كله، فإن أبا سعيد - الذي روى الحديث ـ لا يرى علة لهذا المنع، إلا أنه لا يريد أن يجعل الحديث كالقرآن في مصاحف، ولا يذكر أن العلة هي أن الرسول ﷺ نهى عن ذلك، وهذا يؤيد ما قيل من أن الحديث الذي نقلوه مرفوعا إلى رسول الله ﷺ إنما هو موقوف عليه.

أما الرد عليه متنا؛ فهو ذلك الاهتمام الذي أولته الأمة ابتداء من عصورها الأولى بكتابة السنة المطهرة، ومحاولة تمييز الصحيح منها من السقيم.

ونحن وإن كنا انتقدنا بعض المناهج المرتبطة بذلك في كتبنا، وخاصة في كتاب [التراث السلفي تحت المجهر]، ولكن ذلك لا يعني طرح جميع الأحاديث، وإنما كان تركيزنا على الأحاديث التي هي موضع خلاف بين الأمة، مثل أحاديث التوسل والقبور وبعض مناقب الصحابة ونحوها، مما يمكن اعتباره من صنف الحديث المختلف فيه.

أما الأحاديث الأخرى، وخاصة تلك المرتبطة بالقيم العقدية والسلوكية والأخلاقية؛ فهي موضع اتفاق في الأمة، حتى ما كان منها ضعيفا، لأنه قد يرد في المصادر السنية بأسانيد ضعيفة، بينما نجده في المصادر الشيعية بأسانيد أقوى، وبذلك تقوي الأسانيد بعضها بعضا.

وقد حاولنا في كتابنا [سنة بلامذاهب] أن نضع القواعد المرتبطة بذلك، والتي يسهل استعمالها لإخراج الأحاديث بعيدا عن النزاعات المذهبية والطائفية.

وقد ذكرنا فيه أنه يمكن الاستفادة من أي حديث يخدم المقاصد القرآنية، حتى لو كان ضعيفا، لأنه لا يصح رمي كل حديث ضعيف، بل ترمى الأحاديث التي تخالف القواعد

الشرعية فقط، ومن أمثلة ذلك الحديث العظيم الـذي يـروى في فضل العلم، والذي رفعه معاذ بن جبـل عن رسـول اللـه ﷺ: (تعلمُـوا الْعلم فَـإِن تعلمـه للـه خشـيَة وَطَلَبـه عبَـادَة، ومدارسته تَسْبِيح، والبحث عَنـهُ جِهَـاد، وتعليمـه من لَا يُعلمـهُ صَدَقَة، وبذله لأَهله قربَة، وَهُوَ الأنيس فِي الْوحدَة، والصـاحب فِي الْخلْـوَة، وَالـدَّلِيل عَلَى الـدِّين، والمصـبر عَلَى السَّـرَّاء وَالضَّرَّاء، والوزير عِنْد الأخلاء، والقـريب عِنْـد الغربـاء، ومنـار سَبِيل الْجنَّة، يرفـع اللـه بِـهِ أَقْوَامًـا فيجعلهم فِي الْخَيْـر قـادة سادة هداة يُقْتَدَى بهم، أَدِلَّة فِي الْخَيْر تقتص آثَـارهم وترمـق أفعـالهم، وتـرغب الْمَلَائِكَـة فِي خلتهم وبأجنحتهـا تمسـحهم، وكل رطب ويـابس لَهُم يسْـتَغْفر حَتَّى حيتـان الْبَحْـر وهوامـه وسباع الْبر وأنعامه وَالسَّمَاء ونجومها)[1]

وهو حديث اتفق الكل على تضعيفه، بينمـا هـو في لغتـه ومعانيه قطعة أدبية رفيعة ممتلئة بالمعاني السامية، ولا ضرر في روايتهـا ورفعهـا إلى رسـول اللـه ﷺ لأن كـل المعـاني الـواردة فيـه واردة في نصـوص أخـرى، بالإضـافة إلى كونـه مرويا في المصادر الشيعية.

وهكذا يمكننا بهـذا المنهج الـذي يعتمـد المتن، أن نجمـع الكثـير من نصـوص السـنة النبويـة، والممتلئـة بالمعـاني السامية، والتي تخـدم المقاصـد القرآنيـة، من غـير أن يكـون في ذلك أي ضرر.

بل إننا بهذا المنهج يمكننا الاستفادة من الأحـاديث الـتي تحـوي على بعض العبـارات والجمـل الـتي تنـاقض القواعـد الشـرعية، حيث يمكننـا حـذفها والإبقـاء على بـاقي الحـديث الذي نرى توافقه مع الشريعة، وبـذلك يمكننـا أن نـرى ثـروة كبيرة من الحديث يمكننا الاستفادة منها في خدمـة المقاصـد

---

[1] () قال الألباني في [ضعيف الترغيب والترهيب (1/ـ 45)]: رواه ابن عبـد الـبر النَّمِري في "كتاب العلم" من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشـي: حـدثنا عبـد الرحيم بن زيد العمّي عن أبيه عن الحسن عنه. وقال: (هو حديث حسن [جداً]، ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رُوَّيناه من طرقٍ شتى موقوفاً، كذا قال رحمـه اللـه، ورفعـه غريب جداً..

القرآنية.

وهذا المنهج هو الذي اعتمده الغزالي والفيض الكاشاني والمنـذري وغـيرهم في كتابـاتهم المرتبطـة بـالترغيب والترهيب، لأن الدعوة للقيم الرفيعة تستدعي تـوافر الكثـير من النصـوص الـتي تشـجع على العمـل الصـالح، وتنفـر من العمل القبيح، ذلك أن بعض الناس قـد لا تـؤثر فيهم مجملات القـرآن الكـريم بقـدر مـا تـؤثر فيهم التفصـيلات الـواردة في السنة.

ومن الأمثلة على ذلك الحديث الذي يـذكر عقوبـة تـارك الصلاة، والذي كـان ينتشـر بين العامـة بكـثرة، وقـد كـان لـه تأثيره الواقعي الكبير، لولا أن بعض أصحاب الاتجاه السـلفي راح يحـذر منـه بحجـة كونـه موضـوعا، مـع كونـه مرويـا في المصادر الشيعية، وهو ما روي عنه ﷺ أنـه قـال: (من تهـاون بصلاته من الرجال والنساء ابتلاه الله بخمس عشـرة خصـلة، ست منها في دار الدُّنيا، وثلاث عنـد موتـه، وثلاث في قـبره، وثلاث في القيامة إذا خرج من قبره.. فأما اللواتي تصيبه في دار الدُّنيا: فالأولى: يرفع الله البركـة من عمـره، ويرفـع اللـه البركة من رزقه، ويمحو الله عزَّ وجلّ سـيماء الصـالحين من وجهه، وكل عمل يعملـه لا يـؤجر عليـه، ولا يرفـع دعـاؤه إلى السماء، والسادسة ليس له حظ في دعـاء الصـالحين.. وأمـا اللواتي تصيبه عند موتـه فـأولاهن: أنـه يمـوت ذليلاً والثانيـة: يموت جائعاً، والثالثة: يمـوت عطشـاناً، فلـو سـقي من أنهـار الدُّنيا لم يرو عطشه.. وأما اللواتي تصيبه في قبره فـأولاهن: يوكل الله بـه ملكـاً يزعجـه في قـبره، والثانيـة: يضـيِّق عليـه قبره، والثالثة: تكون الظلمة في قبره.. وأمـا اللـواتي تصـيبه يوم القيامة إذا خرج من قبره فأولاهن: أنه يوكل الله به ملكاً يسحبه على وجهه والخلائق ينظرون إليـه، والثانيـة: يحاسـبُ حساباً شديداً، والثالثة: لا ينظر الله إليه ولا يزكِّيه وله عـذاب أليم)[1]

---

[1] مستدرك الوسـائل، ج3، ص24.ـ لكن قـال عنـه الشـيخ ابن بـاز في مجلـة [البحوث الإسلامية: (22 /ـ 329)] : (أما الحديث الـذي نسـبه صـاحب النشـرة إلى

ومن هـذا البـاب أيضـا تلـك الأدعيـة الكثـيرة والممتلئـة بالمعاني السامية، والتي رويت عن رسول اللـه ﷺ، والـتي لا يمكن أن نسـتغني عنهـا بسـبب ضـعف أسـانيدها، ذلـك أن العبرة بمعانيها، لا بألفاظها، فإن كان في ألفاظها مـا يعـارض المعاني القرآنية، حذف، وترك الباقي لتستفيد الأمة منه.

ولهذا نجد في المدرسة الشيعية انفتاحـا كبـيرا في هـذا الباب، وهـو مـا أورثهم ثـروة كبـيرة من الأدعيـة والمناجيـات التي لا نجد نظيرا لها في المدرسة السنية، وهم مع اعـتراف محققيهم بضعف الكثير منها إلا أنهم لا يرون بأسا باستعمالها ما دامت تخدم المقاصد القرآنية.

وطبعا.. لم يكن هدفي هنا هـو البحث في هـذا المجـال، وإنما أردت أن أبين لهؤلاء الذين يزعمـون أنهم قرآنيـون، أن العاقل هو الذي يبحث عن كل شيء يحقق مقاصده، لا الـذي ينفر منها، وبما أن السنة المطهرة أحسـن الوسـائل لتحقيـق المقاصد القرآنية والـدعوة إليهـا، فمن قلـة العقـل أن نـزعم لأنفسنا أننا قرآنيون، ثم نـرمي تلـك الـثروة العظيمـة، بحجـة عدم ثبوتها.

رسول الله ﷺ في عقوبة تارك الصلاة وأنه يعـاقب بخمس عشـرة عقوبـة الخ : فإنـه من الأحـاديث الباطلـة المكذوبـة على النـبي ﷺ كمـا بين ذلـك الحفـاظ من العلمـاء رحمهم الله كالحافظ الذهبي في [لسان الميزان] والحافظ ابن حجر وغيرهما)، وقال عنه الشيخ ابن عثيمين: (هذا الحـديث موضـوع مكـذوب على رسـول اللـه ﷺ لا يحـل لأحد نشره إلا مقروناً ببيان أنه موضوع حتى يكون الناس على بصـيرة منـه) [فتـاوى الشيخ الصادرة من مركز الدعوة بعنيزة " (1 / 6)]

التنويريون.. والإجماع

من الأدوات التي يستخدمها التنويريون الجـدد للتشـكيك في الحقـائق القطعيـة، وممارسـة وظيفـة الهـدم، الـتي هي أسهل الوظائف، وأكثرها انتشارا، أداة [خرق الإجماع]

ذلك أن هذه الأداة تتيح لهم أن يدلوا بأقوال لم يسبقهم إليها أحـد، وبـذلك يعتـبرون أنفسـهم، أو يعتـبرهم جمهـورهم أصـحاب مشـاريع تجديديـة؛ فهم لا يريـدون أن يظهـروا بين الناس بأنهم مقلدة، أو بأنهم يجترون أقوال من سبقهم.

وهي أيضا تيسـر عليهم التعامـل مـع القضـايا المختلفـة بسـهولة ويسـر، ذلـك أنهم لن يحتـاجوا إلى البحث في كتب العقيـدة ولا الفقـه ولا الحـديث ولا التفسـير، ولا يحتـاجون لمراجعة العلماء من المـدارس المختلفـة للتحقـق في أنـواع البراهين، وأنماط الحجج، وإنمـا يكفيهم أن يـدلوا بـرأيهم، ثم بقنبلة واحدة يرمون جميـع الفقهـاء والمفسـرين والمحـدثين من المدارس المختلفة من غير أن يطلعـوا على أقـوالهم، أو يكلفوا أنفسهم عناء فهمها.

وهي أيضا تيسر لهم أن يكونوا أحرارا غير محاطين بـأي قيود تحول بينهم وبين التفكير الحر، الذي لا يتقيـد بـأي قيـود حتى لو كانت قيود الشريعة نفسها.

ولـذلك مـا أسـهل لمن يفكـر بهـذه الطريقـة أن يحـدد أهدافه من الدين، ثم يحدد بعد ذلـك وسـائله لتحقيقهـا، وقـد يستفيد ذلك من التيارات الفكريـة المختلفـة.. ليحمـل الـدين بعد ذلك عليهـا.. فـإن كـان شـيوعيا حـول من الـدين نظريـة شيوعية.. وإن كان وجوديـا جعـل من الـدين وسـيلة لتحقيـق الرؤى الوجودية.. وإن كان يـرى أن غايـة الحيـاة هي تحقيـق الديمقراطية حول الدين جميعا أداة لتحقيق الديمقراطية.

وهو لن يستعمل في ذلك إلا بعض الخـدع والحيـل الـتي استعملها السفسطائيون، والذين قضوا على المنطـق، وعلى

كل معقول مثلما يقضي التنويريون الجدد على كل قطعي من الحقائق، وكل متفق عليه من شؤون الدين والدنيا.

ومن الحيل التي يستعملونها في هذا الجانب أنهم يلجؤون إلى الخصام الحاصل بين الفرق الإسلامية؛ فيستفيدون من ردود السنة على الشيعة، أو من ردود الشيعة على السنة.. ليضربوا كلا من السنة والشيعة.. ولا يعلمون أنهم لا يضربون فقط مواضع الخلاف بينهم، وإنما يضربون أيضا مواضع الإجماع والاتفاق.

وهم بذلك يفعلون مثلما يفعل ذلك الملفق المحتال على الدين، والذي عبر عنه أبو نواس بقوله:

أباح العراقيّ النّبيذ وقال: حرامان

وقال الحجازي: فحلّ لنا من بين

سآخذ من قوليهما وأشربها لا فارق

وعبر عنه آخر نثرا، فقال: (أباح أهل الحرمين الغناء وحرموا النبيذ، وأباح أهل العراق النبيذ وحرموا الغناء، فأوجدونا السبيل إلى الرخصة فيهما عند اختلافهما إلى أن يقع الاتفاق)[1]

وهذا هو منهجهم في النقد الذي يسمونه [نقد العقل العربي] أو [نقد العقل الإسلامي]، ونحن لا ننكر إنكارا مطلقا على هذا السلوك، وقد فعله الغزالي عند نقده للفلاسفة، فقد ذكر أن مراده إلزامهم بأي حجة، وقد تكون حجة للمعتزلة أو لمدرسة فلسفية مخالفة وغيرها، ليثبت لهم أن العقل المجرد لا يكفي وحده لحل حقائق الوجود الكبرى.

ولكنا ننكر خرقهم للإجماع، لا إجماع الطائفة الذي عبر عنه الإمام أحمد بقوله: (من ادعى الإجماع فقد كذب، وما يدريك لعلهم اختلفوا)[2]، ذلك أنه لا يصح أن يسمى هذا

---

(1) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (1/ 769)

النوع إجماعا، فالأمة الإسلامية تشمل جميع الطوائف، لا طائفة بعينها، ولذلك فإن الذي يذكر الإجماع يحتاج أن يعرف موقف المدارس الإسلامية المختلفة من القضية المطروحة، وهو ما فعله الإمام أحمد نفسه حين استدل بالإجماع على نجاسة الدم، فأجاب من سأله: (الدم والقيح عندك سواء؟) بقوله: (الدم لم يختلف الناس فيه، والقيح قد اختلف الناس فيه)[1]

وذلك الإجماع الذي لا يحل الخروج عليه هو ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: (إن الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة)[2]

وهو جزء من حديث دل معناه على صحته، وهو قوله ﷺ: (إن الله أجاركم من ثلاث خلال: أن لا يدعو عليكم نبيكم، فتهلكوا جميعا، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وأن لا تجتمعوا على ضلالة)

والقرآن الكريم يدل على هذا، ذلك أن وقوع جميع الأمة في الباطل يعني انتصاره على الحق مع أن الله تعالى أخبر أن الحق لن ينطفئ نوره أبدا، كما قال تعالى: { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [الصف: 8]، وقال: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } [الإسراء: 81]

وأخبر عن بني إسرائيل أنهم لم يجمعوا على تحريف الدين، بل بقيت منهم طائفة صالحة، إلى أن جاء الإسلام فاتبعته، كما قال تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف: 159]

[2] إقامة الدليل على إبطال التحليل ص275.

[1] شرح العمدة، 1/105.

[2] أبو داود 4/98، حديث 4253، وابن ماجه، حديث رقم3950، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة (ج 3 / ص 319)

وأخبر رسول الله ﷺ أن في هذه الأمة كذلك، لن يجمع الكل على الانحراف، بل ستبقى طائفة ملتزمة بالحق، حتى تقام الحجة على الخلق.. ذلك أنه لو لم يبق إلا الباطل المجرد، لما استطاع الخلق التمييز بين الحق والباطل.

وقد نص على ذلك قوله ﷺ: (لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله)[1]

وبذلك تنقطع حجة كل من يريد أن يأتي في الدين بالجديد الذي يغيره من جذوره، كما نسمع الكثير من التنويريين الذين يريدون إنشاء دين جديد لا علاقة له بما اتفقت عليه الأمة.

وهذا لا يعني أننا لا نجتهد في فهم النصوص، ولا في استفادة الجديد منها، ولا في البحث عن كيفية تفعيلها في الحياة، ذلك أن كل هذا بناء، وليس هدما.. وإنما نعني به ذلك الهدم الذي ينقض الدين من أساسه، باستعمال الحيل السفسطائية المستفادة من المناهج المختلفة.

وقد يتصور البعض أن مساحة إجماع الأمة محدود، وهذا وهم كبير، فمساحة الاتفاق في الأمة أكبر بكثير من مساحة الخلاف فيها.. فهي تتفق في أكثر مسائل العقيدة وقضاياها، فهم يتفقون جميعا في معظم المسائل المرتبطة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهم يتفقون في أكثر مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، وإن كانوا يختلفون في بعض الفروع، التي ليس لها من الأهمية ما لأصول الدين الكبرى التي نصت عليها الأدلة القطعية.

وهم يتفقون كذلك في أكثر مسائل الفقه وقضاياه، سواء في أبواب العبادات أو المعاملات، باعتبار أن أصول هذه الأبواب مذكورة في القرآن الكريم بصيغة قطعية، لتحفظ وحدة الأمة في هذا الجانب، بل إننا عندما نرجع

---

(1) البخاري 6/731، حديث 3641، ومسلم 3/1524.

للمصدر الثاني الذي هو السنة المطهرة، نجدهم كذلك يتفقون في أكثر الفروع الفقهية، والخلافات بينهم لا تعدو بعض الصور أو القضايا البسيطة.

وهم يتفقون كذلك في أكثر قضايا السلوك والأخلاق، والتي وردت التفاصيل الكثيرة المرتبطة بها في القرآن الكريم والسنة المطهرة، واتفقت الأمة عليها بلا خلاف.

وهم يتفقون كذلك على مركزية القرآن الكريم، والكثير من السنة المطهرة، وكونها مصادر الدين في جميع أحكامه.

بالإضافة إلى هذا كله يتفقون في الكثير من المواقف التاريخية أو السياسية كالقضية الفلسطينية، وعلى ضرورة وحدة الأمة، وعلى مواجهة كل مشاريع التخلف والعولمة والحداثة والاستعمار التي تريد أن تقضي عليها.

وبذلك فإن مساحة الخلاف محدودة جدا، وإنما يضخمها المتطرفون الدينيون، والمتطرفون اللادينيون حتى يستثمروا مسائل الخلاف في تشويه الدين، وتحطيم الأمة، وإطفاء نور الحقيقة فيها.

التنويريون.. والتكلف والفضول

ينتقد التنويريون كل حين، وبلهجة شديدة، ذلـك التخلـف الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية بسبب وقوعها في الخرافات والـدجل، وعـدم اهتمامهـا بالحقـائق الـتي تـؤثر في الواقـع الشخصي؛ فتهذبه وترقيه، أو الواقع الاجتماعي؛ فتجعله واقعا حضاريا راقيا متطورا.

لكنهم يقعون في نفس الخطأ حين يهجمـون، ومن دون أثـاره من علم، أو سـلطان من حجـة على معـاني كثـيرة؛ فيفتون فيها بجزم وتحقيق، وكـأن كتـاب الغيب قـد فتح لهم؛ فراحوا يقرؤونه للناس، وبـذلك يقعـون في نفس مـا أنكـروه على غيرهم، بل ربما يقعون فيما هو أخطر منه.

ذلك أن خرافات السابقين، تستند لروايـات يتفـق جميـع المسـلمين على أنهـا ليسـت روايـات معتـبرة، وأن أصـحابها كـانوا يهـودا، نقلـوا معـارفهم وثقـافتهم للمسـلمين الـذين تفرقوا، ففيهم من استمع لها، وفيهم من لم يستمع إليها.

لكن خرافات التنويريين الجدد، لا تستند لتلك الروايـات، بـل هي تسـتند لمنـاهج غريبـة في الاسـتنباط، لا يـدل عليهـا العقل، ولا أي منطق صـوري ولا رياضـي.. ولا يـدل عليهـا إلا الهوى المجرد، والتحكم الذي لا ضابط له.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن نحصـيها في هـذا المقـال المختصـر، ولـذلك نكتفي ببعض مـا ذكـره من يصـور لنفسـه وأتباعه أنه المحيط بحقائق القرآن الكريم، وأنـه أخـرج منهـا من المعـارف مـا سـبق بـه الأولين والآخـرين، وهـو محمـد شحرور، وذلـك في سلسـلة الكتب الـتي ألفهـا حـول الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام، والتي تنبع استنباطاته فيهـا من نفس المنابع التي نهل منها كعب الأحبار ووهب بن المنبه وغيرهمـا من التكلف الممقوت، والفضول الذي نهينا عنه.

ومن ذلك ما فسر به قوله تعالى: { وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا نُوحًـا

إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [العنكبوت: 14]، والتي كان يمكن أن يقرأها كما يقرؤها أي مؤمن من أن نوحا عليه السلام مثال للصبر الجميل، وأنه مكث كل تلك المدة مع قومه يؤدي رسالة الله، ويبلغ حججه من غير أن يضيق أو يضجر، ويقرأ منها مدى صبر الله وحلمه على خلقه، وأنه لم ينزل بهم عقوبة الطوفان إلا بعد تلك السنين الطوال.

لكن شحرورا لم يقرأها بهذه الطريقة، بل راح يبحث عن الحيلة التي يحول بها تلك المئات من السنين إلى أربعين سنة، وكأن الله الذي خلق كل شيء يعجز أن يمد في عمر نوح عليه السلام إلى تلك المدة التي ذكرها القرآن الكريم.

وسنذكر هنا ما ذكره لنرى عجائب ما استدل به لذلك؛ فقد قال: (كانت الأعمار في عهد نوح لا تزيد أبداً عن الأعمار في يومنا هذا، بل لعلها كانت أقل، فلقد أثبتت الوثائق التاريخية أن متوسط الأعمار عند الفراعنة لا يزيد عن 40 عاماً، أما الزعم بأن عمر آدم كان ألف عام، وأن نوحاً لبث في قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الإسلام فهذا ضرب من العبث والتخريف، لا نلوم عليه أصحاب التراث التوراتي لأن علوم التاريخ كانت مجهولة لديهم، لكننا نلوم المعاصرين الذين ما زالوا يظنون ويفرضون علينا ظنهم، أن الإنسان كان يعيشِ ألف عام وأكثر)[1]

وهذا استدلال عجيب، إذ كيف يستدل بالوثائق التاريخية المرتبطة بالفراعنة على زمن نوح عليه السلام، والذي لا نملك أي آثار تدل عليه؛ فالآثار لم تحفظ لنا كل التاريخ، ولذلك من العجيب أن نستدل على حقائق التاريخ، وخاصة ذلك الموغل منه في القدم بما ليس لدينا أي حجة أو براهين عليه، ثم ننسف بعد ذلك الحقائق القطعية التي حكاها لنا ربنا.

---

(1) شحرور، القصص القرآني، قراءة معاصرة، 2/ 49..

وبعد أن يضع شحرور تلك المقدمة التي لا تملك أي حظ من العلمية، يقدم مقدمة أخرى، يتفق الجميع على صحتها، لكنه يستخدمها بطريقة خاطئة، فيعتمد ـ مثل عادته ـ القواعد الصحيحة، لا للبناء، وإنما للهدم؛ فيقول: (من حيث المبدأ، إذا تعارض ظاهر نص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة وجب اللجوء إلى التأويل، وإن تعارض فهمنا لنص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة حكمنا بأن فهمنا للنص هو الخطأ، وليس النص بذاته، لأن كلام الله تعالى بداهة لا يمكن ولا يجوز أن يتعارض مع كلماته أي مع قوانينه ونواميسه)[1]

وهذه حقيقة، ولكنها تستعمل عندما يتعارض ظاهر النص القرآني مع ما ثبت علميا، وما ذكره عن الفراعنة ليس له علاقة بتاتا بعمر نوح عليه السلام، ولا أعمار قومه؛ فالمسافة بينهما طويلة، ولا يمكن قياس الغائب على الشاهد.

والنتيجة التي وصل إليها بعد لف ودوران طويلين هي ما عبر عنه بقوله: (إن القرآن استعمل التقويم الذي كان سائداً في عهد نوح، وليس في تقويمنا نحن، فمتوسط أعمار البشر في نمو مستمر، وليس العكس)[2].. وبذلك، وبعد اطلاع هواه المجرد على التقويم الذي كان معتمدا في عهد نوح عليه السلام خلص إلى أن الألف سنة التي تحدث عنها القرآن الكريم قد لا تساوي 40 عاما.

وبقوله هذا يصبح ما ذكره القرآن الكريم من مدة مكث نوح عليه السلام مع قومه لا معنى له، ذلك أن الله تعالى لم يذكر مدة مكث نوح عليه السلام في أداء دوره الدعوي إلا بسبب تلك الخاصية التي تميز بها، وهي الطول الشديد الذي يستدعي الصبر الجميل مع الحلم والأناة.

---

[1] () المرجع السابق، 2/ 51..

[2] () المرجع السابق، 2/ 53.

وبذلك، فإن شحرورا بسلوكه هذا ـ والذي تصور أنه يصحح فيه معلومة أخطأ جميع المفسرين في فهمها ـ قضى على حقيقة قرآنية، وقيمة من القيم الجميلة التي جاءت تلك الآية الكريمة لبيانها.

ومثل ذلك حديثه عن سفينة نوح عليها السلام، ومن ركبها، والتي كان يمكن أن يسلم بما ورد في القرآن الكريم عنها من كونها سفينة عجيبة حمل فيها نوح عليه السلام المؤمنين به، وزوجين من الحيوانات كما ذكر القرآن الكريم من غير أن يتكلف في البحث عن طول السفينة، ولا عرضها، ولا فيمن ركبها من الإنس والحيوانات، لأن هدف القرآن الكريم من ذكرها هو بيان نصر الله للمؤمنين، وعقابه للجاحدين، وليس تفاصيل السفينة، ولا من ركبها.

لكن شحرورا لم يفعل ذلك، وإنما راح يقزمها ويحتقرها، ولم يكتف بذلك، بل راح يجادل فيمن ركب فيها من البشر ويشكل عليه، مع كون القرآن الكريم أخبر أنه لم يركب فيها إلا المؤمنون.

وقد قال معبرا عن ذلك: (تحدث المفسرون بالتفصيل الممل عن أن ركاب السفينة ثلاثة أنواع: الأول يشمل الحيوانات والنباتات ويحكمه مبدأ من كل زوجين اثنين أولهما ذكر والثاني أنثى، والثاني يشمل أهل نوح وهم ثمانية: نوح وامرأته وأبناؤه الثلاثة سام وحام ويافث لكل واحد منهم زوجة، وهذا النوع الثاني يحكمه ما يحكم النوع الأول، أما الثالث فيشمل من آمن بنوح وهم قليل، لكننا لم نسمع أحداً من المفسرين أشار إلى المبدأ الذي يحكمهم أهو مبدأ الإيمان فقط أم هو مبدأ من كل زوجين اثنين الذي حكم النوعين الأول والثاني؟)

وقد طرح هذا الذي توهمه إشكالا ليؤسس عليه بأن نوحا عليه السلام، لم يركب ابنه في السفينة بسبب عدم إيمانه، وإنما بسبب كونه عازبا، وقد قال مقررا هذا: (والسؤال الآن: ماذا يفعل نوح بشاب عازب مؤمن؟ هل

يتركه للغرق لأنه عازب؟ أم يحمله معه لأنه مؤمن ليسطو على زوجات الآخرين بعد انحسار الطوفان؟)

ويشكل على زوجة نوح عليه السلام أيضا، مع أن القرآن الكريم لم يتحدث عن ركوبها في السفينة معه، لأن الغرض هو الحقائق والعبر لا تفاصيل من ركب السفينة ومن لم يركبها، فلذلك كان يكفيه أن يقرأ قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [هود: 40]

لكن شحرورا لم يفعل ذلك، وإنما راح يستنبط من القرآن الكريم بطريقته الخاصة أسماء من ركب ومن لم يركب، فقد قال: (وإن كان المعيار في الدخول إلى السفينة هو الإيمان فلماذا حمل نوح امرأته وقد ضربها الله في كتابه مثلاً للذين كفروا ولم يحمل ابنه؟ والأهل هم الزوجة والأولاد، وابنه ممن سبق عليه القول، لأنه ليس ابنه)[1]

وهكذا راح يتكلف في استنباط شكل السفينة وقدراتها، ويتصور أن الإجابة على ذلك تشكل مسألة مهمة، مع كونها ليست كذلك، وحتى لو كانت كذلك، فإنه ليس لدينا من الأدلة ما يمكننا أن نستند إليه.

وقد قال معبرا عن ذلك: (هنا سيظهر سؤال في غاية الأهمية وهو: ما هو المستوى الإنتاجي في الأدوات المستخدمة لصنع الفلك؟ ومن ركب في الفلك؟ لقد أجاب القرآن على هذه الأسئلة كالتالي.. لم يكن في زمن نوح حبال ولا مسامير لربط الخشب بعضه إلى بعض، وإنما تم ربط الخشب على مبدأ الدسر وهي الألياف الطبيعية.. أما الفلك نفسه فقد جاء من فعل [فلك] وهو الاستدارة، وهو بمثابة المعدية المائية، وقد أكد القرآن أنه لم يكن في ذلك الوقت مجاذيف للتجذيف ولا دفة للتوجيه ولا أشرعة.. أي أن

1() المرجع السابق، 2/ 45-46..

الفلك مجرد جسم خشبي له استدارة يعوم على الماء فقط.. فإذا سأل سائل: كيف تم التوجيه والجر في فلك نوح؟ أقول: لقد تم الجر بواسطة التيار المائي حسب اتجاهه الطبيعي.. أما الآن فإن توجيه السفن يجري بواسطة الرادار والبوصلة، والشد يجري بواسطة المحرك والأشرعة)

وهكذا راح يتكلف في كيفية حصول الطوفان، وكان في إمكانه ألا يبحث في ذلك كله، ويركز على المعاني والعبر المرتبطة بذلك، خاصة مع عدم ورود أي دليل.

وقد قال ذلك بصيغة التقرير والجزم، بل والإيجاب: (يجب أن نفهم أن طوفان نوح كان محليا أي عبارة عن عاصفة مطرية كبيرة جدا جرت بشكل محلي، حيث كان قوم نوح يسكنون في مناطق منخفضة قريبة من الأنهار تحيطها الجبال.. ونحن نعلم الآن أنه خلال ساعات من العاصفة المطرية الشديدة يمكن إغراق مدينة بأكملها، وبنفس الوقت نعلم إذا كانت هناك عاصفة مطرية تبعها طوفان في منطقة ما في أستراليا فهذا لا يعني أن الطوفان قد وصل إلى مصر أو الهند، وأن من يفسر بأن الطوفان عم كل الأرض فهذا غير صحيح ولكنه عم لك الأرض التي سكنها قوم نوح وبنفس الوقت لم يغط الجبال.. وبما أن المنطقة التي سكن فيها قوم نوح عبارة عن منطقة محاطة بالجبال، فقد حصل تيار مائي قوي وكان الموج كسلاسل الجبال من حيث الشكل لا من حيث البعد كما نراه الآن في طوفان الأنهار الجبلية ذات الميول الكبيرة)

وهكذا راح يتكلف في تفاصيل كثيرة، بل راح يصور أن قوم نوح عليه السلام لم يهلكوا بسبب كفرهم، وإنما بسبب عدم معرفتهم بالسباحة، فقد قال: (وبما أن كل الذين لم يركبوا في الفلك هلكوا فمن الجائز أن الإنسان في زمن نوح كان لم يتعلم السباحة بعد)

وراح يفسر قوله تعالى: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } [نوح: 25]، والذي

يستدل به العلماء عادة على وقوع العـذاب في الـبرزخ، لكن شحرورا فسرها بغير ذلك؛ فقال ـ ليفـر من عـذاب الـبرزخ ـ (لقد جرف السيل جثث قوم نوح ورماهـا في فوهـة البركـان حيث يتبين من الآية أن فوهة البركان كانت منخفضـة وعلاهـا المـاء، ودخلت الجثث في البركـان، وقـد بين هـذا في قولـه: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَـارًا فَلَمْ يَجِـدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } [نوح: 25]، هنا استعمل فاء السـببية والتعقيب بين الغرق وإدخال النار واسـتعمل النـار نكـرة وهنـا لا يقصـد فيها نار جهنم)

ومثل ذلك تكلفه في معرفـة تفاصـيل كثـيرة عن أقـوام الأنبياء من غير أي دليل، كقولـه عن قـوم نـوح عليـه السـلام أنهم كانوا يعبـدون الظـواهر الطبيعية [1] بـدليل قولـه تعـالى حكاية عن دعوة نـوح عليـه السـلام لقومـه: {أَلَمْ تَـرَوْا كَيْـفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَـرَ فِيهِنَّ نُـورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} [نوح: 15، 16]

مع أن مثل هذه الآيات واردة في خطاب القرآن الكـريم للبشر جميعا بما فيهم قـوم النـبي ﷺ أنفسـهم، فاللـه تعـالى يقــول: {إِنَّ فِي خَلْــقِ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْــلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَـا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّــمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: 164]، فهل هذه الآيـة الكريمة وغيرها كثير موجهة لمن يعبد الظـواهر الطبيعيـة، أم أنها خطاب الله لعباده ليستدلوا بالصنعة على الصانع.

وعلى هذا المنهج نجد أتباع هذه المدرسة يتكلفـون كـل حين، ليخرجـوا لنـا من الاسـتنباطات مـا لم يـذكره الأولـون والآخرون، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه بعضهم تحت عنوان [النبي محمد ليس من ذرية النبي إسماعيل][2]، وهو منشـور

---

[1] () المرجع السابق، 2/16..

في موقع شحرور، والذي تكلف فيه صاحبه تكلفا شديدا ليثبت في الأخير أن محمدا ﷺ من ذرية إسحق، وليس من ذرية إسماعيل.

وقد قال في مقدمة مقاله ذلك ــ كعادة التنويريين ــ: (لدراسة هذا الموضوع وبعيداً عن تأثير اليهود في التاريخ وتحريفه لصالحهم، لابد من إعادة دراسة الموضوع من القرءان ذاته وترتيب النصوص مع بعضها وفق منطق اللسان العربي ومنطق القرءان لتتكامل الصورة، وهذه محاولة لإعادة ترتيب النصوص وفهمها من جديد حسب المحكم منها ورد المتشابه لها، مع الانتباه إلى أن حادث ضيوف إبراهيم هو واحد، والمرأة القائمة على خدمة الضيوف هي ذاتها في النصوص، والبشرى بالولد في النصين متعلقة بواحد)

ثم ذكر أن بكر إبراهيم عليه السلام هو إسحق وليس إسماعيل، وأنه هو الذي أمر بذبحه، ثم علق على ذلك بقوله: (وبهذا العرض القرآني وصلنا إلى أن الولد صاحب البشرى هو إسحاق، وليس قبله أي ولد، ولا يوجد عند النبي إبراهيم غير أم إسحاق بدليل فهمها أنها المقصودة بالحمل والولادة، ولو كان يوجد غيرها لما صكت وجهها وقالت: إنها عجوز عقيم، عقب سماعها البشرى لبعلها، وبعد ذلك توجهت الملائكة بالبشرى لها)

بل إنه ذهب إلى أن إسماعيل عليه السلام ليس ابنا لإبراهيم عليه السلام، واستدل لذلك باستدلال عجيب عبر عنه بقوله: (وما يؤكد ما ذهبنا إليه من كون النبي إسماعيل ليس ابناً للنبي إبراهيم هو غياب ذكر النبي إسماعيل من قول النبي يوسف عندما ذكر آباءه: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [يوسف: 6].. وذكره الله منفصلاً عن

---

(2) النبي محمد ليس من ذرية النبي إسماعيل، سامر إسلامبولي، موقع شحرور.

النبي إبراهيم وأبنائه في قوله: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأنعام: 86]، وهذا إشارة إلى أن النبي إسماعيل من ذرية النبي نوح مثله مثل النبيين الذين ذكروا معه، أما النص الذي ذكر النبي إسماعيل كأب لأبناء يعقوب وهو { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 133]، فهو لأن النبي إسماعيل من الآباء السلف الذين مضوا بالنسبة لأبناء يعقوب وهو معاصر للنبي إبراهيم)

هذا وجه استدلاله، وقد ذكرناه بطوله لنعرف الطريقة التي يستنبط بها هؤلاء التنويريون ما يتوهمونه من حقائق، والتي يحرصون فيها على البحث عن الجديد أكثر من حرصهم على الوصول إلى الحقيقة المجردة.

والنتيجة التي يخلص إليها في الأخير هي ما عبر عنه بقوله: (وما ذكرناه من أن النبي إسحاق هو ابن النبي إبراهيم فقط، وهو الذبيح، وهو الذي سكن عند البيت المحرم، والنبوة حصراً من ذريته أو من ذرية النبي نوح، أو من كليهما، نصل إلى أن نسب النبي محمد الخاتمي هو من ذرية النبي إسحاق لأنه هو الذي سكن عند البيت المحرم، والأنبياء في هذه المنطقة كلهم من ذريته)

وهكذا يستنبط من القرآن الكريم أن كل تلك الأحاديث عن بني إسرائيل، ليس هو ما نتوهمه أو نقرؤه في كتب التفسير والحديث والتاريخ، وإنما (الخطاب في القرآن [يا بني إسرائيل] هو خطاب لمجموعة من القبائل من سكان منطقة شبه الجزيرة العربية، وهم متداخلون مع أهل مكة وذرية النبي إبراهيم عن طريق النبي يعقوب، وبُعث النبيين فيهم على الغالب من ذرية النبي إبراهيم وبعضهم من ذرية النبي نوح مثل النبي موسى أو متداخلة مع ذرية النبي إبراهيم.. وبنو إسرائيل هم أرومة القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية ويحتضنون ذرية النبي إبراهيم، ولا علاقة

لليهود بذلك قط)

هذه مجرد أمثلة عن ذلك التكلف المقيت الذي يمارسه التنويريون مع الحقائق القرآنية من غير أن تكون لهم أثارة من علم، ولا سلطان من حجة، اللهم إلا تلك الأوهام التي يخادعون بها العقول التي تأثرت بهم، وتصورت أنها بلجوئهم إليها قد نجت من التطرف، وغفلت عن أنها خرجت من تطرف يلبس عباءة القدماء إلى تطرف يلبس عباءة المحدثين والحداثيين، وكلاهما انحراف.

التنويريون.. وتحريف الكلم عن مواضعه

من السلوكات التي ذكرها القرآن الكريم عن أهل الكتاب كنتيجة لنقض الميثاق، وقسوة القلب [تحريف الكلم عن مواضعه]، وهو ما عبر عنه قوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: 13]

فتحريف الكلم عن مواضعه ــ بحسب الآية الكريمة ـ تبرير لنقض الميثاق، ذلك أن أي إنسان يمارس الخطيئة، ويستحليها، ويدمن عليها، لا يكتفي بها، بل يحاول أن يبررها، ويعطيها من الشرعية ما يحول منها طاعة وقربة، وما يكتسب منها جاها وسمعة، ويكون تبريره لها أخطر من المعصية نفسها، ذلك أن التبرير استحلال للمعصية، ومحادة لله، وتأل عليه.

وهو أيضا يعبر عن قسوة القلب، ذلك أنه لا يحاد الله إلا من قسى قلبه، وطبع بالران والختم والأقفال التي تحول بينه وبين الاستبصار والهداية.. والقلب القاسي هو ذلك الذي يقدم هواه على ربه، ويقدم فكره على كلماته المقدسة، ويجعل من شريعة الله مطية لتلبية نداء أهوائه وشهواته.

ولذلك أخبر الله تعالى عن الظلم العظيم الذي يقع فيه من يضع الشرائع من هواه المجرد؛ فيجعل من نفسه إلها من دون الله، قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [هود: 18، 19]

وهاتان الآيتان الكريمتان لا تصدقان على أحد في هذا العصر كما تصدق على أولئك التنويريين الجدد الذين جعل

كل واحد منهم لنفسه مشروعا كاملا على أساسه يحلل ويحرم، بل يضع العقائد والقوانين التي تحكم الكون.. بل يتألى على الله فوق ذلك؛ فيفرض عليه أن يدخل من يهواه الجنة، ومن يبغضه النار.

وهم يستعملون نفس ما استعمله أهل الكتاب من قبلنا من تبديل الكلم عن مواضعه؛ فيحولون الكلمات عن معانيها الواضحة البسيطة اليسيرة إلى معان أخرى لا علاقة لها بها، وعندما يخرب بنيان الكلمات يخرب معها بنيان المعاني.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن نحصيها، ولكننا نذكر اختصارا بأن أكثر المناهج التي استفادها التنويريون من الغرب، واستعملوها مع القرآن الكريم، باعتباره عندهم مجرد منتوج ثقافي بشري يسري عليه ما يسري على جميع النصوص البشرية، تحريف للكلم عن مواضعه.. ذلك أن النتيجة التي يخلصون إليها هي تفريغه من محتواه، وتحويله إلى مجرد كلمات يتعبد بها من غير أن يكون لها أي حقيقة خارجية واقعية.

وقد ذكرنا في مقالات كثيرة في هذا الكتاب وغيره أمثلة كثيرة عن ذلك التحريف الواضح للألفاظ القرآنية، وإخراجها عن مقاصدها الواضحة، وسنذكر هنا أمثلة أخرى، باختصار، لنتبين كيفية التحريف وآثاره ودوافعه.

فمن ذلك ما نرى التنويريين يكادون يتفقون عليه من تحريف لكلمة [الحور العين]، والتي ذكرها القرآن الكريم كنموذج من نماذج النعيم المقيم الذي وفره الله لعباده في الجنة، ليكون دافعا لهم للعفة والعمل الصالح في الدنيا..

وكان في إمكان التنويريين أن يسلموا لله فيما ذكر، فهو أدرى بعباده، وبرغباتهم، ولذلك خاطبهم بما يتناسب معهم.. لكنهم لقسوة قلوبهم، ولتمردهم على الله، وتقديمهم لأهوائهم عليه لم يفعلوا.. بل راحوا يصورون ذلك باعتباره هوسا جنسيا، والعياذ بالله، مع أن القرآن الكريم لم يذكر أي

شيء يرتبط بذلك، بـل اكتفى باعتبـاره من نعيم الجنـة مثلـه مثل الولدان المخلدون والقصور التي تجري تحتها الأنهار.

وكـان في إمكـانهم أن يـتركوا كيفيـة التعامـل مـع ذلـك النعيم للـه تعـالى، لأن الحقـائق القرآنيـة لم تـذكر التفاصـيل المرتبطــة بــذلك، وإنمــا اكتفت بالنمــاذج الــتي تملأ النفس بالرغبـة، كمـا اكتفت من ذكـر بعض مشـاهد النـار الـتي تملأ النفس بالرهبـة، ومن خلال هـذين الجنـاحين يهـذب المـؤمن نفسه، ويرقي روحه، ويصلح سلوكه.

لكن التنويريين سـاءهم أن يـذكر اللـه تعـالى ذلـك، بـل تمنوا لـو حـذفت أمثـال هـذه النصـوص من القـرآن الكـريم، لكونهــا في تصــورهم تشــويه لــه، ولســت أدري مــا محــل التشويه، وهم أنفسهم يركعون أمـام كـل غانيـة، بـل يـبيعون دينهم ودنيــاهم من أجــل متــاع بســيط من الــدنيا، في نفس الوقت الذي يحتقرون فيه ذلك النعيم المقيم الذي وعد اللـه به عباده المؤمنين.

وكل ذلك دليل على قسـاوة قلـوبهم، وإلا فـإن القلـوب المؤمنة قلوب ورعة تعظم مـا عظم اللـه، وتحقـر مـا حقـر.. فلذلك لا ترى الدنيا بمتاعهـا جميعـا مسـاويا للحظـة الواحـدة من لحظات النعيم المقيم الذي أعده الله لعباده الصالحين.

وقد كان أحسن التنويريين تعبيرا من تحـدث عن الحـور العين بهذا الطـرح الـذي عـبر عنـه بقولـه: (و[الحـور العين] كفكـرة مثاليـة جميلـة، ترتبـط فى أحـد جوانبهـا بــ«العفـة» خصوصـا فى المجتمعـات الفقـيرة وشـقيقتها المغلقـة، حين يكون الزواج أمرا شاقا مع ارتفاع تكاليف الحياة فليس هناك حصن للراغب فيه إلا التعفف والانتظار، وإن لم يفز بها فإنــه سيجد تعويضا مناسبا كلمـا تـذكره حفـزه على عـدم التـورط فى أمور أخرى يرفضها الـدين والمجتمـع، أو تفـرض الثقافـة المجتمعيـة على الراغـبين فى الـزواج الالـتزام بمسـار معين للارتباط يقلل من خيارات الشاب فما عليه إلا أن يرضى بمــا يفرضه عليـه العـرف حـتى وإن كـان ظالمـا، فالصـبر أفضـل

طالما أن جائزته تنتظره فى الجنة)

ومنهم من راح يتهكم بهم، ويصور الصـور الكاريكاتوريـة عنهم، لا لشـيء، إلا لأن الإرهـابيين والمتطـرفين جعلـوا من الحـور العين وسـيلة لاصـطياد المغفلين، وكـان في إمكـانهم مواجهة التطرف والعنـف، لا الـرد على الحقـائق الثابتـة، لأن ردها رد على الله نفسه.

ومنهم من راح يتساءل عن سر وجود حور عين للرجال، وعدم وجود حور عين للنساء، ورأى أن ذلك تفريقا بين الذكر والأنثى، وأن النعيم في الجنة خاص بالذكور لا بالإناث.

وهذا كله تحريـف للكلم عن مواضـعه؛ فـالقرآن الكـريم ذكـــر نمـــاذج عن النعيم، ولم يـــذكر كـــل النعيم، واكتفى بالمتعارف منه، وأعطى فوق ذلك قاعدة تشمل الجميع، عبر عنها قوله تعالى في خطـاب لعبـاده المؤمـنين الـذين نجحـوا في امتحانات الدنيا: {ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَـرُونَ (70) يُطَـافُ عَلَيْهِمْ بِصِـحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْـوَابٍ وَفِيهَـا مَـا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ} [الزخـرف: 70، 71]

فقوله تعالى: {وَفِيهَا مَـا تَشْـتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَـذُّ الْأَعْيُنُ } كاف لترك الخيال يسـرح حيث يشـاء، ليخـترع من النعيم مـا يشاء؛ فقدرة الله لا تحدها الحدود.

وفوق ذلك؛ فكل النعيم المـذكور في الجنـة ممـا يتعلـق بالجنسين، الذكر والأنثى، وقصـر الحـور العين على الرجـال، لاعتبارات خاصـة، لا يعـني تفضـيل الرجـال على النسـاء، ولا يعني أنه لا يوجـد نعيم خـاص بالنسـاء في الجنـة، لأن الآيـات الكريمة لم تفصل لنا كل النعيم، وإنما اكتفت بنماذج عنه.

ولعل من علل ذكر القرآن الكريم للحور العين خصوصا، هو توفير القابلية للرجال لمواجهة الفتن الكثيرة التي تفرزها علاقتهم بالنسـاء، وهي فتن واقعيـة لا شـك فيهـا، وليسـت مرتبطة كما يذكر البعض بالبيئة البدوية، بل هي مرتبطة بكل

الجغرافيا وكـل التـاريخ، ونحن لا نـزال نسـمع كـل حين، بـأن فلانا من الناس من ذوي المناصب الراقية اتهم بـالتحرش، أو بفضيحة جنسية..

ولـذلك لا داعي لأن نكـذب على أنفسـنا، وتعتـبر الفتنـة بالنساء خاصة بـالعرب أو بالبـدو أو بـذلك الجيـل الـذي نـزل القرآن الكريم في عهده، ففي كـل الأجيـال نجـد فتنـة التـأثر بالنسـاء، وفي كـل الأجيـال نجـد قيسـا وليلى.. ونجـد روميـو وجوليت..

فلـذلك كـان الخطـاب القـرآني المرتبـط بـالحور العين خطابا واقعيا يخاطب النفس بما أعد الله لها من نعيم مرتبط بهذا الجانب لتستعلي على فتنـة النسـاء في الـدنيا، لأن اللـه سيعوضها بدلها بالنعيم المقيم في الآخـرة، والـذي يكـون من جملته [الحور العين]، والتي وصفها رسول الله ﷺ بقوله: (لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها على رأسها خـير من الدنيا وما فيها)[1]

ومع وضوح الأدلة من القرآن الكـريم والسـنة المطهـرة على كـون الحـور العين من نسـاء الجنـة، إلا أن التنـويريين الذين يحرفون الكلم عن مواضـعه راحـوا يفسـرونها تفاسـير مختلفة.

لعـل أطرفهـا بحث مطـول زعم فيـه صـاحبه أن الحـور العين ليسوا نسـاء، وإنمـا هن فاكهـة، ثم راح يسـتعرض كـل الآيـات القرآنيـة المرتبطـة بهن، وبنعيم الجنـة، ليحـول منهن فاكهة رغم كل شيء[2].

وقد ذكر في مقدمـة مقالـه المواضـع الـتي وردت فيهـا

([1]) رواه البخاري.

([2]) انظر مقالا بعنوان: الحور العين، محمد البـارودى، موقـع أهـل القـرآن، 30 اكتوبر 2009.

لفظة الحـور بمشـتقاتها، ثم راح يتصـرف فيهـا، ويتلاعب بهـا بطرق مختلفة من ذلك قوله: (يجب أن نتأمل آيـة مهمـة من القـرآن تعطينـا معـنى جيـد وحقيقي وهي قولـه تعـالى: {إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُـورَ} [الانشـقاق: 14]، فـالمعنى هنـا يقـول إن المجرم الذي اسـتلم كتابـه خلـف ظهـره ظن أن العـذاب لن يعود عليـه ويرجـع، اذاً فتطـبيق هـذا المعـنى على حـور عين يـدلنا على أن هـذه النعم من فاكهـة سـتعود دومـا، من حـور يعود بشكل عين لاتنضب، ويتفق هـذا المعـنى بالتـالي بالآيـة التاليـة، و هى أن أهـل الجنـة كلمـا قطفـوا من فاكهـة الجنـة أعيدت لهم على الفور إنشاءها بشكل متماثل رزقا لاينقطـع، {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَـرَةٍ رِزْقًـا قَـالُوا هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَـا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا } [البقرة: 25]، فهذه الثمرات كما في معنى ستحور، وتعود وترجع كلما أخذها أهل الجنة، واذا تابعنا بهذا المعنى نرى اتصال باقي الآيات بهـذا السـياق من كونهـا أي النعم من فاكهة ونعم وخيرات مختلفة، الخيرات الحسـان وهذه لهم لاتنقطع عندما يدخل المتقون الجنة من الجنسين (الذكر والانثى) يزوجون بــها بمعـنى الاقـتران والتلازم، لـذلك فهي للذكور والاناث معا بلا تفرقة)

وبمثل هذه الطريقة راح يسـتعرض مـا ورد في شـأنهن في سورة الرحمن، ثم يعقب على ذلـك بقولـه: (فـاذا نظرنـا الى كلمـة فِيهِنَّ في آيـة {فِيهِنَّ قَاصِـرَاتُ الطَّرْفِ} نجـد أن هذا جمع مؤنث في حرف النون يدل ضمن شـيء من أشـياء التأنيث، جنتان، عينان، مدهامتان، فيهما.. وهذا بالتالي لايعود على التأنيث، بل يعود على فاكهـة الجنـة من رمـان وخلافـه، أي أن في كلتا الجنتين على حدة كثير من الفاكهة القاصرات الطـرف الـتي يسـهل الوصـول اليهـا.. وفي السـياق نفسـه بالاتصال مع آية اخرى، فهذه الحـور مقصـورة داخـل خيمتهـا التي تحفظها كما تحفظ كل فاكهة قشرتها وتبـدو أيضـا هـذه الثمار (حسب آية اخرى) من أكمامها كاللؤلؤ المكنون)

وهكـذا راح يحـول من كـل أوصـاف الحـور في العين القرآن الكريم إلى أوصاف للفاكهة، ويسـتعمل في ذلـك كـل

ألـوان الحيـل والخـدع الـتي مارسـها أهـل الكتـاب من قبلنـا ليحرفوا الكلم عن مواضعه.

أما آخر، فقد راح يستعمل حيلا أخرى، ليحول من الحور العين إلى ما عبر عنه بقوله: (وحار تعنى رجع أو عاد إلى ربه فى الآخـرة.. وعلى ذلـك فـالحور هن المؤمنـات العائـدات.. وهؤلاء المؤمنات قد تحوَّرت أشكالهن أيضا، فعدن فى شـكل شابات جميلات كواعب ذوات عيـون سـاحرة فقـد أعـاد اللـه إنشائهن إنشاءً.. وعِينٌ تعني: نُجْلُ العُيُونِ حِسَـانُهَا، والمفـرد للرجل: أعْيَنُ، وللمرأة: عَيْنَاءُ.. فسوف يـتزوج المؤمنـون فى الجنـة بهـؤلاء المؤمنـات الراجعـات أو العائـدات إلى اللـه، وبالطبع سيعود الرجال إلى شبابهم مثل النسـاء، لأن لهم مـا اشتهت أنفسهم، وهـل لن يشـتهي أحـد أن يعـود إلى شـبابه وعُنفوانه؟.. وهذا هو نصيب النساء فسيتمتعن بأزواجهن كمـا سيتمتع بهن أزواجهن)[1]

وهكذا نجد كل يوم من يجتهـد، ليبحث عن معـنى جديـد للحـور العين ممـا لم يفطن لـه أحـد من المفسـرين ولا اللغويين القدامى والمحدثين.

وليت الأمر اقتصر على الحور العين، إذن لهان، بـل إننـا نجد كل يوم تفسيرات جديدة ممتلئة بالغربة لكل القطعيـات والبديهيات، ومن أمثلة ذلك ما فسر به شحرور المصطلحات القرآنية[2]، والتي اهتم بها اهتماما بالغا كسائر التنويريين لأنه لا يمكن تزييف الحقائق من غير أن تبدل المصطلحات الدالة عليها.

فقـد فسـر مصـطلح [القـرآن] بقولـه: (القـرآن: يمثّـل القرآن نبوّة محمّد ﷺ لهذا ذُكر مع كلّ من التـوراة والإنجيـل،

1() الحور العين، عز الدين نجيب، موقع أهل القرآن، 11 نوفمبر 2011.

2() انظر: دليل المصطلحات الواردة في التنزيل الحكيم، محمد شحرور، موقعه الرسمي.

ويمثّل مجموع الآيات المتشابهات (آيات النبوّة وتفصيلها) التي تتحدّث عن القوانين الكونية التي تتحكّم في الكون بما فيه من نجوم وكواكب وزلازل ورياح ومياه في الينابيع والأنهار والبحار.. وعن قوانين التاريخ والمجتمعات التي تحكم نشوء الأمم وهلاكها، وعن غيب الماضي من خلق الكون وخلق الإنسان وأنباء الأمم البائدة (القصص القرآني بما فيه القصص المحمّدي)، وعن غيب المستقبل كقيام الساعة والنفخ في الصور والحساب والجنّة والنار. والقرآن جاء من فعل قرن لأنّه قرن القانون العام للوجود مع القانون الخاصّ له مع خط تطوّر سير التاريخ الإنساني، وهو بذلك قرن بين معلومات اللوح المحفوظ، ومعلومات الإمام المبين، ويُعدّ الجزء الأكبر من الكتاب ولا يوجد فيه تشريع إطلاقاً)

وفسر [اللوح المحفوظ] بقوله: (بما أنّ القرآن المجيد هو القوانين الصارمة الناظمة للوجود، فإنّ اللوح المحفوظ هو بمثابة برنامج هذه القوانين.. وهذا البرنامج بقوانينه الصارمة التي تسيّر الوجود هو برنامج ثابت ولا يتغير، لا هو ولا قوانينه، وبالتالي لا ينفع فيه الدعاء لأنّه لا يتغيّر من أجل أحد مهما كان)

وفسر [الكتاب المبين] بقوله: (هو مجموع آيات القصص القرآني بما فيه القصص المحمّدي، أي هو مجموع الآيات التي تتطرّق إلى أنباء غيب الماضي وإلى أخبار القصص المحمّدي، لأن آيات القصص المحمّدي بما فيها من آيات القتال كانت أخباراً بالنسبة لمن عاصر النبي ﷺ لكنّها تحوّلت إلى أنباء عن الماضي لمن بعدهم من العصور)

وفسر [الإمام المبين] بقوله: (هو أرشيف الإنسانية من يوم خلقها الله عزّ وجلّ إلى يوم الدين، أي أرشيف الأحداث التاريخية الإنسانية الفردية والجماعية إلى قيام الساعة، ومنه جاء الكتاب المبين (القصص القرآني بما فيه القصص المحمّدي). تمت فيه أرشفة الأحداث الإنسانية بعد حدوثها وتحوّلها إلى واقع)

وفسر [مواقع النجوم] بقوله: (هي الفواصل الموجـودة بين آيات الكتاب، سواء جاز الوقف عندها أو لم يجز، وليست مواقع النجوم التي في السماء، هي من مفـاتيح فهم الكتـاب كله خصوصـاً بالنسـبة للقـرآن في عمليـة تأويلـه، لأن مواقـع النجوم في الكتـاب تجعـل كـلّ آيـة من آيـات الكتـاب تحمـل فكرة متكاملة: { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَـمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} (الواقعة 75-77)

وفسر [الإسلام] بقوله: (هو الإيمان تسليماً بوجـود اللـه وباليوم الآخر وأداء العمل الصالح.. فالإيمان بالله هو التسليم بوحدانيته والتصديق بنبوّات الأنبياء ورسالات الرسل كـل في زمانه، فكلّ هـؤلاء يؤمنـون بالله واليـوم الآخـر، وقد سـمّاهم التنزيل الحكيم المسـلمين على اختلاف مللهم. ولهـذا فـإنّ شهادة أنْ لا إله إلا الله هي تذكرة الـدخول إلى دين الإسـلام مهما كانت ملّة الإنسان. والإسـلام يُبـنى على العمل الصـالح بعد الإيمان تسليماً بوجود الله وباليوم الآخر، وقـد جعـل اللـه الإيمان به مسـلّمة لا يمكن البرهـان عليهـا علميـاً أو دحضـها علمياً، لذا فهي خيار وقناعـة يتسـاوى فيهمـا أينشـتاين وبـائع الطعميـة، وفيهـا تظهـر عدالـة ربّ العـالمين، إذ يجب على المسلم أن يكـون عنـده ذرة شـكّ في وجـود اللـه، والملحـد عنده ذرة شكّ في الإلحاد، وهذا الشكّ هـو الـدافع الأساسـي وراء تقدّم المعارف الإنسانية قاطبة، ومبدأ الشك هذا وضـعه إبراهيم عليه السلام. أمّـا العمـل الصـالح فـيرتكز على القيم الإنسانية وعلى رأسها الوصـايا العشـر (الفرقـان) المـذكورة في سورة الأنعام التي خضعت للـتراكم بين الرسـالات. كمـا يُبــنى الإســلام على التشــريع الــذي خضــع للتطــوّر وانتهى بالتشريع الحنيفي المتغيّـر (الحـدودي)، وعلى الشـعائر الـتي خضعت للاختلاف)

وهكذا نجده يضع قواميس جديدة للمصطلحات القرآنية، وتطبيقهـا لا يعـني إلا شـيئا واحـدا، وهـو هـدم الإسـلام من أساسـه، ولـو أنـا اكتفينـا من تبديلـه للكلم عن مواضـعه بمـا ذكره عن كلمة [الإسلام] لكفى ذلك في هدم الإسلام.

فالإسلام عنده مجرد الإيمان بالله والعمل الصالح.. والعمل الصالح مرن جدا، يمكن للمجتمع أن يحدده، ويمكن للزمن أن يغيره.. وهكذا الإيمان بالله.. حيث يتساوى عنده الملحد مع المؤمن، بل إنه ـ ومن خلال أحاديثه عن الملاحدة وإشادته بهم ـ نجده يفضلهم على المؤمنين.

وقد قال في تأبينه لهوكينغ: (لا يسعني إلا أن أعزي الإنسانية بفقيدها، وكلي ثقة أن الله سيتباهى أمام خلقه بستيفن هوكينغ، كما يتباهى (ولله المثل الأعلى) الأب بإنجازات ابنه، حتى لو افترضنا أن هذا الابن لم يعترف بأبيه)

وبذلك فإنه لا وجود عنده لمجموعة من الناس تحمل اسم الإسلام.. فالإسلام عنده هو دين البشرية جميعا، ولذلك لا معنى لدعوة الملاحدة أو المسيحيين أو اليهود أو البوذيين أو غيرهم من أهل الأديان للإسلام.. لأنهم مسلمون أصلا.

وهكذا حول من معنى الصلاة الذي يراد به تلك الشعيرة المعروفة التي وردت تفاصيلها في كتب الحديث والسنة إلى مجرد دعاء، من قام به في أي لحظة من حياته، وقي ذلك العذاب الشديد الذي خصصه الله بتاركي الصلاة.

أما تلك الشعيرة، فهي خاصة عنده فقط بالمؤمنين، لا المسلمين، وهي اختيار شخصي، من شاء منهم فعله، ومن لم يشأ لم يفعله.

وهكذا راح لكل الشرائع والشعائر يحرفها عن مواضعها، ويستعمل تلك الخدع التي يسميها المغفلون مشاريع فكرية، وهم لا يعلمون أنها مشاريع شيطانية، لا تختلف عن تلك المشاريع التي استعملها أهل الكتاب مع كتابهم حين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه.

مكة ليست مكة

من المهارات العجيبة التي يتقنهـا الكثـير من التنـويريين الجدد ذلك التلاعب بالحروف والكلمـات والجمـل، حـتى يهيـأ لك أنك لم تعرف في يـوم من الأيـام لغتـك العربيـة الجميلـة الواضحة، وأنـك لم تقـرأ في يـوم من الأيـام كتـاب ربـك، ولا فهمته، ولا تدبرته، مع كونه ـ كما يصف الله تعالى ـ {بِلِسَـانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 195]

بل يحيلونه في عينيك كتابا من كتب الطلاسـم، الممتلئ بالحروف العجيبة، واللغة الغريبة، والجمل الـتي لا يمكن فـك أسرارها ورموزها.. وكأن الله تعالى عندما قال: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَـلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ} [القمـر: 17]، والـتي كـررت أربع مرات في سورة القمر، لم يكن يقصد التيسير، بل كـان يقصد عكسه.

فمن أمثلة ذلك ما قرأته عن بعضـهم أن مكـة المكرمـة ليست هي مكة التي نعرفها.. بـل هي مكـة أخـرى.. والـدليل على ذلك أن الميم تفيد كذا وكذا.. والكاف تفيـد كـذا وكـذا.. وهكذا يركب من خلال تلك الحروف جملـة عجيبـة تجعـل من مكـة المكرمـة بلـدة في الشـام، أو في إفريقيـة، أو في أي مكـان آخـر إلا المكـان الـذي توجـد فيـه.. ويصـبح حينهـا كـل الحجــاج على مــدار التــاريخ ــ والــذين قصــدوها بقلــوبهم وأجسادهم، وتحملوا كل ألوان العناء في سبيل ذلك ــ مجـرد مضللين ومخدوعين وتائهين.. لأنهم لم يعيشـوا للـزمن الـذي تعرف فيه مكة الحقيقية.

ويذهب آخر إلى اسم اللـه العظيم [الـرحمن]، فيربطـه بالآرامية أو السريانية أو العبرية ليحولـه إلى معـنى جديـد لم يسمع به لا الخلف، ولا السلف، حتى يهيـأ لـك أنـه لـولا ذلـك المفسر العجيب، لبقي هـذا الاسـم العظيم مجهـولا إلى يـوم الدين.

وهكذا يذهب آخر إلى لفظة [كتـاب].. فتتحـول إلى كـل شيء ما عدا الكتاب.. وآخر يذهب إلى كلمة البقرة.. فتتحول من الحيوان المعروف الـذي نشـرب لبنـه، ونأكـل لحمـه إلى كائن آخر.. مختلف تماما.

والمشكلة ليسـت في الكلمـات، بـل في المعـاني حيث يتحـول المعـنى القـرآني الواضـح الـدقيق إلى معـنى ممتلئ بالغرابة، ليصبح بعدها مطية لكل دجل وخرافة وأسطورة.

حتى صار الذي يريد أن يؤيد نظريـة التطـور يـذهب إلى قولـه تعـالى: {سُـلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنـون: 12]، فيحولهـا إلى [سلالة من قردة]، ويحول الطين إلى مـا يسـميه علمـاء التطور بـ [الحسـاء البـدائي]، ويفـرق بين البشـر والإنسـان.. ليجعل من القرآن الكريم مطية لقبول تلك النظرية البائسـة، والخرافات المرتبطة بها.

وهكذا نجد التلاعب بالقيم القرآنية، وحقائقهـا المقدسـة الواضحة، حيث تتحول إلى معان أخرى، مختلفة تماما.. وكـل ذلــك من خلال التلاعب بــالحروف والكلمــات والــتراكيب، مستثمرين قوة العربية، وسـعتها، ومسـتثمرين تلـك المنـاهج التي تجعل من النصوص المقدسة نصوصا مطاطة يمكن لأي شخص أن يتلاعب بها، ويحرفها إلى الجهة التي يريد.

ولعل القرآن الكريم أشار إلى هـذا المعـنى عن اليهـود، ومـا كـانوا يفعلونـه من تلاعب بالألفـاظ، حين قـال: { فَبَـدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُــوا قَــوْلًا غَيْــرَ الَّذِي قِيــلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَــا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [البقرة: 59]

وللأسف، فقـد صـار القـرآن الكـريم عنـد هـؤلاء لا نـورا للهدايـة، ولا دسـتورا للصـراط المسـتقيم، ولا كلمـات اللـه المقدسة التي أنزلها لعباده لينقـذهم من نفوسـهم وأهـوائهم والشـياطين الـتي تـتربص بهم، بـل أصـبح وسـيلة للتضـليل والتمويه والتلاعب.

القسم الثاني

التنويريون.. والعقائد الإسلامية

تشكل النبوة ـ بـالمفهوم القـرآني ـ النقطـة المركزيـة الـتي ينطلـق منهـا المـؤمن للتعـرف على حقـائق الوجـود، والتعـرف على القيم السـلوكية الـتي يتحقـق السـالك لهـا بمرضاة الله ومحبته وتقريبه.

ولذلك لا نكاد نجد سورة من القـرآن الكـريم إلا وتمتلئ بـذكر الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام، باعتبـارهم تجسـيدا للحقيقة، والقيم النبيلة، بالإضـافة إلى كـونهم تأريخـا حقيقيـا لأهداف وجود الإنسان على هذه الأرض، وتـاريخ الصـراع بين الحق والباطل، والشيطان والإنسان.

لكن ذلك الشكل الجميـل الـذي عُرضـت بـه النبـوة في القرآن الكريم، والذي يملأ أقطار النفس بالإعجـاب والتبجيـل والتعظيم تعــرض للكثــير من التشــويه، ســواء من أولئــك القدامى الذين سـلموا قـرآنهم لأهـل الكتـاب ليفسـروه لهم؛ فحولوا الحقائق القرآنية إلى أساطير الأولين، أو أولئك الذين سلموا القـرآن لأهـواء المحـدثين والمعاصـرين، فحولـوه إلى خرافات وأساطير لا تقل عن خرافات الأولين وأساطيرهم.

وقد كانت أول حملة التنويريين على ما ورد في القــرآن الكريم من أحاديث الأنبياء وقصصهم ذلك الإنكار لها باعتبارها مجرد أمثلـة سـيقت للعـبرة، وليس لهـا أي حـظ من الوجـود الواقعي، كما فعـل ذلـك محمـد أحمـد خلـف اللـه، في بحثـه المعنون بـ [الفن القصصي في القرآن الكريم]، والذي تقــدم به لنيل الدكتوراه عام 1947م.

والذي استعمل في الاحتيال لبث هذه الشـبهة نفس مـا يستعمله التنويريون من التكلف والفضول والتألي على اللــه، فقــد قــال في مقدمــة كتابــه: (إن التــاريخ ليس من مقاصــد القرآن، و التمسـك بـه خطـر أي خطـر على النـبي ﷺ وعلى القرآن. بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بـالقرآن كمـا

كفروا من قبل بالتوراة، وإن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع وليست من مقاصد القرآن في شيء ومن هنا أهمل القرآن مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب للأحداث)[1]

وقال: (فطن العقل الإسلامي إلى أن هذه الأشياء لا تفهم على أنها الحق التاريخي والواقع العلمي إلا بضروب من التأويل، ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني منذ اللحظة الأولى على المذهب الأدبي لما احتاج إلى هذه التأويلات)[2]

وكل هذا تكلف ممقوت، وثقة زائدة بالآثار والتاريخ، وكأن الآثار سجلت كل أحداث التاريخ، ولم تغفل منها شيئا، وهو ما لم يقل به أحد من المؤرخين السابقين ولا اللاحقين.

بل إن المؤرخين أنفسهم يعتمدن في التاريخ على الكثير من الوثائق الأدبية ككتابات كونفوشيوس، وإلياذة هوميروس، والشعر الجاهلي،باعتبارها جميعا مصادر يمكن التعرف من خلالها على الواقع التاريخي.

بالإضافة إلى أن القرآن الكريم، يذكر كل تلك الأحداث باعتبارها واقعا تاريخيا، وأن الله تعالى هو الذي أخبر رسوله عنها، ولذلك نجد فيه أمثال قوله تعالى بعد ذكره لقصة موسى عليه السلام: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص: 44 - 46]

ومثله قوله عن قصة مريم عليها السلام: {ذَلِكَ مِنْ

[1] الفن القصصي في القرآن الكريم، د. محمد أحمد خلف الله، ص42.

[2] المصدر السابق، ص44..

أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: 44]

أو قوله تعقيبا على ما حصل لقوم لوط عليه السلام: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الصافات: 136 - 138]

ولا يعقل أن يكون كل ذلك مجرد أمثال فنية لا علاقة لها بالواقع، ولا بالتاريخ، والمشكلة التي جعلت التنويريين يقعون في هذا التكلف هو تصورهم أن العلم البشري قد أحاط بكل شيء، وأنه ما دام لم تسجل أسماء عاد وثمود، أو ما ذكره القرآن الكريم من أسماء وحقائق، فإن ذلك يعني عدم وجودها، وهو وهم كبير، فما نجهله من التاريخ أكبر بكثير مما نعلمه.. وحتى ما نعلمه منه؛ فإن الكثير منه مبني على الظنون أكثر من كونه مبنيا على الحقائق، والمؤرخون أنفسهم يذكرون هذا، ويقررونه، ولا يزعمون لأنفسهم أنهم يحيطون بالحقائق من جميع جهاتها.

هذا ما ذكره التنويريون القدامى، والذين تأثروا بالمستشرقين في الاعتماد على التشكيك في كل شيء، حتى في الحقائق الواضحة، أما التنويريون المحدثون؛ فقد راحوا يستعملونه ما تلقنوه من مناهج غربية بغية الالتفاف على النبوة، وتفريغها من مضمونها مثلما فعلوا مع سائر أحكام الدين وقيمه وعقائده.

ومن الأمثلة على ذلك ما قام به شحرور من عبث فكري حول الحقائق القرآنية الواضحة التي وردت في القرآن الكريم، والتي حولها عن مسارها تماما، معتمدا في الكثير من ذلك على نظرية التطور التي تصور أنها وحدها يمكن أن تفسر تاريخ الأنبياء، ولذلك أخرج لنا نظريات جديدة غاية في الغرابة.

ولا يمكننا في هذا المقال المختصر أن نناقش كل ما ذكره من تفاصيل، ولذلك نكتفي ببعض النماذج، ومن خلالها

يتبين لنا منهجه، ومنهج الرد عليه.

وأول تلك النماذج، والذي انطلق فيه من إيمانه العميــق بنظرية التطور هو تصويره لتدرج النبوة في مراحــل مختلفــة بحسب المراحــل الـتي مـر بهـا الإنسـان في سـلم التطـور.. ولـذلك ذكـر أن الأنبيـاء الأوائـل الـذين أرسـلوا للبشـرية لم يكونوا من البشر ـ باعتبار البشر لم يتطوروا بعـد ــ وإنمـا هم من الملائكة، ولذلك فإن أول نبي عنده هو نوح عليه السلام، وأنه لعدم كفايته لأداء هذا الدور كـان معـه ملائكـه، يقومـون هم أيضا بالدعوة.

فقد قال تعليقـا على قولـه تعـالى: {قُلْنَـا اهْبِطُـوا مِنْهَـا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38]: (هـذا الهـدى جـاء بدايـة على شـكل نـذر من الملائكـة كـان اللـه يبعثهم في قولـه تعـالى: { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: 24]، وقد اسـتمرت النذر مع نوح {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَــذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [المؤمنون: 24]، ومع هود {وَاذْكُرْ أَخَا عَـادٍ إِذْ أَنْـذَرَ قَوْمَــهُ بِالْأَحْقَـافِ وَقَـدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِــهِ } [الأحقــاف: 21]، وإلى إبــراهيم وإلى لــوط وإلى صالح؟، وكانت النذر تأتي على شكل مشـخص يعرفـون أنهـا ليست منهم، وإنما هي مرسـلة من السـماء، ونحن نـرى في الأطروحة القديمة أن الحكـام جـاءوا من السـماء، وأنهم من دم آخر رواية أسطورية، لمفهـوم النـذر الـواردة في التنزيـل الحكيم)[1]

ثم يــوهم القــارئ أنــه يعتمــد في ذلــك على الحقــائق والوثــائق؛ فيقــول: (الطوفــان قضــى على الجميــع، وبعــد الطوفان نزل الحكم الملكي من السماء من جديد، وأصبحت مدينة كيش مقـر حكم الملـوك، وقبـل الطوفـان كـان الحكم الملكي قـد هبـط من السـماء لأول مـرة في مدينـة أريـدو.. ونؤكد هنا أيضاً أنه قبل نوح كـانت النـذر من الملائكـة فقـط،

[1] () شحرور، القصص القرآني، دار الساقي، بيروت، ط1، 2012م، ج2/ ص 11.

وقد تم التعبير عنه بأن الحكم هبط من السماء، ثم صار مشتركاً بشراً وملائكة (نوح حتى إبراهيم)، ثم بشر فقط وهو الرسول محمد)[1]

وهو يتكلم بثقة عجيبة ناسيا أن القرآن الكريم الذي يتصور أنه يعتمد عليه لإثبات هذه الحقائق هو نفسه الذي انتقدها وردها، وبين وجوه ردها، فالله تعالى ذكر في مواضع منه أن كل الرسل الذين أرسلوا للبشرية كانوا من جنسها، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: 109]، وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43]، وقال: {يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأعراف: 35]

بل إن الله تعالى رد على المشركين الذين طالبوا بنزول الرسول الملك بدل الرسول البشر، بقوله: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام:8، 9]، واعتبر قولهم ذلك نوعا من السخرية؛ فقال: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الأنعام: 10]

وسبب هذا الموقف هو نظرية التطور التي يؤمن بها، وجعلته يتوهم أن البشر كانوا من الضعف بحيث لم تكن لهم القدرة على استقبال النبوة البشرية، ولذلك تدرج الله معهم.

وهكذا ينطلق من هذه النظرية ليفسر النبوة، والتي يعتبرها مرحلة ترتبط بالضعف والقصور البشري، وأن البشر في تلك المراحل كانوا ـ مثل الطفل الصغير ـ يحتاجون إلى رعاية خارجية؛ فلما كبروا استغنوا عنها، ولهذا يفسر ختم النبوة، بكون البشر أصبح لهم من الرقي العقلي ما يغنيهم

---

[1] () المصدر السابق، 2/ 51..

عن النبــوة، وبالتــالي يمكنهم التخلي عن النبــوة الخاتمــة نفسها، بتلك الأفكار التي يمكنهم أن يصلوا إليها.

بل إنه ينطلق من هذه النظرية ليفسر الأدوار التي كلف الأنبياء عليهم السلام بالقيام بها، وهي أدوار تخالف تماما ما ورد في القرآن الكريم من شأنها.

فهو عند ذكره لوظيفة نوح عليه السلام مع قومه، يعبر عنها بقوله: (لقد كان نـوح أول رسـول ونـبي من البشـر في منطقة الشرق الأوسط كما يعتقد العـالم القـديم، وقومه هم بداية الإنسـان الحـديث في هـذه المنطقة حيث كـان هنـاك مجموعة من الناس لها علاقـات اجتماعيـة بدائيـة، ولهـا لغـة مجردة بحيث تسمح لنوع من الـوحي المجـرد، وكـان الوضـع الإنتاجي في هذه الحقبة التاريخية بـدائيا جـدا، لـذا فقـد كـان الشرك الأساسي الـذي وقـع فيـه الإنسـان آنـذاك هـو عبـادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس والقمـر، وقـد ذكـر هـذا في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًــا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّـمْسَ سِـرَاجًا} [نـوح: 15ـ 16]، وبالتالي فقد اقتصـرت رسـالة نـوح على التوحيـد والاستغفار فقـط دون أن يكـون هنـاك أي وصـايا أخلاقيـة أو شعائر تعبديـة، فعنـد نـوح لا صـلاة ولا صـوم ولا زكـاة ولا أي شكل من أشكال العبادات التي نعرفها)[1]

ولست أدري كيف استنتج كل هذا، مع أن القرآن الكريم اعتبر من أسباب ما وقع لقوم نوح من العقوبة هو خطايـاهم، وهي معنى ينتظم الخطايا العقدية والخطايـا السـلوكية، فقـد قال تعالى: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُـوا فَـأُدْخِلُوا نَـارًا فَلَمْ يَجِـدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } [نوح: 25]

بل إن شحرورا يوغل في التطرف حين يزعم أن القتـل نفسه، لم يكن في ذلك الحين جريمة، بل كان شيئا عاديا، لم تأت الشرائع لتحريمه، لأن أول تحريم له ــ حسـب تصـوره ـ

---

(1) المصدر السابق، 2/ 17..

كان مرتبطا ببني إسرائيل، فقد قال في معرض ذكـره للعـبر والعظـات المسـتنبطة من من قصـة نـوح عليـه السـلام في القـرآن الكـريم: (عــدم وجــود تشـريعات من أي نــوع، لأن مفهوم التشريع لم يوجد بعد، والمجتمعات مـا زالت بدائيـة لا تجـارة فيهـا ولا بيـع ولا شـراء، وجريمـة القتـل الأولى الـتي حصـلت مـع ابـني آدم لم يشـرع تحريمهـا إلهيـا إلا على بـني إسرائيل) [1]

وهكذا، فإن الوظيفة الأساسية التي كلف بها نــوح عليــه السلام ـ على حسب رؤية شـحرور ــ هي الترقيـة الحضـارية المادية لقومه، ولذلك كـان من بنـود الأساسـية لرسـالة نـوح عنده هي [التبشير بالبنيـان والاسـتقرار]، والـتي اسـتدل لهـا بقوله: (لقد عاش الإنسـان في عهـد نـوح في الكهـوف حيث كانت المنطقة تحيـط بهـا الجبـال، وفيهـا أنهـار؛ فيعتقـد أنهم كانوا يعيشون في الكهـوف وفي الغابـات المحيطـة بالأنهـار، لذا فقد كانوا يعبدون مظاهر الطبيعـة، حيث أن تمييـز الآلهـة لم يوجد عندهم بعد؛ فكـانت من نبـوة نـوح التبشـير بالبنيـان والاسـتقرار، وهـذا التبشـير في نبوتـه ورد في قولـه تعـالى: {وَيُمْــدِدْكُمْ بِــأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَــلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَــلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: 12].. من هنـا نلاحـظ كيـف بشـر نـوح النـاس بالاستقرار من البناء وهـذا الاسـتقرار فعلا كـان حاصـلا حـتى زمن هود)

وهو ـ كعادته في الإغراب ــ لا يفهم من لفظـة [البـنين] ما تعودنا أن نفهمه منها، وإنمـا يـرى أنهـا مشـتقة من (فعـل [بنن]، وتعــني الثبــات واللــزوم والإقامة، وهــذه هي طبيعة الأبنية والبنيان)

لكنه عندما يواجه بقوله تعالى: {رَبِّ اغْفِـرْ لِي وَلِوَالِـدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًـا } [نـوح: 28]، والـذي ورد فيـه لفـظ [الـبيت] ومعنـاه واضـح جلي، يـذهب إلى تأويلـه بكونـه ليس المــراد منــه الــبيت الــذي نعرفــه، والمشــكل من البنيــان

---

[1] () المصدر السابق، 2/ 17..

المعــروف، وإنمــا هــو (اسم جنس، ولها أصل واحد وتعــني المأوى والمآب وجمع الشمل. فليس من الضروري أن يكون البيت بنيانا إذ يمكن أن يكون كهفا)

وهكذا في تأويله للفظة الأمــوال، فهــو يفســرها بقولــه: (فهنا المال لا يعني النقد، بل جاء من فعل [مول] وتعــني هنا أدوات الإنتاج البدائية، وما يمكن أن يصطاده الإنســان ويجنيه من الطبيعة، وفي القــاموس خــرج إلى ماله: أي خــرج إلى ضياعه و إبله)

وهكذا انطلق من نظرية التطور ليصور أن اسم [اللــه] لم يكن موجــودا، ويســتدل لــذلك من القــرآن الكــريم على طريقته في الاســتنباط الممتلئ بالغرابــة، فهــو يقــول ــ عنــد حديثه عن تطور اسم الإله ـ: (لقد رأينا كيف شاع التشــخيص قبل إبراهيم، وانتشرت ظاهرة تعدد الآلهة من كواكب ونجوم وأصنام وتماثيل، وكيف كــان مفهــوم الإلــه المجــرد غامضــاً لا اسم له لعدم اكتمال القدرة العقليــة على التجريــد عنــد أهــل تلك العصور؛ فقد كان اســمه عنــد الأســباط (إلــه إبــراهيم)، وذلــك في قولــه تعــالى: { أَمْ كُنْتُمْ شُــهَدَاءَ إِذْ حَضَــرَ يَعْقُــوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْــرَاهِيمَ وَإِسْــمَاعِيلَ وَإِسْــحَاقَ إِلَهًــا وَاحِــدًا وَنَحْنُ لَــهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 133]، وكان اســمه عنــد فرعــون: (إلــه موسى)، كما في قوله تعالى: {وَقَــالَ فِرْعَــوْنُ يَاهَامَــانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَــأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} [غافر: 36،ـ 37]، وكان اســمه عنــد ســحرة فرعون: (رب العالمين)، و (رب موسى وهــارون)، كمــا في قوله تعــالى: {قَــالُوا آمَنَّا بِــرَبِّ الْعَــالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَــى وَهَارُونَ } [الأعراف: 121،ـ 122]، أو لم يكن له اســم على الإطلاق كما عنــد فرعــون في قولــه تعــالى: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَــهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَــا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس: 90]) [1]

---

(1) المصدر السابق، 2/ 105..

وهو يصور أن الاهتـداء للـه لم يتم إلا في عهـد إبـراهيم عليه السلام، وذلك (بعد رحلتـه الطويلـة في البحث عن اللـه من المشـخص إلى المجـرد، وليولـد عنـده مفهـوم الإسـلام والتسـليم لهـذا الإلـه المجـرد لأول مـرة في تـاريخ الإنسـان بدلالة قوله تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ } [الحج: 78]) [1]

بالإضافة إلى ذلك، نراه يحرف ما ذكره اللـه تعـالى عن أنبيائـه من قيم نبيلـة، وأخلاق عاليـة، وتسـليم مطلـق للـه؛ ليتحول كل ذلـك إلى تصـرفات لا معـنى لهـا، بـل قـد تحمـل معان لا تتناسب مع الأنبياء عليهم السلام.

ومن أمثلة ذلك أنه حول من رؤيا إبراهيم عليه السـلام ـ والتي ذكرها الله تعالى وأشاد بها ليبين مدى تسـليم إبـراهيم وإسماعيل عليهما السلام لله ــ إلى مجـرد أحـاديث نفس، لا علاقة لها بـالواقع، وقـد قـال مقـدما لهـذه الفريـة العظيمـة: (احتـار إبـراهيم مـاذا يفعـل ليتقـرب من هـذا الإلـه، فالنـاس يقدمون قـرابين لآلهـة مزيفـة لا تملـك ضـراً ولا نفعـاً لأحـد.. وظلت فكرة تقديم القربان لله تدور في رأس إبـراهيم حـتى سيطرت عليه، وبدأ يرى في المنام أنه يذبح ابنه، ثم تكـررت الرؤيا حتى ترسخت، فقرر إبراهيم أن يحولها إلى فعـل على أرض الواقع، بعد أن أيقن أنها ليست مجـرد رؤيـا بـل تكليـف وأمر إلهي) [2]

وهكذا يحـرف موقـف إسـماعيل عليـه السـلام الممتلئ بالحلم والتسليم لله، حيث يعلـق عليـه بقولـه: (إننـا نفهم أن جواب إسماعيل لأبيه كان أن يفعـل مـا يـؤمر لا مـا يـرى في المنام، لأن إسماعيل لا يقبل أن يقتله أحد بمجرد منـام حـتى لو كان أباه، فـإذا كـانت المسـألة أمـراً بالقتـل فليفعـل، وإن

---

[1] المصدر السابق، 2/ 105..

[2] المصدر السابق، 2/ 109..

كانت رؤيا فلا) [1]

وهو يشير بذلك إلى أن إسماعيل عليه السلام مع صـغر سـنه، فهم من الحلم مـا لم يفهمـه والـده، ولـذلك أمـره أن يلتزم أمر الله، لا ما يراه في منامه.

وهكذا يحرف ذلك النص الصريح الذي أخـبر اللـه تعـالى فيه عن تسليم كلا النبـيين الكـريمين للـه تعـالى، وهـو قولـه تعالى {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [الصافات: 103] بقوله: (في هذا إشارة إلى أن معركة المعاناة النفسـية قـد حُسـمت لمصـلحة التسـليم للـه تعـالى، وإلى أن نـار تنـازع الأفكـار وتجاذب الوساوس في أعماقهما قد انطفـأ لمصـلحة الإيمـان والإنابة، وإلى أن الحيرة عندهما قد اطمأنت للطف الله) [2]

وعنـدما يواجـه بقولـه تعـالى: {وَنَادَيْنَـاهُ أَنْ يَـاإِبْرَاهِيمُ (104) قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَـا إِنَّا كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ} [الصـافات: 104،ـ 105]، يفسـرها بـأن كـل مـا حصـل لم يحصل؛ فلا إبراهيم هم بـذبح ابنـه، ولا إسـماعيل أذن بـذلك.. بل إن الله تعالى اكتفى منه بذلك الموقف الـذي تراجـع فيـه إبراهيم عن رؤياه بعد أن صححها له ابنه إسماعيل.

ونفس هذا الموقف نجده عنـد تلميـذ تنـويري آخـر، راح يعبر عن تلك الرؤيا بقوله: (وهـذا المنـام ليس أمـر من اللـه بذبح النبي إسـحاق، فـالأوامر الإلهيـة لا تـأتي في المنامـات، وإنما كان مناماً يقصد به شيء آخر، ولكن النبي إبراهيم أوله على ظاهره وخاصة بعد تكرار رؤيته له، فـأراد أن يـذبح ابنـه ظناً منه أنه ينفذ أمـر اللـه، وأخطـأ في تأويـل المنـام، فـنزل الأمر الإلهي بتوقيف هذا العمل وأعطـاه فـداء لمنامـه وابنـه، وأخـبره أنـه تم تصـديق الرؤيـا من خلال الخضـوع للـه وذبح الـدنيا وزينتهـا وإخراجهـا من قلب النـبي إبـراهيم، وليس

---

[1] () المصدر السابق، 2/ 111..

[2] () المصدر السابق، 2/ 112..

المقصود الصورة المادية للمنام، وأن ذبح الولد في المنام رمز لذبح الدنيا وزينتها)[1]

ولا يقتصر أمر الإغراب عند شحرور وسائر التنويريين الجدد على هذا الحد، بل إنه ـ وعند حديثه عن القيم الأخلاقية التي ارتبطت بالأنبياء في القرآن الكريم ـ يقع في إغرابات لا تقل خطورة.

فهو ـ مثلا عند حديثه عن يوسف عليه السلام ــ وكيف تحلى بالعفة، وواجه الفاحشة بكل قوة، خالف مخالفة قطعية المنهج القرآني، بل صور أن الفاحشة نفسها لم تكن محرمة، وإنما راعى يوسف عليه السلام فقط ما تعلمه من بيئته البدوية من وفاء ومروءة، فقد قال معلقا على قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: 23]: (ونفهم منه أموراً أولها: أن يوسف كان يعرف الله بدليل أنه استعاذ به[2]، ثانيها: أنه استكبر واستنكر أن يمتثل لما تدعوه إليه باعتباره يتعارض أخلاقياً مع ما انفتحت عيناه عليه في بيئته الأولى من مكارم وقيم ومثل عليا كالوفاء والمروءة، وليس باعتباره زناً محرماً لأن تحريم الزنا لم يكن قد نزل به تحريم إلهي)[3]

بل إنه ـ وفي تفسيره لقوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: 24] راح يقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها أولئك الذين انتقدهم

---

(1) النبي محمد ليس من ذرية النبي إسماعيل، سامر إسلامبولي، موقع شحرور.

(2) وذلك بناء على قوله بأن معرفة الله كانت مرحلة من مراحل التطور البشري.

(3) شحرور، القصص القرآني قراءة معاصرة، 2/ 233.

باعتبارهم خرافيين وظلاميين؛ فقد قال تعقيبا عليها: (هذه الآية لا يمكن فهمها إلا إذا فهمنا لماذا استعاذ يوسف بالله في الآية السابقة، والجواب إنه من موقعه كنبي يعلم أن ميل الرجل للمرأة والمرأة للرجل غريزة فطرية جعلها الله فيهما.. ويعلم أن هذه الغريزة المخلوقة المجعولة فيه قانون رباني قاهر لا فكاك لإنسان منه نبياً كان أم غير نبي إلا بتدخل من الله الخالق البارئ المصور، وهذا ما أشار إليه يوسف نفسه في قوله: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: 33]، ومن هنا كان طبيعياً أن يلجأ يوسف إلى ربه مستعيذاً به راجياً منه متوكلاً عليه)

ثم راح يفسر كيف استجاب الله له، فقال: (والسؤال الثاني: كيف حصل ذلك وتم؟ والجواب: كما أن الله سبحانه استجاب لإبراهيم وعطل خاصية الإحراق في نار النمرود فجعلها برداً وسلاماً، وكما استجاب لموسى في مباراته أمام فرعون فحول العصا من خشب إلى لحم ودم فإذا هي حية تسعى، كذلك استجاب الله لنبيه يوسف فجرده من قدرته على الجماع، فإذا بعنوان ذكورته خرقة بالية لا تنفع لا للخل ولا للخردل، وهذا هو البرهان الرباني المادي الذي رآه يوسف رأي العين وهي تهم به ويهم بها، وهكذا أصبح الجماع الجنسي مستحيلاً. وهذا هو برهان الله على الإحصان من الفاحشة، وهو برهان من مقام الربوبية، وإلى يومنا هذا إذا أراد الله منع إنسان من الوقوع في الفاحشة؛ فإنه يفقده القدرة على الجنس أن كان فاحشة، ونحن نؤكد قوله تعالى بأنه لو لم يهم بها لما رأى برهان ربه)[1]

وخطورة هذا الطرح لا تتعلق بقصة يوسف عليه السلام فقط، وإنما بذلك التبرير للفاحشة، واعتبارها ميلا طبيعيا، وأن الإنسان فيها خاضع لغريزته القاهرة، وأنه ليس مسؤولاً عنها ما دامت تلك هي إرادة الله، إلا إذا أراد الله منعه منها،

1() المصدر السابق، 2/ 233- 234..

فيعطل قدرته على ممارستها.

ونفس كلامه هذا نجده عند حديثه عن الفواحش التي وقع فيها قوم لوط؛ فهو يبررها، ويسوغها، ويعتبر أنها مرتبطة بالنواحي البيولوجية للإنسان، وليست اختيارات سلوكية يختارها لنفسه، ولذلك يعقب على قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام وخطابه لقومه: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 80] رادا على أقوال المفسرين التي استنتجت من الآية الكريمة أن أول من فعل تلك الفاحشة هم قوم لوط: (نقول هذا ونحن نعلم أن المثلية، سواء أكانت لواطاً بين ذكر وذكر، أم كانت سحاقاً بين أنثى وأنثى، هي بالأصل شذوذ تكويني في هرمونات الذكورة لدى المفعول به في اللواط، واضطراب تكويني في هرمونات الأنوثة لدى الفاعلة في السحاق، يدفع الأول إلى التماس اللذة عند ذكر مثله، ويدفع الثانية إلى تفريغ شهوانيتها عند أنثى مثلها، وهذا يعني أن اللواط كان موجوداً قبل قوم لوط بشكل غير علني وعلى الصعيد الفردي، إلا أنهم جعلوه ظاهرة عامة اجتماعية تمارس علناً في المجالس والمنتديات)[1]

ويقول تعقيبا على الآيات الكريمة التي أخبرت أن سبب العقوبة التي حصلت لهم هي تلك الفواحش: (.. فإننا لا نستطيع أن نقتنع بأن هذه الويلات المخيفة، جاءت عقاباً على سيئة اجتماعية يصعب كثيراً أن نضعها تحت عنوان الفواحش؛ لأنها أقرب إلى الحسن والقبح منها إلى المعروف والمنكر في جانب، وأقرب إلى الأخلاق الاجتماعية المصطلح عليها منها إلى العقائد)[2]

والتعبير بـ [المصطلح عليها]، يعني أنها لست منكرة بذاتها، وإنما هي منكرة باعتبار الأعراف والشرائع؛ فإذا

[1] المصدر السابق، 2/ 188..

[2] المصدر السابق، 2/ 188..

استسيغت في بعض الأعراف، فإنه لاحرج فيها، مثلما تحـدث عن الحجاب، واعتبر أن للعرف دورا كبـيرا في تحديـده، فـإذا مـا قبـل عـرف من الأعـراف أن تخـرج المـرأة لا تسـتر إلا جيوبها؛ فإنها محجبة بحسب ذلك العرف.

هذه مجرد نماذج عن تهديم شحرور للنبـوة، وكـل القيم النبيلة التي جاءت بها، وخطورته أنه لا يستعمل قصـص كعب الأحبـار، ولا وهب بن المنبـه، وإنمـا يسـتعمل خيالـه الواسـع، وقواميســه الــتي يســتعملها كــل حين لتبــديل الكلم عن مواضعه.. ليسـتقبل ذلـك المنكـرون على خرافـات السـلف، والذين لم يفطنوا إلى أنهم هربوا من تطرف السـلف ليقعـوا في تطرف الخلف.

من المغالطات الكبرى التي يقع فيها التنويريـون، وعلى أساسـها ينكـرون الكثـير من الحقـائق، أو يتـدخلون بعقـولهم فيها، توهمهم أن العقل السـليم هـو الـذي تكـون لـه الجـرأة على إنكـار كـل مـا لا يستسـيغه، ولـذلك تجـدهم، ومن غـير تحقيق، ولا بحث ولا نظر يرمون بالخرافة حقائق كثـيرة ثبتت أدلتها النقلية بطرق متواترة قطعية لا يجادل فيها أحد.

وهذا النوع من التفكير في حقيقتـه لا يختلـف عن عقـل أهل الجاهلية الذين تصـوروا أن الإيمـان بـالبعث، ومـا بعـده، مخـالف لمـا تـدل عليـه عقـولهم البسـيطة؛ فـرد عليهم اللـه تعالى بما يقوم به عقـولهم، ومـا يجعلهـا تنظـر إلى القضـايا المختلفة وفق المنهج الصحيح، لا منهج الهـوى المجـرد، قـال تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَـإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَـا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس: 78 - 82]

وهـذه الآيـات الكريمـة نفسـها يمكن أن توجـه لأولئـك التنويريين الذين لم تستسغ عقـولهم تلـك الأحـاديث الكثـيرة المتـواترة الـتي اتفقت عليهـا جميـع المـدارس الإسـلامية، والمتعلقة بالدجال، باعتبـاره عصـارة للفتن، وخلاصـة للشـر، وأنه سيظهر في يوم من الأيام، ويجـر وراءه الكثـير عـبر مـا يخترعه من حيل وتقنيات، وما تكون له من قدرات وعجائب.

ولست أدري ما العجب في ذلـك كلـه، مـا دامت الأدلـة الكثيرة قد دلت عليـه، ذلـك أن الخرافـة ليسـت هي العجيب من الأخبار، وإنما الخرافـة هي الأوهـام الـتي لا دليـل عليهـا، حتى لو كانت تحمل صورة واقعية بسيطة.

ولــو كــانوا يعتــبرون العجيب من الأخبــار خرافــة، فليتجرؤوا، ويكذبوا تلك العجائب التي أخبر الله تعالى بها عن سليمان عليه السلام، وكيف سخر له كـل شـيء، أو لينكـروا تلك الناقة التي خرجت من الصخر، أو ينكروا إحيـاء المسـيح عليه السلام للموتى، أوتحويلـه من الطين طيـورا، أو ينكـروا تحول عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان.

وإن كانوا يعتبرون كل ذلك خاصا بالأنبياء؛ فقد أخبر الله تعالى أن في قدرات الإنس والجن عجائب كثـيرة: فقـد ذكـر عن صاحب سليمان عليه السلام قدرته على إحضـار العـرش من مسافة طويلة جدا، وفي طرفـة عين، لا بسـبب معجـزة، وإنما بسبب كونه أوتي علم بعض الكتـاب، كما قـال تعـالى: {قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْـرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَـا آتِيـكَ بِـهِ قَبْـلَ أَنْ تَقُـومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْـدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـذَا مِنْ فَضْـلِ رَبِّي لِيَبْلُـوَنِي أَأَشْـكُرُ أَمْ أَكْفُـرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْـكُرُ لِنَفْسِـهِ وَمَنْ كَفَـرَ فَـإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَـرِيمٌ } [النمل: 38 - 40]

وما داموا لا يستطيعون إنكـار ذلـك كلـه، باعتبـاره واردا في القرآن الكـريم، فلم يتجـرؤون على إنكـار الـدجال، وهـو وارد في السنة المتواترة القطعية الثبوت، التي اتفقت عليهـا جميع المدارس الإسلامية.

وقــد قــال الكتــاني معــبرا عن تــواتر أحاديثــه في كتب المدرسة السنية وحدها: (أحاديث خروج المسيح الدجال ذكـر غـير واحـد أنهـا واردة من طـرق كثـيرة صـحيحة عن جماعـة كثـيرة من الصـحابة، وفي [التوضـيح] للشـوكاني منهـا مائـة حــديث، وهي في الصــحاح والمعــاجم والمســانيد، والتــواتر يحصـل بـدونها، فكيـف بمجموعهـا؟! وقـال بعضـهم: أخبـار الدجال تحتمل مجلـدات، وقـد أفردهـا غـير واحـد من الأئمـة بالتأليف، وذكـر جملـة وافـرة منهـا في [الـدر المنثـور] لـدى

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [غافر: 56])[1]

هذا في المدرسة السنية وحدها، فكيف لو ضممنا إليك تلك الروايات الكثيرة الواردة في سائر المدارس الإسلامية.

وقد كان في إمكان العقل التنويري لو كان يحترم نفسه، ويحترم إيمانه الذي يدعيه أن يسلم لله في أمره، ويعلم أن إنكاره لمثل هذه النصوص المقدسة قد يجره إلى إنكار غيرها.

وقد كان في إمكانه أن يعلم أنه أقل من أن يفتي في أمر لم يحين زمانه بعد، ولذلك قد يكون للمستقبل من العجائب ما يبدد ذلك الاستغراب الذي يقفه أمام عجائب الدجال.

بل إن الواقع يدل على أن التقنيات العلمية في المستقبل القريب أو البعيد ستكون عجيبة جدا، وأنه قد يستطيع فرد من الناس، وفي طرفة عين أن يصل إلى مئات الملايين بل ملاييرهم، وأنه يستطيع أن يميز بينهم، وأنه يستطيع أن يكرم من يشاء منهم، أو يهين من يشاء.. ودور الدجال، كما ورد في الأحاديث الكثيرة ليس إلا ذلك.

وقد كان في إمكان التنويريين بعد هذا، أن ينكروا بعض العجائب عن الدجال التي لم تصح عندهم أدلتها، أو يتوقفوا في قبولها، أو يسكتوا عن الحديث عنها ما داموا لم يستكملوا البحث في شأنها..

لكن التنويريين أصحاب الجرأة العظيمة، والمراهقة الفكرية، والتسرع في كل شيء، راحوا يرمون تلك الأحاديث بالخرافة، سواء نطق بها رسول الله ﷺ عندهم أو لم ينطق؛ فهو عند الكثير منهم قد يجتهد في الإخبار بالغيب، ويخطئ

---

[1]() نظم المتناثر من الحديث المتواتر، الكتاني، دار الكتب السلفية، القاهرة، ط 2، د. ت، ص228، 229.

في اجتهاده.

وهم في حججهم على الإنكار لا يقدمون سوى ما تعودوا عليه من تلك الأيقونة التي تعودوا عليها، والتي عبر عنها أحدهم بقوله: (هل المسيخ الدجال خرافة ؟...ما عليك إلا أن تكون شاهدت مسلسل السندباد أو فيلم لص بغداد أو جاسون وآلهة الحرب والسيكلوب بعين واحدة، والتنين الذي ينفث النار..ثم تأمل قليلاً لتتخيل شكل المسيخ الدجال، كي تعلمه وتحذره ثم يهبك الله القوة لتنتصر عليه، وبعدها يعم السلام والخير هذا العالَم..إنها ميثولوجيا مُخلّص آخر الزمان وأمنيات الضعفاء والحمقى بانتصارهم دون جُهد، ولا زالوا في شوقٍ لهذا المخلص الشجاع الذي سيهب الله على يديه الخير والسلام لهذا العالَم، مرات ومرات تنتكس فيها الشعوب وقد طال بها أمد الانتظار) [1]

أو كما عبر آخر عن ذلك ــ بجرأة عظيمة ــ بقوله: (لا شأن للنبى ﷺ، ولا شأن للاسلام بهذه الأحاديث كلها، سواء ما اتصل منها بالغيوب، أو بالتشريع أو بالأخلاقيات والمواعظ والتاريخ.. نحن ننكر أى صلة بين تلك الأحاديث والاسلام، ونكذّب بها أى نكذّب أن يقول النبى محمد ﷺ قد قالها، ونرى أن متن هذه الأحاديث صادق فى التعبير عن ثقافة الناس فى العصور التى قيلت فيها. هى إنعكاس لثقافتهم ومعارفهم ومدى ما وصل اليه علمهم، غاية ما فى الأمر أنهم جعلوا تلك الثقافة بما فيها خطأ وصواب جزءا من الاسلام، وأضافوها للاسلام بأثر رجعى، وهذا مرفوض. لأن الاسلام قد تم واكتمل بانتهاء القرآن نزولا. وبموت النبى عليه السلام لم يعد هناك مجال للإضافة أو الحذف أو التغيير أو التبديل. من هذه الثقافة التى جعلوها أحاديث ما كانت جذوره فرعونية الأصل، حتى مع تعرضها للتحوير وبعض التغيير، مثل اسطورة ايزيس واوزوريس وست. والصراع بين إلهى الخير والشر (أوزريريس) و(ست). ومنها انحدرت عقائد نزول

(1) أكذوبة المسيخ الدجال، سامح عسكر، موقع أهل القرآن، الأحد 13 ابريل 2014.

المسيح والمسيح الدجال، والمهدى المنتظر.. ومن الطـبيعى أن يختلف التعبير عنهـا بـاختلاف الزمـان والمكـان، وأن تبـدأ على استحياء فى موطـأ مالـك فى الجزيـرة العربيـة، ثم يتم التوسع فيهـا فى البيئـات النهريـة المتـأثرة جـدا بالموروثـات الفرعونيـة. لقـد وصـل تـأثير عقيـدة ايـزيس واوزيـريس الى أوربا قبل الاسلام، واستمر حتى قبيل النهضة الأوربية)[1]

أو كما عبرت عنه ثالثة بقولها ـ في مقـال تحت عنـوان: [خرافـة المسـيح الـدجال][2]: (.. مقـال يـدور المقـال حـول أخطر المعتقدات التي نخرت ملة ابراهيم وخاتم النبوة محمد رسول الله الـذي اطظفاهمـا لتبليغنـا وحيـه، لكن للأسـف تم تلفيــق أســاطير إغريقيــة وطقــوس وثنيــة للنــبي، وبالتــالي يدخلون الشك في نبوته، وهكذا الطعن بالقرآن، فالدارســون وأولي الألباب لا يقبلـون الروايـات الـتي تخـالف الفطـرة، أو تتسم بدنو مستواها، وهكذا تزلزل عقيدتهم، أما العوام الذين يتلقون ويحجر عليهم التدبر بحجـة [الإجمـاع]، واحتكـار العلم لرجال الدين الذين درسوا اللغة العربية وتخرجـوا من الأزهـر ويحفظون الأحـاديث عن ظهـر قلب فللأسـف يصـدقون تلـك الخرافات والمصيبة أنهم يكفرون ويعادون من لايؤمنون بهــا: (ويلك! إنها في صحيح البخاري ومسلم، هل أنت تعرف أكــثر من الشيخ...)، فمنذ متى كان الخوض في أسرار القـرآن من إختصاص فئة واحدة؟)

وأمثال هذه الخدع الكثيرة التي يسمونها حججـا، وهي لا تحمل إلا مقدمات واحدة يطبقونهـا في كـل مـا لا يشـتهون.. وإلا فما العلاقة بين التقدم والتطور والرفـاه، أو بين اسـتنارة العقل وبعـده عن الخرافـة، وبين إنكـار وجـود الـدجال الـذي يمثل قمة الشر والضلال والفتنة.

بل إن العقل السليم، قـد يهتـدي إلى ذلـك، حينمـا يـرى

[1] المرجع السابق.

[2] خرافة المسيح الدجال، سلمى أمين، موقع أهل القرآن.

طاغوتا جبارا مثل ترامب، يتحكم في العالم، لا في أمريكا وحدها، بل في أوروبا، وفي جميع دول المستضعفين، حتى أنه يقضي على الاتفاقات الدولية التي اتفقت عليها دول العالم بما فيها دولته نفسها.

وقبله استطاع هتلر أن يشعل حربا عالمية، ويباد بسببها عشرات الملايين، وتدمر أمثالها من البيوت.. ويشرد مئات الملايين، مع أنه عاش في زمن لم يتح له فيه أن يملك القنابل النووية ولا الهيدروجينية، فكيف لو عاش في زماننا هذا، ووضعت بين أصابعه أزرار القنابل المختلفة.

وهكذا نرى التقنيات المتطورة تجعل للأفراد سلطات كبيرة لم تكن تتاح لهم في الماضي، وهي لا تتعلق فقط برؤساء الدول، بل قد تتعلق برجال الاقتصاد أو الإعلام أو حتى الغناء والرقص والتمثيل، فالذي يؤثر في العالم اليوم مجموعة قليلة من الأفراد.

فما المانع بعد هذا أن يظهر في محور الشر رجل تتوفر فيه كل قدرات التي تنجذب لها النفوس الشريرة، بحيث يستطيع أن يسيطر لا على ممتلكاتهم فقط، بل على مشاعرهم أيضا.

أنا لا أريد من خلال هذا المقال أن أبين كيف يكون الدجال، فذلك غيب محض، ولكن أريد أن أذكر بأن العقل السليم المؤيد بالإيمان بالغيب الذي هو علامة الإيمان الحقيقي، لا يستبعد شيئا في قدرة الله، ولو أن ما نعيشه من تقنيات عرض على أهل القرون من قبلنا لتعجبوا منها، بل لسارع المتنورون منهم إلى إنكارها، وربما لن يقبلها منهم إلا أولئك الذين يطلق عليهم التنويريون لقب الخرافيين.

ولذلك فإن العاقل الحقيقي هو صاحب العقل المتواضع، الذي يرى أن قدرة الله أكبر من أن تحد، وأن رسول الله ﷺ أعظم من أن يفتري على الله، أو يقول ما لا حقيقة له، ويعلم كذلك أن الأمة التي اتفقت على وجود هذه الشخصية،

لا يمكن أن تكـذب في ذلـك، وكيـف تكـذب في أمـر وقـع إجماعها عليه؟

بل إن العاقل يرى أن في وجود مثـل هـذه الشخصـيات في الثقافات والديانات الأخـرى دليلا على وجودهـا الـواقعي، ذلك أن رسول الله ﷺ أخبر أن كـل الأنبيـاء حـذروا أقـوامهم من الدجال، فقال:(ألا كل نبي قد أنذر أمته الدجال)[1]

والعجيب أن عـدنان إبـراهيم مـع علمـه بتـواتر أحـاديث الـدجال، وورودهـا في كتب الصـحاح في جميـع المـدارس الإسـلامية، إلا أنـه راح يسـتعمل عقلـه البسـيط في إنكـاره بحجج غريبـة جـدا، عـبر عنهـا في بعض خطبـه الـتي عنونهـا [المسيح الدجال.. تدجيل أم تغفيل] بقوله: (إذا كـان الـدجال بهذه القدرة الفائقة على الإضـلال، أوليس النـاس معـذورون باتباعه؟ أليس من يحمـل هـذه الصـفات فتنـة يريـد من قـدّر خروجه وهو الله تعالى أن يضـل النـاس ويفتنهم عن دينهم؟ وأن الآيات إنما تأتي تخويفـاً، فقـط وليسـت إضـلالاً وتكفـيراً للناس؟ إن الله لا يمكن أن يفعل هـذا، فـإن قـال قائـل بـأن إبليس نفس الحكايـة، قـال لا، إبليس لا يملـك لقـدرة على هذا..والنتيجة: الدجال تدجيل وتغفيل)

وهذا اسـتدلال عجيب، وتحكم غـريب؛ فرسـول اللـه ﷺ عندما أخبر عن الـدجال أخـبر عن خطورتـه، وعلمنـا الطـرق التي يمكننا أن ننجو منه إن اتبعناها، ولم يـذكر أبـدا اسـتحالة النجـاة منـه، بـل أخـبر أن المؤمـنين الصـادقين ينجـون منـه بوسائل بسيطة جدا[2].

ثم لو طبقنا هذا الاستدلال، فإن الله تعـالى في تصـوره سيعفي كل من يتعرض لفتن كبيرة، والعالم الآن يمـوج بفتن

[1] عبـد بن حميـد (118/2)، وابن عسـاكر (1/610-611)، والحـاكم (4/537-539)

[2] تحدثنا عن الدجال بتفصيل مع إيراد كل ما ورد فيه من النصـوص وتوجيههـا في كتابنا [أوكار الاستكبار]

كبيرة لم تكن موجودة في العصور السالفة، بل إن الفتن ـ بحسب ما يدل عليه الواقع ــ تسير وفق منحنى تصاعدي خطير.

ثم استدل لذلك بكون الروايات التي تتحدث عنه تحوي أحاديث ضعيفة ومكذوبة ومتناقضة.. وهذا كله لا يساوي شيئا أمام تواتر الروايات الواردة عنه، وخاصة مع اتفاق المدارس الإسلامية عليها، ذلك أنه عند التواتر تلغى أحكام الآحاد.

ولذلك كان في إمكانه أن يناقش تلك الأحاديث التي يرى أنها لا تتفق مع الصورة الصحيحة للدجال بحسب الروايات المعتبرة، وكان في إمكانه أن ينكر بعض التفاصيل التي لم تتواتر الأدلة عليها، أو لم تثبت في الأحاديث الصحيحة، لكنه لم يفعل، وراح مثل التنويريين جميعا يهدمون كل ما لا يستسيغونه، متصورين أن ذلك حكم العقل، بينما هو في حقيقته ليس سوى حكم للهوى.

فالعقل يحترم نفسه، ويعلم أن الجرأة على إنكار ما لم ييسر لنا علمه صعبة بل مستحيلة، كما قال تعالى في ذكره لهذا النوع من التفكير: { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [يونس: 39]

وهكذا هؤلاء، يكذبون بشيء لم يحيطوا بعلمه، ولا لديهم أدوات ذلك، وفوق ذلك لا يعرفون تأويله وحقيقته الواقعية، لأن الزمن حجاب بينهم وبينه.

وسبب ذلك كله هو أن العقل التنويري ـ بسبب مراهقته الفكرية ـ يتصور أنه أوتي مفاتيح الحقائق، وأنه من خلالها يثبت ما يشاء، وينكر ما يشاء، من غير برهان ولا حجة ولا دليل إلا الهوى المجرد.

وهو لذلك يفعل مثلما يفعل ذلك المراهق المتهور الذي يتصور أنه ـ من خلال الحروف القليلة التي درسها ـ يستطيع أن يحكم في كل شيء، بخلاف الشيخ الحكيم الذي حنكته

التجارب، والذي يتأنى قبل أن يدلي برأيه في أي قضية.

من عجائب تحكم الهوى في عقول التنويريين الجدد تلك المحادة لله ورسوله في أمور قطعية وردت بها الأحاديث المتواترة، المتفق عليها من جميع المدارس الإسلامية، بحجج لا يمكن أن يقتنع بها عاقل إلا إذا كان له الجرأة الكافية على رفض النصوص المقدسة ومخالفتها وتقديم هواه عليها.

وحينها يمكن إلزامه بإنكار ما عداها من النصوص التي تساويها في الثبوت، أو حتى تلك التي تقل عنها فيه.. وحينها سيفرغ الدين من كل محتوياته، لأنه لا يمكن أن تبقى شعيرة من شعائر الإسلام ولا حكم من أحكامه بعد رفع الثقة عن المتواتر القطعي المتفق عليه.

وربما يكون أحسن نموذج لهذا التألي على الله موقفهم من الإمام المهدي، ذلك الذي تواترت النصوص المقدسة على التبشير به، واعتباره أملا للأمة، بل للبشرية جميعا، وأن الأرض بمجيئه ستمتلئ عدلا بعد أن ملئت جورا، وأن الحق سيعود لنصابه، وأن الدين سيظهر عنده على الدين كله.

لكن التنويريين لم يلاحظوا كل هذا، بل راحوا بجرة قلم ينفون كل تلك النصوص، لأن عقولهم لم تقتنع بها، ولست أدري هل اقتنعت عقولهم بقوله تعالى: { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} [الأنبياء: 105، 106]، وهو صريح ينطبق تماما على الإمام المهدي ومن بعده من الصالحين الذين يرثون الأرض بعد أن ينهار مشروع الشيطان، ويقوم مشروع الرحمن.

وفي إخباره تعالى عن كون هذه القضية مذكورة في الزبور إشارة صريحة إلى أن البشارة بالإمام المهدي ليست خاصة بهذه الأمة فقط، بل هو مبشر به في سائر الديانات..

فكلها يذكر وجود مخلص في آخر الزمان، وإن كانوا يختلفون في اسمه.

وبــذلك لا يســتعمل التنويريــون عقــولهم في مواجهــة النصوص النبوية القطعية المتواترة المتفق عليهـا فقـط، بـل يقفون أيضا في وجه القرآن الكريم، وفي وجه كـل الـديانات التي تنص صراحة على وجود المخلص، وتنتظره، وتعقد آمـالا كبيرة عليه.

وللأسف، فإن الموقف من الإمـام المهـدي على الـرغم من الدلائل الكثيرة التي تدل عليه، لم يكن خاصا بـالتنويريين الجـدد، بـل انضـم إليهم الكثـير من الحركـيين، بـل حـتى من السلفيين الـذين اشـتهروا بتكفـير كـل من يكـذب ولـو حـديثا واحدا من أحاديث رسول اللـه ﷺ، لكنهم مـع أحـاديث الإمـام المهدي راحوا يتساهلون، بـل يلتمسـون الأعـذار لمن أنكـره، بل إن فيهم من تجـرأ على إنكـاره، ومـع ذلـك لم يتهم بتلـك التهم التي اتهم بها من شكك في أحاديث لطم موسـى عليـه السلام لملك الموت وغيره.

وسر ذلك هو تلك القاعدة التي تبناها الجميع في اعتبـار التشيع بدعة مطلقة، وشرا مطلقا، ولذلك فإن السنة عندهم هي مخالفـة الشـيعة، حـتى لـو جـر ذلـك الخلاف إلى خلاف رسول الله ﷺ نفسه.

وقد رأى الجميع مبلغ اهتمـام الشـيعة بالإمـام المهـدي، واعتبـاره مشـروعا كـاملا للمـؤمن، يـدخل في جميـع أجـزاء حياته، فبركاته عندهم لا يتنعم بها أهل عصره فقط، بل تتنعم بها كل العصور، لأنه يعيش في كل العصور.. ولذلك نجــد من ألقابه عندهم [إمام العصر والزمان]

وهو عنـدهم أشـبه بالشـمس الـتي حجبهـا الغمـام؛ فهم يتنعمون بها من خلف الغمام، ويعملون كـل جهـدهم لـيزيحوا ذلك الغمام لتبدو الشمس منيرة للعالم كله، فتحجب بطلعتها البهية كل ظلمة، وتزيل كل عناء، وترفع كل جور.

وبناء على هذا كله راح الجميع يبشرون بعدم وجود الإمام المهدي، حتى أن القرضاوي وفي برامجه التي تبثها الجزيرة، والتي يشاهدها مئات الملايين، كان ينكر كل حين أحاديث الإمام المهدي، ويعتبره خرافة لا وجود لها.

ويستدل لذلك، لا بما يعارض ذلك من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، أو الأدلة العقلية، وإنما بما سمعه وكتبه الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية فى دولة قطر فى كتابه [لامهدى يُنتظر بعد الرسول محمد خير البشر]، والذي قال فيه: (إن أحاديث المهدى ليست بصحيحة ولا صريحة ولا متواترة بل كلها مجروحة وضعيفة، والجرح مقدم على التعديل وقد رجح أكثر العلماء المتأخرين خاصة أهل الأمصار بأنها كلها مكذوبة على رسول الله ﷺ، فهى أحاديث خرافة سياسية إرهابية، صيغت وصُنعت على لسان رسول الله ﷺ صنعها غلاة الزنادقة لما زال الملك عن أهل البيت؛ فأخذوا يُرهبون بها بنى أمية ويتوعدونهم بأنه سيخرج المهدى وقد حان وقت خروجه فينزع الملك عنهم ثم يرده إلى أهل البيت إذ أنهم أحق به وأهله)

مع العلم أن هذا الشيخ ابن نجد، وأحد أبرز رموز المدرسة الحنبلية الوهابية، فقد تلقى دروسه على يد الشيخ عبدالملك بن إبراهيم آل الشيخ - قاضي حوطة بني تميم -، ولازم الشيخ عبدالعزيز الشثري (أبو حبيب)، وطلب العلم على يد الشيخ محمد بن إبراهيم - مفتي الديار السعودية - بالرياض وأخذ عنه سنة كاملة، ثم اختاره ابن إبراهيم ضمن ثمانية من أبرز تلاميذه للذهاب إلى #مكة للوعظ والتدريس بها[1].

وقد استعمل في رسالته التي أنكر فيها الإمام المهدي نفس أسلوب السلفية في التشدد مع المخالفين، ولكنه في

(1) انظر مقالا بعنوان: فتوى سلفية حنبلية.. «المهدي المنتظر» خرافة، عبد الله الرشيد، صحيفة عكاظ..

هذه المرة تشدد مع الأحاديث نفسها على الرغم من أنه يقبل ما هو دونها، بل يبدع من أنكر ما هو دونها بكثير، وقد قال معبرا عن الدوافع والرغبات التي جعلته ينكر الإمام المهدي، واعتباره بدعة دخيلة على الإسلام: (حتى لو صدقنا الأحاديث الواردة في المهدي، فهو ليس بملك معصوم، ولا نبي مرسل، ما هو إلا رجل عادي، كأحد أفراد الناس إلا أنه عادل، وكل الأحاديث الواردة فيه ضعيفة ويترجح أنها موضوعة على لسان رسول الله ولم يحدث بها)

وقال: (لا يجب الإيمان الجازم بخروجه، فليس من عقيدة المسلمين الإيمان به، ليست كالإيمان بالرب والملائكة والبعث والجنة والنار، فهذه كلها أثبتها القرآن وصحيح السنة، وليس منها الإيمان بالمهدي.. والحاصل أنه يجب طرح فكرة المهدي ونبذها، وعدم اعتقاد صحتها، وعندنا كتاب الله نستغني عنه من كل بدعة، واتباع كل مبتدع مفتون.. فلا نفع للمسلمين أن يهربوا من واقعهم، ويتركوا واجباتهم لانتظار مهدي مجهول، فيركنوا إلى الخيال والمحالات، ويستسلموا للأوهام والخرافات)

وقال: (مسألة المهدي ليست في أصلها من عقائد أهل السنة القدماء، فلم يقع لها ذكر بين الصحابة في القرن الأول، ولا بين التابعين، وأن أصل من تبنى هذه الفكرة والعقيدة هم #الشيعة، فسرت هذه الفكرة، بطريق المجالسة والمؤانسة والاختلاط إلى أهل السنة، فدخلت في معتقدهم، وهي ليست من أصل عقيدتهم)

وقد أشاد يوسف القرضاوي بهذا الكتاب، واعتبره مرجعا لهذه المسألة، وقد ذكر في بعض أحاديثه المتلفزة التي يراها عشرات الملايين أنه حضر (للقاء بين العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، والشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، فلم يستطع الألباني إقناع عبد الله بموضوع المهدي وصحة أحاديثه)

وهذا من العجيب أن يحكم في مسألة ترتبط بأحاديث

رسول الله ﷺ من خلال مجلس من المجالس، أو من خلال شخصية من الشخصيات، ولست أدري أيهما أكثر علما بالحديث: هل الألباني المختص صاحب المصنفات الكثيرة فيه، أم ابن محمود ذلك الذي لم يشتهر إلا برسالته التي ينكر فيها الإمام المهدي؟

ولم يكن القرضاوي ولا ابن محمود وحدهما من أنكره، بل أصبح الآن هو العقيدة المشتهرة خاصة بعد أن قام عدنان إبراهيم وتلاميذه من التنويريين بشن الحملة الشديدة عليه، حتى صار الحديث عن الإمام المهدي كالحديث عن التنين وعروس البحر وسائر الخرافات.

ولم يقتصر الأمر على الإنكار، بل أصبح الإمام المهدي ـ أمل الأمة الأكبر، ومن نصت عليه النصوص المقدسة، ذلك الذي يتلهف المؤمنون للقائه ـ موضع سخرية من صبيان الأمة وشيوخها وشبابها.

ولهذا سأذكر هنا باختصار شبهاتهم الكبرى مع الرد العلمي عليها.

الشبهة الأولى: ضعف الأحاديث الواردة في شأنه:

وهي شبهة عجيبة، ولو طبقنا هذا المعيار على جميع الأحاديث النبوية الشريفة، لألغيناها جميعا، وألغينا معها كل الأحكام الشرعية، فالقرضاوي وعدنان إبراهيم وكل من أنكروا أحاديث الإمام المهدي يقبلون بما هو أدنى منها بكثير، وهذا دليل على تحكم الهوى، لا النص المقدس، ولا العقل، ولا الفطرة، ولا أي شيء آخر.

ذلك أنه لا يوجد أي شيء يمكن أن تعارض به تلك الأحاديث.. فلا هي تخالف العقل، ولا هي تخالف الفطرة، ولا هي تخالف القرآن الكريم، ولا هي تخالف أي معلوم من الدين بالضرورة، بل هي تنص فقط على أنه سيظهر في المستقبل من يعيد إحياء الدين، ومن في عهده يظهر دين

الله على الدين كله، وليس في ذلك أي حرج، فقدرة الله أعظم من أن تعجز عن تنفيذ ذلك.

فمن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطى المال صحاحاً، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثماني (يعني حججاً))[1]

ومنها قوله ﷺ: (المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة)[2]

ومنها قوله ﷺ: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل مني أو من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً)[3]

وغيرها من الأحاديث الكثيرة، التي لو شئنا لفهمناها على ضوء القرآن الكريم، فهي جميعا ليست إلا بيانا لما ورد النص عليه في النصوص الكثيرة من انتصار الإسلام على الدين كله، وهيمنته عليه، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة: 33]، وقال: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [الفتح: 28]

أو تلك النصوص التي تخبر بأن الأعداء مهما فعلوا؛ فلن يستطيعوا أن يطفئوا نور الله، كما قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ

---

[1] أخرجه الحاكم (4/557) بهذا اللفظ وقال: صحيح، وأخرجه أبو داود (4284)، وأحمد (3/37) بنحوه، قال ابن القيم على سند أبي داود: إسناده جيد. وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة 2/336): سنده صحيح.

[2] أخرجه أحمد (2/58)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وأخرجه ابن ماجة.

[3] أخرجه أبو داود في باب ذكر المهدي (4281)، وقال الألباني: صحيح..

الْكَافِرُونَ } [التوبة: 32]، وقال: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف: 8]

وغيرها من النصوص المقدسة الكثيرة التي تخبر أن الأمة ستعود إلى رشدها، وستسير خلف القائد الرباني الذي يقوم دينها، ويزيل كل الانحرافات التي علقت به، والتي جعلته أقرب إلى دين البشر منه إلى دين الله.

لكن مع ذلك نجد شيخا كالقرضاوي يبلغ به الهوى إلى درجة أن يستدل على الملأ بكون الأحاديث المرتبطة بالإمام المهدي ضعيفة لأنها لم ترد في الصحيحين، مع أنه يعلم جيدا أن عدم ذكر الشيخين [البخاري ومسلم] لأحاديث المهدي في صحيحيهما، لا يعد دليلا على إنكار المهدي لأنهما لم يستوعبا كل الصحيح في صحيحيهما، وذلك بشهادتهما، فضلا عن إجماع علماء الحديث والفقه على ذلك، والقرضاوي نفسه يقول بذلك.

بل إننا لو تأملنا في الكثير من الأحاديث الواردة في الصحيحين، لوجدنا أنها لا تنطبق إلا على الإمام المهدي، كما أقر بذلك شراحهما، بل إن جمعا من علماء الحديث أقر بأن في الصحيحين أحاديث تتعلق بالمهدي، وإن لم تكن صريحة في ذكر المهدي.

وفوق ذلك كله؛ فقد نص العلماء على تواتر الأحاديث الواردة في شأنه، ومنهم العلامة أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي الذي قال: (اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأعصار أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى عليه السلام ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته.. وخرج أحاديث المهدي جماعة من الأئمة منهم: أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والبزار،

والحـاكم، والطـبراني، وأبـو يعلى الموصـلي، وأسـندوها إلى جماعـة من الصـحابة مثـل: علي، وابن عبـاس، وابن عمـر، وطلحـة، وعبـد اللـه بن مسـعود، وأبي هريـرة، وأنس، وأبي سـعيد الخـدري، وأم حبيبـة، وأم سـلمة، وثوبـان، وقـرة بن إياس، وعلي الهلالي، وعبـد اللـه بن الحـارث بن جـزء رضـي اللــه عنهم.. وإســناد أحــاديث هــؤلاء بين صـحيح، وحســن، وضعيف. وقد بـالغ الإمـام المـؤرخ عبـد الـرحمن بن خلـدون المغربي في تاريخه في تضـعيف أحـاديث المهـدي كلهـا فلم يصب بل أخطأ)[1]

وقال القاضي الشوكاني تأليف لـه سـماه (التوضـيح في تواتر ما جـاء في المنتظـر والـدجال والمسـيح): (والأحـاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها منهـا خمسـون حـديثاً فيهـا الصـحيح، والحسـن، والضـعيف المنجـبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصـف التـواتر على مـا دونهـا على جميـع الاصـطلاحات المحـررة في الأصـول، وأمـا الآثار عن الصحابة المصـرحة بالمهـدي فهي كثـيرة أيضـاً لهـا حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك)[2]

وقال الإمام أبو الحسـن محمـد بن الحسـين الآبـري في كتاب (مناقب الشافعي): (وقـد تـواترت الأخبـار واستفاضـت عن رسول الله ﷺ بـذكر المهـدي، وأنـه من أهـل بيتـه، وأنـه يملك سبع سنين، وأنـه يملأ الأرض عـدلاً، وأن عيسـى يخـرج فيسـاعده على قتـل الـدجال، وأنـه يـؤم هـذه الأمـة ويصـلي عيسى خلفه)

وقال العلامة المحدث أبو العلاء السيد إدريس بن محمد بن إدريس العراقي الحسيني: (أحاديث المهدي متــواترة - أو كادت - وجزم بالأول غير واحد من الحفاظ النقاد)

---

[1] عون المعبود شرح سنن أبي داود، (11/ 361 - 362)

[2] كتاب (الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة) (ص: 124).

قال المحدث أبو الطيب صديق حسن الحسيني البخاري في كتـاب (الإذاعـة): (والأحـاديث الـواردة في المهـدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً تبلغ حـد التـواتر، وهي في السـنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد)

وقال العلامـة أبـو عبـد اللـه محمـد جسـوس في شـرح رسالة أبي زيد: (ورد خبر المهدي في أحاديث ذكر السـخاوي أنها وصلت إلى حد التواتر)

بل إن الشيخ عبد العزيز بن باز أثبت تواترهـا، ورد على أنكر صحتها أو تواترهـا، فقـال: (أمـا إنكـار المهـدي المنتظـر بالكلية كما زعم ذلك بعض المتـأخرين فهـو قـول باطـل، لأن أحـاديث خروجـه في آخـر الزمـان، وأنـه يملأ الأرض عـدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً، قـد تـواترت تـواتراً معنويـاً، وكـثرت جداً واستفاضت كما صرح بذلك جماعة من العلماء بينهم: أبو الحسن الآبري السجستاني من علماء القرن الرابع، والعلامة السفاريني، والعلامة الشوكاني وغـيرهم، وهـو كالإجمـاع من أهل العلم، ولكن لا يجوز الجزم بأن فلاناً هو المهـدي إلا بعـد تـوافر العلامـات الـتي بينهـا النـبي ﷺ في الأحـاديث الثابتـة، وأعظمها وأوضحها كونه يملأ الأرض قسطاً وعـدلاً كمـا ملئت جوراً وظلماً)[1]

بالإضـافة إلى هـذا، فقـد ألفت المؤلفـات الكثـيرة في الروايات المرتبطة بالإمام المهدي، والـتي لم يكتبهـا الشـيعة فقط، وإنما كتبهـا أعلام كبـار من المدرسـة السـنية، بـل من المدرسة السـلفية نفسـها، فقـد كتب الشـيخ عبـد المحسـن العباد كتابه: (الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهــدي)، وكتب الشــيخ حمــود بن عبداللــه بن حمــد التــويجري مجلــداً بعنــوان (الاحتجــاج بــالأثر على من أنكــر المهدي المنتظر)، وغيرهما كثير.

---

[1] الرسالة في الفتن والملاحم وأشراط الساعة لمـاهر بن صـالح آل مبـارك- ص: 89.

ومما يؤكد هـذا التـواتر ويدعمـه تلـك الروايـات الكثـيرة جدا، والـتي رويت في المصـادر الشـيعية بـالطرق الصـحيحة المعتبرة، وللأسف فإن الذين ينكرون صحة أحاديثه، أو ينفون تواترها، يستكبرون على تلك النصوص الكثيرة، والتي تتجـاوز حد التواتر بكثير.. ولكنهم لكبرهم يتصـورون أنـه لا حـديث إلا الذي يحدثهم به من ينتمون لمدرستهم، وتشبعوا بفكرهم.

ومن هـذا البـاب تلـك الشـبهة الـتي يـذكرون فيهـا أن الأحاديث المرتبطة بالإمام المهـدي من روايـة الشـيعة لا من رواية السنة، وهذا خطأ كبـير، فـأغلب الروايـات الـواردة في كتب السـنة عن الإمـام المهـدي ليس في اسـنادها أي رجـل متهم بالتشيع.

الشبهة الثانية: عدم جدوى التبشير بـه أو انتظاره:

وهي من الشـــبه العجيبـــة، الـــتي لا نســـمعها من المستشـرقين، ولا من المسـتغربين، وإنمـا من المسـلمين الـذين يعلمـون أن رسـول اللـه ﷺ لا ينطـق عن الهـوى، ويعلمون أن كل ما يقوله حـق وخـير، وأنـه لا مجـال لإدخـال العقول في تكذيب ما قاله أو توجيهه.

ولهـذا كـان الأجـدر بهم الاكتفـاء بإثبـات عـدم صـحة الأحاديث الواردة عنه، لا إدخال أهوائهم، ورد الأحاديث بسبب كون الدين قد اكتمل، ولـذلك لا حاجـة لأي مهـدي يجـدده، أو يصحح ما انحرف منه.

والعجيب أن هـؤلاء الـذين يتسـاءلون عن مـدى جـدوى الإخبـار عنـه، لا يتسـاءلون عن جـدوى مـا ورد في النصـوص المقدسة من أن الشمس ستشرق من مغربها، أو الدخان، أو الدابة، أو يـأجوج ومـأجوج، وغيرهـا من الآيـات الـتي ورد في النصوص المقدسة أنها ستكون علامات على الساعة.

فإذا مـا سـألهم أحـد عن سـرها، أحـالوه إلى علم اللـه، وكون الله أعلم بخلقه، وأنهم لا يحيطون بشيء من علمه، أو

قرأوا عليه ما قصه الله تعالى علينا عن الملائكة عندما أخبرهم بأنه سيجعل خليفة في الأرض، فقال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30]

وكان في إمكانهم أن يسترشدوا بهذه الآية الكريمة، ليتعلموا فن الأدب مع الله تعالى؛ فلا يعقبوا عليه، ولا يردوا أمره؛ ذلك أنهم لا يحيطون بتأويل الحقائق، ولا معرفة أسرار ما يريده الله.

وكان في إمكانهم أن يسترشدوا بقصة موسى عليه السلام مع الخضر، وكيف دله على أن في الغيب أشياء كثيرة تبرر ما لا ندركه من عالم الشهادة.

وكان في إمكانهم أن يعودوا إلى الاسم الذي سماهم الله به، وهو الإسلام، وهو اسم لا يستحقه إلا من سلم لله تسليما مطلقا في شريعته وعقيدته وسلوكه ومواقفه، بل يكون بين يديه كالميت بين يدي الغسال، أو كالريشة في مهب الريح.

لكن الدين المزاجي الذي طبع عليه التنويريون، ومن تبعهم في هذا الموقف جعلهم يعترضون من حيث لا يشعرون؛ فيتساءلون بعقولهم القاصرة المجردة عن جدوى ظهور هذا الإمام العظيم الذي وكلت له أخطر مهمة في التاريخ.

وهم في نفس الوقت يصححون حديث التجديد الذي قال في ﷺ: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[1]، مع كونه لا يرقى في صحته لأحاديث الإمام المهدي، لا في عدد رواته، ولا في عدد مخرجيه، ولا في أي شيء آخر.

---

[1] رواه أبو داود (رقم/4291) وصححه السخاوي في المقاصد الحسنة (149)، والألباني في السلسلة الصحيحة (رقم/599).

ومع ذلك نجد القرضاوي، وكل من ينكر أحاديث المهدي، يؤمن به، ويصححه، بل يؤلف فيه الكتب، ولا يكاد يخلو مجلس من المجالس إلا ويذكره، ويعدد من خلاله المجددين الذين ينطبق عليهم الحديث، ويكاد يذكر نفسه ـ لولا الحياء ـ من بينهم، مع أنه لا فارق بين الأمرين؛ فالذي بشر بظهور المجددين في كل مائة سنة، هو نفسه الذي بشر بظهور المجدد الأعظم بعد مئات السنين.

ولذلك فإن على الذي يذكر عدم جدوى التبشير بالإمام المهدي واعتبار الدين قد كمل فلا حاجة إليه، أن ينكر أيضا حديث التجديد كل مائة سنة.. لأن الدين قد كمل، فلا حاجة للمجددين.

لكن العقل المزاجي الذي يقدم هواه على النصوص المقدسة، يتقن فنون الحيل، فيقبل ما يشاء من النصوص، ويرفض ما يشاء، من دون أن يدلي بأي سلطان أو أي حجة.

وأنا لا يمكنني في هذا المقام أن أذكر الفوائد التي تدل عليها تلك البشارة العظيمة بالإمام المهدي، ولكني أعبر عن نفسي فقط، وعن تأثير حضور الإمام المهدي في حياتي.. وليعتبرني من يشاء خرافيا أو ضالا أو متكاسلا أو ما شاء من الأسماء.

فأول شعور أشعره هو ذلك الشعور الذي شعره ورقة بن نوفل ومن معه من الأحبار الصادقين الذين كانوا يترقبون ظهور النبي الأمي الذي بشرت به الأنبياء؛ فأفنوا أعمارهم في ذلك الانتظار الجميل، الذي لا يختلف عن انتظار يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام.

وهذا الشعور لا يمكن وصفه، ولا التعبير عنه، لأنه ذوق محض، ولذة محضة، فكلما ذكرت الإمام المهدي كلما دعتني الأشواق إلى تقبيل التراب الذي يسير عليه، أو الهواء الذي يتنسمه، فريحه هي نفس ريح يوسف التي أعادت ليعقوب بصره.

وعلاقتي به ليس لذة نفسية فقط، بل هي طاقة روحية أيضا تجعلني ـ من حيث لا أشعر ـ أتواصل معه، كما تواصلت أرواح أولئك الأحبار والرهبان مع رسول الله ﷺ قبل أن يخرج من عالم الملكوت إلى عالم الملك.

وهو أيضا ليس أشواقا روحية فقط، بل هو طاقة كبرى تجعلني أشعر بأن علي أن أقدّم أي هدية تليق بذلك الجناب الرفيع الذي جعله الله أملا للأمم، يصحح مسارها، ويعيد للإنسان الخليفة حقيقته ومكانته، بعد أن يخرجه من أسر الشياطين التي سجنته في سجونها قرونا طويلة.

وهذا ما يجعل من الانتظار حركة، لا كسلا، وعزيمة لا وهنا.. فالذي ينتظر الغالي عليه أن يقدم الغالي، حتى لا يلقاه ويداه فارغتان.

هذه مشاعري، والتي لا أستطيع أن أكبتها، أو أكتمها مخافة أن أتهم في عقلي وديني، لأني أشعر أن علاقتي به أعظم من كل علاقة.

وهي ليست صعبة، ولا أنا من ينفرد بها، بل هي ممكنة لكل شخص يسلم للنبوة، ويعلم أنها لا تقول إلا الخير، ولا ترشد إلا للخير.

أما دعاوى بعضهم؛ فهي ناشئة من تلك التصورات المرضية المبنية على عالم الملك، لا على عالم الملكوت، فهم يتصورون أن تعظيمهم للإمام المهدي يؤثر في تعيظمهم لرسول الله ﷺ، وهم لا يعلمون أن الإمام المهدي الذي هو حفيد رسول الله ﷺ، ليس سوى قطعة منه، فهو منه كما ورد في الحديث، ولذلك كان تعظيمه تعظيما لرسول الله ﷺ، ومحبته محبة لرسول الله ﷺ، والشوق إليه شوق لرسول الله ﷺ، ونصرته نصرة لرسول الله ﷺ.

ولذلك لا نملك إلا أن نقول لأولئك الذين يتساءلون عن جدوى ظهوره أو خروجه أو وجوده: يحق لكم أن تتساءلوا، لأنكم تتصورون الدين بتلك الصورة البسيطة، الخالية من

المشاعر المتدفقة نحو النبوة والولايـة.. ذلـك أنكم تتعـاملون مـع النبـوة تعـاملا جافـا؛ فتختصـرون دورهـا في دور سـاعي البريد الذي يبلغ الرسالة، وينتهي دوره.

أما من يعشق النبوة في ذاتهـا، ويعشـق الولايـة التابعـة لها؛ فهو يعلم أنه يستحيل أن تقـوم الشـريعة من دون النـبي الـذي تـنزلت عليـه، أو من دون الـولي الـذي يمثلهـا، ولـذلك كانت محبة الولي والشوق إليه وانتظاره ليست إلا سـيرا في خطى النبوة، وتمثلا حقيقيا للعلاقة معها.

وربمـا لن يفهم هـذا الحركيـون خصوصـا أولئـك الـذين فشــلوا في كــل مشــاريعهم بســبب غيــاب هــذا البعــد عن دعوتهم، لأنهم طالبوا بتحكيم شـريعة اللـه بعيـدا عن الأوليـاء الـذين يمثلونهـا، والشـريعة الحقيقـة لا يمثلهـا ولا يطبقهـا إلا الأولياء، ورثة الأنبياء.

وللأسف نجد أكثر الحركيين ابتداء من حسن البنا وانتهاء بقادة الإخوان المسلمين المعاصرين ينكرون الإمام المهــدي، ولو أنهم تمثلـوه في دعـوتهم، واسـتطاعوا أن يسـتفيدوا من البشارات المرتبطة بـه، لنجحـوا في أقصـر مـدة، مثلمـا نجح غيرهم.. لكنهم لا يعتبرون.

الشبهة الثالثة: أن الإمـام المهـدي فكـرة مقتبسة من الديانات الأخرى:

وهي من الشــبه الــتي يبثهــا أولئــك التنويريــون الــذين يتوهمــون أنهم بأطروحــاتهم يقومــون بتنقيــة الإســلام من التأثيرات اليهودية والمسيحية وغيرهـا، والـتي تسـربت إليـه ـ حسب وصفهم ـ عبر العصور المختلفة.

ونحن لا ننكـر ذلـك التسـرب، ولا ننكـر ضـرورة تصـفية الإسلام، وخاصة التفاسير القرآنية من آثار تلك الإســرائيليات التي شوهت الدين، وحرفته.

ولكن ليس كــل مــا ورد في الكتب المقدســة لتلــك

الديانات مما يتنافى مع ديننا، فهناك قواسم كثيرة مشتركة، ولو أننا طبقنا هذا الأساس لاعتبرنا الدعوة إلى الله نفسها دعوة مسربة من الكتاب المقدس، ذلك أن في الكتاب المقدس نصوص كثيرة ممتلئة بالجمال تعرف بالله وبأسمائه الحسنى وتدعو إلى محبته والتوكل عليه.. فهل نعتبر تلك النصوص مما تسرب إلى ديننا.

ومثل ذلك تلك البشارات الكثيرة المرتبطة برسول الله ﷺ، والتي لا يزال علماء المسلمين يستعملونها في مناظراتهم مع أهل الكتاب، بل إن الكثير من أهل الكتاب آمن بسببها قديما وحديثا.. فهل نحكم على تلك الكتب والأسفار بأنها محرفة جميعا حتى ما ارتبط منها بتلك البشارات؟

وهكذا فإن القرآن الكريم يخبرنا أن التحريف مس بعض الكتاب، ولم يمسه جميعا، ولذلك كان علماء المسلمين في حوارهم مع أهل الكتاب يستعملون نفس نصوص الكتاب المقدس ليقيموا عليهم الحجة من خلاله، بل إن القرآن الكريم أول من استعمل هذا المنهج عندما قال مخاطبا اليهود: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: 93]

وهكذا أخبر عن المؤمنين من أهل الكتاب، ووصفهم بكونهم {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: 157]

بل إن القرآن الكريم أخبر أن إله أهل الكتاب هو نفسه إله المسلمين، كما قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

} [العنكبوت: 46]

وبناء على هذا؛ فإن كل النصوص الواردة في حق الإمام المهدي، والتي وردت في الكتب المقدسة المختلفـة، ليسـت سوى مصداق لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَـا فِي الزَّبُـورِ مِنْ بَعْـدِ الـذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَـادِيَ الصَّـالِحُونَ} [الأنبيـاء: 105]؛ ففي هذه الآية الكريمـة إخبـار من اللـه تعـالى بـأن البشـارة بوراثة الصالحين للأرض كتبها في الزبور، والإمام المهدي هـو بداية تلك البشارة كما ورد في الرويات المختلفة.

وفي الزبور الحـالي نجـد إشـارات كثـيرة تنطبـق تمامـا على ما ذكر في القـرآن الكـريم، ففي المزمـور (377) من زبور النبي داود عليه السلام، وفي الفقرة التاسعة منه قـال: (الأشرار ينقطعون، أمّا المتوكّلون على اللـه فـإنّهم سـيرثون الأرض).

وفي الفقــرة الثامنــة عشــر جــاء : (إنّ اللــه يعلم أيّــام الصالحين وسيكون ميراثهم أبديّاً)

وفي الفقرة الثانية والعشرين ورد : (الذين باركهم اللــه سيرثون الأرض، أمّا الذين لعنهم الله فسينقطعون)

وجــاء في الفقــرة التاســعة والعشــرين: (الصــدّيقون سيرثون الأرض وسيسكنون فيها إلى الأبد)

وهكذا نجد أمثال هذه البشارات في سائر أسفار الكتاب المقدس، ففي سفر أشعياء [باب 11 / 1ـ 3 و 6 ـ 9]: (برز برعم من جذع يسي، يمتدّ غصن من جذوره، يستقرّ فيه روح اللــه، وروح الحكمــة والفطنــة، وروح المشــورة والجــبروت، وروح العلم والخشية من الله، يحكم وفـق علمـه لا وفـق مـا يسمع ويـرى، يعيش الـذئب مـع النعجـة والنمـر مـع المعـزى والعجل مع شبل الأسد، ويرعى الدبّ مع البقرة والأسد يأكل التبن مثل البقـرة، ويلعب الطفـل الرضـيع بجحـر الأفعى، ولا يحدث ضرر وفسـاد في جميـع جبـالي المقدّسـة، لأن الأرض تمتلىء بمعرفة الله مثل المياه التي تَمْلؤ البحار)

وطبعا هـذا النص يشـيربلغته الرمزيـة إلى ذلـك الزمـان الجميل الـذي يعم فيـه السـلام والعدالـة الأرض بسـبب حكم الصالحين، والذي يبدأ بحسب الروايات من الإمام المهدي.

وهكذا نجد أمثال هذه البشارات في العهد الجديـد، ففي إنجيـل لوقـا [بـاب 21،ـ 25 ــ277]: (تكـون في الشـمس والقمر والنجوم آيات، ويظهر على الأرض للأمم ضيق وحـيرة بسـبب اضـطراب أمـواج البحـر، وتضـعف قلـوب النـاس من الخوف، ومن ترقّب تلك الوقائع التي تظهـر على ربـع الأرض المسكونة، وتتزلزل قـوة السـماء، عنـدها يُـرى إبن الإنسـان ممتطياً غمامة، يأتي بقوّة وجلال عظيم)

وقد ذكر علماء المسيحية أنفسهم في (قاموس الكتـاب المقدّس) بأن المراد بابن الإنسـان هنـا ليس السـيد المسـيح عليه السلام، بل إن عبارة ابن الإنسان تكـرّرت في الأناجيـل ثمانين مرّة، يمكن تطبيق ثلاثين منها مع عيسى المسيح عليه السـلام فقـط، وأمّـا البقيّـة فإنّهـا تتحـدّت عن المنجي الـذي يظهر في آخر الزمان.

ومثل ذلك نجد هـذه البشـارة في رؤيـا يوحنّـا اللاهـوتي [باب 12 الفقرات : 1و2 و5 و14]، فقـد ورد فيهـا: (ظهـرت علامــة عظيمــة في الســماء، امــرأة تتلفَّعُ بالشــمس وتحت قدميها القمر وعلى رأسها تاج فيه إثنـا عشـر كوكبـاً، وكـانت المرأة حُبلى وتصـرخ من شـدّة ألم الطلـق، ثم ولـدت طفلاً ذكراً سيحكم جميـع الأُمم بعصـا حديديـة، ولأجـل حفـظ ذلـك المولود بشكل تام، فقد اختفى عن أنظـار الشـياطين لعصـر وعصرين ونصف عصر)

بل إننا نجد أمثـال هـذه البشـارات في الكتب المقدسـة لغير أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ففي [أوبانيشاد]، وهو أحد الكتب المعتبرة عند الهنود نجد هذا النص الذي لا ينطبـق إلا على المخلص: (عنـد نهايـة العـالم أو عنـد انتهـاء العصـر الحديدي يظهر (مظهر ويشنو المظهر العاشر) ممتطياً حصاناً أبيض وفي يده سيف مصـلت يلمـع كـالنجم المـذنّب، يقضـي

على جميع الأشـرار ويجـدّد الخلـق ويُعيـد الطهـارة، المظهـر العاشر هذا يظهر عند انتهاء العالم)

ونجد في [باسك]، وهو من الكتب المقدّسة عن الهنـود: (تُختم الـدنيا بملـك عـادل في آخـر الزمـان ؛ يكـون إمامـاً للملائكة والإنس والجنّ يكون الحقّ معه، ويسـتحوذ على كـل ما هو مخفي في الجبال والبحـار والأراضـي، ويخـبر عمّـا في السماوات والأرض ولا يأتي إلى الدنيا أعظم منه)

وفي [باتيكـــل]، وهـــو أيضـــا من الكتب المقدّســـة عن الهنود: (عند انتهاء العالم تتجدّد الـدنيا القديمـة، وتعـود حيّـة، ويظهر صـاحب المُـلك الجديـد، وهـو من أولاد سيـّدي العـالم العظيميـن أحدهمـا (ناموس آخر الزمان) والآخر (الصـدّيق الأكبر)، أي وصيّه الأكبر المسمّى بـ (بشن)، واسم صـاحب هذا المُلك الجديد (هادي). يصير ملكاً بـالحقّ وخليفـة (رام) وله معاجز كثيرة. يطـول عمـر دولتـه، ويعمّـر أكـثر من أولاد (الناموس الأكـبر). وبـه تختم الـدنيا، ويسـيطر على سـاحل البحر المحيط وجزائر سرانديب وقبر الأب آدم وجبال القمـــر وشمال هيكل الزهرة وسيف البحر والمحيطـات، ويهـدّم بيت أصـنام (سـومنات) وبـأمره ينطـق (جغرانـات) ويُكبّ على وجهه في التراب فيكسره ويلقيه في البحـر الأعظم ويكسِّـر جميع الأصنام في كلّ مكان)

وفي [ريـغ ودا] وهـو من الأسـفار الهنديـة المقدسـة: (يظهر ويشنو بين الناس، هو أقوى وأقـدر من كـل شـخص، في يد ويشنو (المنجي) سيف مثل كـوكب مـذنّب، وفي يـده الأخـرى خـاتم يسـطع نـوره، وعنـد ظهـوره تظلم الشـمس والقمر وتهتز الأرض)

وغيرها من النصوص الكثيرة، والتي لا نـزال نـرى أتبـاع الديانات المختلفة يؤمنـون بهـا، ويعتقـدون أن هنـاك مخلصـا تتخلص البشـرية على يديـه من كـل جـور وظلام وانحـراف، ليصحح مسـارها إلى الصـراط المسـتقيم بعـد فـترة الضـلال الطويلة.

ولا يهم الأسماء التي يسمون بها ذلك المخلص، لأن العبرة بالحقائق، لا بالأسماء، وبالمعاني لا بالصور.. ولذلك لا معنى لاعتبار ما اتفقت عليه الأمم جميعا خرافة، أو ضلالة خاصة إذا ورد في كتابنا ما يؤيدها.

بل إننا نجد لفكرة المخلص تأثيرها النهضوي الكبير في سائر الأمم، حتى لو كان تأثيرا سلبيا، لكن له دوره الفاعل.. فالمسيحيون المتصهينون، والحركة الصهيونية نفسها لم تقم، وتخلص اليهود من ذلك الذل الذي كانوا يعانونه إلا بنشرها لفكرة المخلص، ولهذا يجتهدون في بناء الهيكل له، تمهيدا لظهوره.

الشبهة الرابعة: أن الإمام المهدي كان سببا للدعاوى والفتن:

وهي من الدعاوى الغريبة جدا، ذلك أنها تستعمل ما يسميه الفقهاء [سد الذرائع] في موضوعات الأخبار، لا في الموضوعات العملية والفقهية، مع أن لسد الذرائع ـ في حال القبول به ـ شروطه الكثيرة في الفقه والأصول، والتي يشكل عدم التعارض مع النص أولى أولوياتها.

فهل نحن أكثر حرصا من رسول الله ﷺ على الأمة، حتى نكتم أو نكذب أحاديثه الصحيحة الصريحة، التي نقبل ما هو دونها بكثير، بحجة أن تلك الأحاديث قد تستعمل استعمالا خاطئا؟

ولو طبقنا هذا المعيار لألغينا جميع أحكام الشريعة، بل ألغينا جميع عقائدها، فالإرهابيون الآن يستندون إلى ما ورد في النصوص المقدسة من نعيم الجنة، ليستقطبوا المزيد من الأتباع، وينشروا إرهابهم، فهل يأتي أحد من الناس، ويزعم أنه لا توجد جنة، حتى يسلب هذه الورقة من أيدي الإرهابيين؟

والإرهابيون يتحدثون عن كثير من معاني الشريعة، ويحرصون عليها؛ فهل نخالف الشريعة طلبا لمخالفتهم؟

ولذلك؛ فإن هذا البعد الذي عبر عنه الشيخ ابن محمود النجدي القطري، وجعله من مبررات إنكاره للإمام المهدي؛ فقال: (جميع العلماء والعوام، في كل زمان ومكان، يقاتلون كل من يدعي أنه الإمام المهدي، لاعتقادهم أنه دجال كذاب، يريد أن يفسد الدين، ويفرق جماعة المسلمين، ويملأ ما استولى عليه جورا وفجورا، كما جرى لكثير من المدعين للمهدية، وسيستمر الناس يقاتلون كل من يدعي ذلك حتى تقوم الساعة، فأين المهدي والحالة هذه؟) تأل على الله، واجتهاد مع النص، وإدخال للعقل فيما لا مجال له فيه.

بل إننا لوتأملنا التاريخ لوجدنا أن ادعاء المهدوية أكبر دليل عليها، مثلما حصل مع أدعياء النبوة، وخاصة قبل الفترة التي بعث فيها رسول الله ﷺ.

بل إننا لو طبقنا هذا المعيار، وهو الادعاء واعتباره داعية لإنكار تلك النصوص المقدسة الكثيرة، فإننا ــ وحتى لا نقع في التطفيف في الميزان، أو في المكاييل المزدوجة ـ علينا أن نترك تعلم العلوم الدينية، لأن هناك من العلماء بالدين من راح يفسد الدين، ويضلل الناس..

بل نترك كذلك الأحاديث الدالة على التجديد، ذلك أن الصراع في التاريخ حصل بين المجتهدين، وكل منهم يزعم أنه المجدد، ولا زال الآن الصراع موجودا؛ فكل جهة تتصور أن زمام التجديد بيدها.

وهكذا، كانت هذه الشبهة مجرد هوى، ذلك أن الحقيقة لا يضرها من خالفها، كما لا ينفعها من وافقها، والهروب منها بأمثال تلك الحجج كتمان للعلم، وقد قال تعالى في وصف أهل الكتاب وكتمانهم للبشارت برسول الله ﷺ: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: 146]

ولو تأملنا حجج أهل الكتاب في ذلك الكتمان لوجدناها نفس حجج هؤلاء، ذلك أنهم يتصورون أن مصلحة الدين في

بقاء النبوة في بني إسرائيل؛ فإذا ما خرجت منهم كان في ذلك الضلال.. وهو نفس ما يتذرع به هؤلاء الذين يتصورون أن التجديد حكر عليهم، ولذلك لا يصح أن يسلموه لغيرهم كائنا من كان حتى لو كان الذي بشر به رسول الله ﷺ بل بشر به كل الأنبياء.

وهم يفعلون ذلك خصوصا مخالفة للشيعة الذين يعطون قيمة كبيرة لتلك البشارات النبوية، بل يتحركون في التاريخ على أساسها؛ فيخالفونهم، ولا يعلمون أنهم يخالفون رسول الله ﷺ نفسه.

والمشكلة الكبرى بعد ذلك كله ليس في مجرد الكتمان؛ فهو مع الإثم العظيم المرتبط به لا يساوي شيئا أمام التكذيب.. لا تكذيب الرواة والمحدثين، وإنما تكذيب رسول الله ﷺ نفسه.

ولا تتعجبوا من هذا؛ فقد رأيت المنكرين لأحاديث الإمام المهدي، يقبلون نفس الطرق والأسانيد التي رويت بها أحاديث أخرى، ويعتبرونها من السنة الصحيحة، بل يشنعون على المخالف إن أنكرها، متهمين إياه بإنكار السنة.

لكنهم في نفس الوقت يكذبون نفس الرواة، بل نفس السلسلة، إن روت أحاديث الإمام المهدي، ولست أدري ما هو معيار تكذيبهم لها؛ فإن كان كذبها، فلتكذب في سائر الأحاديث، وإن كان غير ذلك، فليس إلا الهوى، ذلك أنه لا اجتهاد مع النص.

التنويريون.. وعذاب القبر

من القضايا العقدية التي خاض العقل التنويري فيها من غير أن تكون له أثارة من علم، أو بصيرة من هدى، أو دليل من وحي مقدس ما يطلق عليه اصطلاحا [عذاب القبر]

ذلك العذاب الذي وردت به النصوص المقدسة المتواترة، من الكتاب والسنة المطهرة، ودل عليه معهما العقل الممتلئ بالحكمة والإيمان، وقال به كل الحكماء والعلماء الذين لم يستطع أحد منهم وعلى مدى القرون الطويلة أن يتجرأ؛ فيكذب ما دلت عليه النصوص، أو يحشر أنفه فيما لا طاقة لعقله المحدود في التعرف عليه، أو الإحاطة به.

لكن التفكير الرغبوي والمزاجي للتنويريين راح يخوض فيه كما خاض في غيره، ولا دليل له إلا الهوى المجرد.. ذلك أنه من الناحية العقلية يمكن لخالق هذا الكون أن يعذب من شاء، متى شاء، كيف شاء، وفي إطار قوانين العدالة التي يضعها، ولا يحجر عليه أحد في ملكه أو تدبيره أو تصريفه.

ومن الناحية الشرعية، والتي هي المخول الوحيد بالحديث في هذا الجانب، نرى النصوص الكثيرة التي تحذر من عذاب القبر، وتبين الرذائل التي يمكن أن تكون سببا في حصوله، بل تعلمنا من الأدعية والتضرعات ما يجعل منه قضية حاضرة في أذهاننا، لنربي أنفسنا من خلالها؛ فنقاوم نزغات الهوى بسياط الرهبة، كما ندفعها إلى العمل الصالح بجوائز الرغبة.

لكن التنويريين، وبسبب ما رأوه من بعض المشايخ والوعاظ من استعمال هذا النوع من القضايا العقدية في محله أو في غير محله، راحوا لا يكتفون بالإغارة عليهم أو نقدهم، وإنما الإغارة على النصوص المقدسة نفسها، ونقدها.

وهذا ما يدل على كون العقل التنويري عقلا مراهقا؛

فهو لا يفكك القضايا، ويميز بين المقبول والمرفوض، وبين الحقيقة والاستعمال الخاطئ لها، وإنما يغير على الجميع، وبطريقة استئصالية لا علاقة لها بالعلم، ولا بالحكمة، ولا بالتؤدة، وإنما هي تجسيم للهوى المجرد، والتفكير الرغبوي، والعقل المزاجي.

ومن الأمثلة على ذلك قول بعضهم: في مقال تحت عنوان [عذاب القبر أم عذاب الفقر][1] : (بالطبع لا يخفي على أحد المنتفعين من تجار الدين بالأزهر الذين يدافعون عن مصالحهم الشخصية باسم الدين والتدين ودفاعهم المستميت عن موضوع عذاب القبر، ندعو الله أن يقبرهم في جهنم إن شاء الله، حقيقة شيء مخزي أن تكرس حياتك للدفاع عن عالم أنت لا تعلم عنه شيئا، هو جزء من عالم الغيب، هو عالم الأموات، فلا أنت ولا أنا ولا أي شخص ولا أي علم في الماضي والحاضر استطاع أن يخترق هذا العالم عالم الموت ويعلم ما الذي يحدث لأي إنسان بعد الموت، ولكن المنتفعين من تجار الدين بالأزهر ركزوا جلّ اهتمامهم على الإنسان بعد موته فقط، أما نفس الإنسان وهو حي يرزق، وكيف سيعيش سعيدا أم حزينا مثل ملايين البؤساء الذين يعيشون في فقر وبؤس وسط هؤلاء المجرمين من تجار الدين)

وبعد كل هذه المصادرات على المطلوب، والخلط بين القضايا، وردة الفعل التي لا تدل على الحكمة والأناة، راح صاحب المقال يخطب قائلا: (أليس من العار أن تدافع عن الأموات وتترك الأحياء يزدادون بؤسا باسم تمثيلية عذاب القبر.. فيا أستاذ يا إنسان يا من تؤمن أن الله كرمّك.. اشعر بمن حولك من البشر اشعر بهم وهم أحياء يشتركون معك في المكان والزمان.. اشعر بهم وقف معهم وبجانبهم ضد الفاسدين لا تقف ضدهم من أجل مصلحتك الشخصية، فمزبلة التاريخ لا تجامل ولا ترتشي أعد

---

[1] عذاب القبر أم عذاب الفقر، رمضان عبد الرحمن في الخميس 16 اكتوبر 2014.

حساباتك، فعذاب الفـقـر أهم مليـار مـرة من عـذاب القبـــر، فلا يطلق الفقـر والفقـراء إلا على الأحيـاء والعقـل يقـول أن الذي لا يهتم ويشعر بمعانـاة النـاس وهم أمامـه أحيـاء، فمن المؤكـد أن مـا يقولـه مـدعيا خوفـه على نفس النـاس وهم أموات يعتبر محض كذب وافـتراء وضـحك على نفس النـاس حتى ينشغلوا عن حقوقهم الطبيعية وهم احياء)

ولست أدري ما علاقة عذاب القبر بكل ذلـك، وهـل في إمكان العالم أو رجـل الـدين أو الخطيب أن ينقـذ النـاس من الفقـر، وهـل هـذا دوره، أم دوره أن يـبين أحكـام الشـريعة، ويعظ الناس ويوجههم، أما تكليفه بإغنـائهم من الفقـر، فهـذا ليس من مسـؤوليته، والسـبب فيمـا ذكـره من السـرقات الكبرى ليس رجال الدين الذين يؤمنـون بعـذاب القـبر، ولكن رجال الدنيا الذين ينكرونـه، لأنهم لـو كـانوا يؤمنـون بـه، لمـا تجرأوا على سرقة دينار واحد.

ولهذا فإن هـذا التنـويري في حقيقتـه لا يعطي حلا لعلاج الفقر، وإنما يريد أن يضم للفقـر الـذي يعانيـه الفقـراء كفـرا وضـلالا وزندقـة، ليجمـع الفقـراء بين عـذاب الـدنيا وعـذاب الآخرة، أو ليضموا إلى معاناتهم المادية معاناة أخـرى نفسـية وروحية، أشد وأخطر.

ومثـل ذلـك كتب آخـر يقـول في مقـال بعنـوان [عـذاب القبر بين الحقيقة والخيـال][1]: (من المؤسـف جـدا أن تجـد في هذه الأيام وبعد نـزول القـرآن الكـريم على خـاتم النـبين منـذ أكـثر من 1200 سـنة عـددا كبـيرا من أبنـاء هـذه الأمـة الإسلامية ما زال يؤمن بمقولة عـذاب القـبر ضـاربا بمقولتـه هذه بكـل الآيـات القرآنيـة عـرض الحائـط، والـتي تنفي هـذا الادعاء نفيا قطعيـا لا مريـة فيـه، ويتمسـكون ببعض أحـاديث الآحاد، والتي يجمـع معظم علمـاء الأمـة بأنهـا أحـاديث ظنيـة الثبوت، وتاركهـا لا إثم عليـه ولا يجـوز اسـتنباط او اسـتخراج أسس الدين من هذه الأحاديث)

---

[1] () عذاب القبر بين الحقيقة والخيال، فتحى احمد ماضى، 04 سبتمبر 2016.

وهكذا راح هو وأمثاله ينتقـون من القـرآن الكـريم بعض الآيات التي تنص على العذاب الأكـبر في القيامـة، متجـاهلين آيات أخرى، تتحدث عن العذاب الذي قبلها، وبدل أن يحكموا جميـع الآيـات والنصـوص، راحـوا يسـتعملون بعضـها لضـرب بعض.

وبناء على هذا نحاول في هـذا المقـال، وباختصـار، ذكـر شبهاتهم، والرد عليهـا، وبيـان مخالفتهـا للنصـوص المقدسـة، ومخالفتها للعقل والحكمة، ومناقضتها للمقاصد الشرعية من ذكر هذه القضية واستعمالها وسيلة للتربية والإصلاح.

الشبهة الأولى ـ أن عذاب القبر أطروحة مستمدة من الديانات الأخرى:

يصر التنويريون في كـل قضـية اتفـق فيهـا الإسـلام مـع سائر الأديان على تكـذيبها، بحجـة أن المسـلمين أخـذوها من أهـل تلـك الأديـان، وليس من مصـادرهم المقدسـة، أو ربمـا يتصـــورون من حيث لا يشـــعرون أن المصـــادر المقدســـة للمسلمين استفادتها من أهل تلك الأديـان، ولم يـوح بهـا من الله تعالى.. وهم في هذا يطلبون من اللـه تعـالى بـأن يختـار للمسلمين عقائد ينفردون بها، ولا يزاحمهم فيها غيرهم.

ومن الأمثلـة على هـذه الشـبهة مـا كتبـه بعضـهم تحت عنوان [مصدر خُرافة عذاب القبر][1]، والذي أعـاد فيـه هـذه العقيدة لمصادر مختلفة عبر عنها بقولـه: (بمـا أن اليهـود هم أصل هذه العقيدة عند المسـلمين؛ فهـذا يعـني حـدوث واحـد من أمرين اثنين: إما أن اليهود ـ حينها ـ كانوا يؤمنون بالحياة في البرزخ،وأن البعث يكون مرتين الأولى في القبر، والثانيـة يوم القيامة، وبالتالي فهم يؤمنون بثلاثة أنـواع من الحيـوات، وهذه العقيدة هي نفسها عقيدة من يـؤمن بعـذاب القـبر من المسـلمين.. أو أن اليهـود لم يكونـوا يؤمنـون بـالبعث يـوم

[1] () مصدر خُرافـة عـذاب القـبر، سـامح عسـكر، الحـوار المتمـدن، 23 فـبراير 2013، ببعض التصرف مراعاة للاختصار.

القيامة أصلاً..ولكن يؤمنون بالبعث في القـبر، وأن الحسـاب الأخروي لديهم موجود بداخلـه، وهـذا يعـني أن عـذاب القـبر لديهم هو نفسه عذاب الآخرة)

ثم راح يرجح الاحتمال الثاني، ليبني عليه أن مصدر هذه العقيدة هم المصـريون القـدامى، فقـال: وأنـا أرجح الثانيـة.. لأن هذا الاعتقاد هو بعينه اعتقاد المصـريون القُـدماء، فنشـأة اليهـود بالأصـل كـانت مصـرية حـتى مـع الخلاف حـول هـذه النتيجة، ولكنها كانت رؤيـة دينيـة عامـة منتشـرة في الشـرق القــديم، فــالمعبود المصــري يُقابلــه المعبــود الفيــنيقي أو البـابلي..حـتى أن عقائـد اليونـان القـدماء لم تَخـلُ من هـذا الطرح..وعقيـدة الحسـاب والجـزاء لـديهم كـانت في القبـور وهــذا مــا حملهم على دفن متــاع الميت معــه.. ولأن كُتب وأســفار اليهــود الكُــبرى خلت من أي إشــارة للبعث يــوم القيامـة، وأن الإيمـان بيـوم القيامـة لـدى اليهـود لم يـأتِ إلا متأخراً وبالتحديد بعد كتابة التلمود بشِقيه.. ولأنه لا يوجد أحـد من اليهود الآن يقول بعذاب القبر.. بمعنى أنهم يعتقـدون في أن البعث يكون يوم القيامـة، وهـذا يُثـير التسـاؤل كيـف وأن هــذه العقيــدة كــان منشــأها لــدى اليهــود ثم يُنكرونهــا الآن..والإجابة جـاءت في الوجـه الثـاني بـأنهم كـانوا يقولـون بذلك قبل كتابة التلمـود، وبعـدما جـاء التلمـود بعقيـدة البعث يوم القيامة متأثراً فيه بالإنجيل...حينها آمن اليهود بـأن البعث واحد يوم القيامة وأن الحياة اثنين في الدنيا والآخرة)

ثم أخـذ يـبين كيـف تطـور هـذا المفهـوم المسـتورد من المصريين القدامي، فقال: (يكفينا الإشارة بأن فكـرة عـذاب القبر عند المسلمين كانت فكرة دينية أخـذت بُعـداً اجتماعيـا نتيجة لتطورها على أيـدي المتصـوفة..أيضـاً ومن أثـر عُمقهـا الضارب في أذهان القُدماء الشرقيين، وهي تعـني أن عـذاب القبر لديهم كـان هـو العـذاب الأخـير لأنهم كـانوا لا يعتقـدون بيــوم القيامــة الــذي يبعث اللــه فيــه العبــاد ويُحاســبهم على أعمالهم فمن كان صالحاً دخل الجنة ومن كـان طالحـاً دخـل النار، وأن الأسـاطير المصـرية والعراقيـة واليهوديـة القديمـة

كانت متشابهة في البعض ومتطابقة في البعض الآخر..وفي قضية عذاب القبر نكاد نرى تطابقاً عجيباً بين عقائد اليهود والفراعنة وبلاد العراق ـ خاصة السومريين والبابليين ـ قبيل ظهور التلمود وتأثر اليهود بالأناجيل التي أفصحت عن شكل الحياة بعد الموت وبأن هناك يوماً ستُرد فيه الحياة للأجساد وهو اليوم الأخير للعالم وبعدها يأتي الحساب)

ومثل ذلك كتب آخر في كتاب له بعنوان [أكذوبة عذاب القبر وأكاذيب شيوخ الثعبان الأقرع][1] يقول في مقدمة الكتاب: (فى الوقت الذى يستعد فيه العالم لارتياد القرن الحادى والعشرين بمزيد من التقدم فى العلوم تقدماً يقترب من الخيال، يحصر المسلمون اهتماماتهم حول قضايا ترجع إلى خرافات تنتمى إلى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد. من نوع عذاب القبر والثعبان الأقرع التى اخترعها أجدادنا المصريون القدماء ثم عادت إلينا منسوبة زوراً إلى النبى، ونحن مشغوفون بهذه الخرافة ونعتبرها من المعلوم من الدين بالضرورة من أنكرها يكون كافراً، وهكذا ينفصل المسلمون عن عصرهم بأكثر من أربع آلاف سنة مع أن الإسلام حين نزل فى القرن السابع الميلادى وقف موقفاً حازماً من الأساطير والخرافات ووضع منهجاً علمياً تجريبياً فى القرآن للبحث والاكتشاف.. لكن الأسلاف ركنوا إلى الخرافة وأهملوا ما جاء فى القرآن الكريم من منهج علمى تجريبى.. وعندما بدأت الصحوة فى العصر الحديث فوجئنا بخرافات العصور الوسطى التى يرفضها القرآن الكريم وقد عادت إلى الظهور والتأثير على عقول الشباب المتدينين ليزدادوا تخلفاً باسم الإسلام وهو دين العلم ودين التعقل والتبصر)

ثم قال بكل حماسة: (مرة أخرى.. ماذا يراد بنا ؟!.. هل يراد بنا أن نكون رقيق القرن الحادى والعشرين نعيش فى زوايا النسيان بينما يتقدم العالم من حولنا... هل يراد بديننا

---

[1] أكذوبة عذاب القبر وأكاذيب شيوخ الثعبان الأقرع، أحمد صبحي منصور.

الحـــنيف أن يكـــون عنوانـــاً للإرهـــاب والعجـــز والتخلـــف والخرافة؟!)

وهكذا راح يتصور أنه بمجرد تكذيبه لعـذاب القـبر يكـون قد خلص المسلمين من الخرافة، وأنه بذلك سيؤهلهم لارتيـاد القرن الواحد والعشـرين، وهـو لا يعلم أن قولـه هـذا سـيفتح البـاب على مصـراعيه لإنكـار عقائـد أخـرى من الـدين، قـد توصف بالخرافة، حتى ندخل القرن الواحد والعشرين ــ كمـا يزعم ـ ونحن مسلحون بسلاح العلم المجرد.

ونفس الشـيء نجـده يـردد في كتب ومقـالات تنويريـة كثيرة، تحاول أن تربط هـذه العقيـدة بعقائـد الأمم السـالفة، لتقـوم بنسـفها بعـد ذلـك، وكـأن القاعـدة الشـرعية هي أن الإسلام لا يقصد سوى مخالفة عقائد الأمم.

ولـو أن هـؤلاء اسـتمروا في تطـبيق هـذا المعيـار على أحكام الحج، لألغوها جميعا، فقد كان الحج أيضـا موجـودا في الديانات المختلفة، بل إن القرشيين المشركين كانوا يتفقـون مع المسلمين في كثير من أحكام الحج.

وهكذا نجد أكثر الأنبيـاء المـذكورين في القـرآن الكـريم هم أنفســهم المــذكورون في الكتــاب المقــدس، بــل نفس قصصهم موجودة، والاختلافات بين ما ورد في القرآن الكريم والكتاب المقدس محدودة؛ فهل نعتبر تلك القصص مسـتمدة من الكتاب المقدس، وأنها إرث من الـديانات الأخـرى تسـلل لكتاب المسلمين ودينهم.

وهكـذا الأمـر في مسـائل كثـيرة جـدا سـواء من بـاب العقائد أم الشرائع، والتي تدل في الأصل على وحدة الــدين، لا على كون المسلمين قد أخذوها من غيرهم.

ولـو أن هـؤلاء تواضـعوا قليلا، وحـاولوا أن يتخلصـوا من ذلك العقل الرغبوي والمزاجي، وعـادوا إلى نصـوص القـرآن الكريم نفسـها، ومثلهـا إلى السـنة المطهـرة الـتي هي بيـان للكتاب، وشرح له، لوجدوا الأدلـة الكثـيرة جـدا، والـتي تكفي

آحادها لكف المؤمن عن التجرأ على مخالفتها.

ولذلك، فإن مجرد اتفاق المسلمين مـع أهـل الكتـاب أو غيرهم من أهل الأديان على هذه العقيدة لا يعني إلغاءها، بـل إنه يعـني أن هـذه العقيـدة من العقائـد المقـررة في الأديـان الأخرى، والتي لا زالت تحتفظ بها.

الشبهة الثانية ـ تعارض عذاب القـبر مـع القرآن الكريم:

وهي الشبهة الأكبر التي ينطلق منهـا المكـذبون بعـذاب القبر، ولذلك يأتون ببعض الآيات الكريمة الــتي تنص على أن العذاب الحقيقي يكون بعد المساءلة والحساب يوم القيامــة، ليضربوا بها غيرها من الآيات الكريمة.

وهم يستعملون في هذا كل مـا لـديهم من أدوات القص والكتمـان والحـذف الـتي يسـتعملها عـادة العقـل الرغبـوي لتقرير ما يريد، ومن أمثلة ذلك اقتباس بعضهم لقوله تعـالى: {كَيْـفَ تَكْفُــرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًــا فَأَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [البقرة: 28]، مع حذفه لتتمـة الآيـة، والـتي تقـول: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: 28]، ثم تعقيبه على النص الـذي اقتبسـه بقولـه: (إذاً يقـول الحـق، هـو مـوت فى البدايـة، ثم الحيـاة الـدنيا الـتى نحياهـا الآن، ثم المـوت، ثم الحيـاة فى الآخرة.. موتتان وحياتان، أي : 2+2 = 4 .. إذَا اضفنا [حياة القبر] تصبح هذه المعادلـة خاطئـة لأننـا نضـيف حيـاة أخـرى لمشاهدة الفلم المرعب [منكر و نكـير و الثعبـان الأقـرع...]، ثم بعد ذلك موتـة أخـرى.. أي 3+3، وهـذا لا يسـاوى 4 كمـا قال الحق)

لكنه لو قرأ فقط تتمة الآية، وهي قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: 28] لرد على نفسه بنفسه، فاللــه تعـالى ذكر رجوعه إليـه، أي يـوم القيامـة بعـد الحيـاتين والموتـتين، وذلك ما يتطلب وجود حياة برزخية.

وهكذا نجدهم يقـرؤون قولـه تعـالى: { وَلَا تَحْسَـبَنَّ اللَّهَ

غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } [إبراهيم: 42]، وقوله: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل: 61]، وقوله: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا } [فاطر: 45]، ويتصورون أن العذاب سيؤخر إلى الآخرة، لأن الله تعالى لا يؤاخذ الظالمين قبل ذلك.

لكنهم لو قرأوا مع تلك الآيات آيات أخرى كثيرة جدا، تذكر تعجيل الله تعالى العقوبة لعباده في الدنيا قبل الآخرة، لفهموا تلك الآيات الكريمة فهما صحيحا؛ فهي لا تنفي العذاب المطلق، وإنما تنفي العذاب الأكبر الحقيقي، والذي لا يكون إلا في الآخرة، أما ما عداه؛ فهو هين جدا مقارنة بعذاب الآخرة، ولكن لا يعني أنه ليس عذابا، كما قال تعالى: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الطور: 47]، والتي فسرها ابن عباسٍ بقوله: (عذاب القبر قبل عذاب يوم القيامة)[1]

ومن الأمثلة التي ذكرها القرآن الكريم لذلك قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [النحل: 112،ـ 113]، فقد ذكر الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين، كيف أنه عجل العذاب لأهل هذه القرية، ولم يؤجله لهم، وهو لا يتنافى مع الآيات السابقة، وإنما يفهم منه أن العذاب نوعان: عذاب حقيقي كامل، وهو المؤجل إلى الآخرة، وبعد الحساب، وهناك عذاب ناقص وقاصر بالنسبة لعذاب الآخرة، وهو معجل في الدنيا أو في البرزخ.

---

[1] () تفسير الطبري جـ 22 صـ 487.

ومثل ذلك قوله تعالى عن ثمود: { فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء: 157، 158]

بل إن الله تعالى خصص سورة في القمر بأنواع العذاب التي أصابت أهل القرى، بسبب بغيهم وظلمهم، ثم يقول بعد ذكره لكل عذاب يصابون به: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: 16]

بل إنه يصف شدة العذاب الذي أصابهم؛ فيقول: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: 19 - 21]

وهكذا تدل هذه الآيات الكريمة على أن تأجيل العذاب لا يراد منه العذاب المطلق، وإنما يراد منه العذاب الحقيقي الذي لا يمكن أن يقارن به عذاب الدنيا، ولا عذاب البرزخ.

وهكذا نجد القرآن الكريم نفسه يخبرنا بأن العذاب المرتبط بالكافرين والمنحرفين لا يصيبهم في الآخرة فقط، بل يصيبهم في الدنيا أيضا، وفي حال الاحتضار خصوصا؛ فقد قال تعالى في أقسام المحتضرين، وكيف يعاينون العالم الذي سيفدون إليه: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} [الواقعة: 83 - 94]

وهكذا أخبرنا عن فزع الإنسان عند اكتشافه لحقيقة المصير الذي سيصير إليه مباشرة بعد موته؛ فقال: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا

فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون: 99، 100]

وذكر لنا بعض العذاب الذي يصيبهم في حال الاحتضار بمجرد توفر القابلية لهم للخروج لعالم البرزخ؛ فقال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الأنفال: 50، 51]، وقال: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [محمد: 27، 28]

وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: 93]

ولذلك، فإن القرآن الكريم لا يخبرنا فقط عن وجود عذاب القبر، أو عذاب البرزخ، وإنما يخبرنا أيضا، بأن العذاب يبدأ من لحظات الاحتضار نفسها.

وهو نفس ما قرره الحكماء والفلاسفة والروحانيين بناء على تصوراتهم للنفس الناطقة، وعلاقتها بالحقائق، وتأثيرها فيها، وهو ما يدل على أن عذاب القبر ليست قضية نصية فقط، بل يدل عليها العقل المجرد أيضا، ذلك أن القول بعدم البرزخ يعني العدم المطلق، وهو ما لم يرد عليه أي دليل، فالموت حالة من حالات الإنسان، وليس عدما، كما قال تعالى: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: 2]

وقد قال الغزالي مقررا هذه الحقيقة عند بيانه لمعنى سوء الخاتمة: (اعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى؛ فأما الرتبة العظيمة الهائلة فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك

وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.. والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها؛ فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره؛ فيتفق قبض روحه في تلك الحال؛ فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها، ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه، فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار: جز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح، وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك)[1]

ثم عقب على ذلك بقوله: (فإن قلت فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة، ويمهل طول هذه المدة؛ فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحت به الأخبار وهو أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم، كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة، وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر، والتعذيب بعده، ثم المناقشة في الحساب، والافتضاح على ملأ من الأشهاد في القيامة، إلى آخر ما

---

[1] إحياء علوم الدين (4/ 173)

وردت به الأخبار فلا يـزال الشـقي مـترددا في جميـع أحوالـه بين أصـناف العـذاب وهـو في جملـة الأحـوال معـذب إلا أن يتغمده الله برحمته)[1]

وهكذا نجد الآيات القرآنية الكثيرة تخبر بأن العذاب يبـدأ مباشرة بعد الموت، وذلك باستعمال الفاء التي تفيد الـترتيب والتعقيب، ومن أمثلــة ذلــك قولــه تعــالى عن آل فرعــون: {كَــدَأْبِ آلِ فِرْعَــوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَــرُوا بِآيَــاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ} [الأنفـال: 52]

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى عن قوم نوح عليـه السـلام: { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِـدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } [نوح: 25]؛ فقد أخبر الله تعـالى أن قـوم نـوح عليه السلام، عذبوا عذابين: عذابا في الدنيا بغـرقهم، وعـذابا في البرزخ بإدخالهم النار، وذلك باسـتعمال الفـاء الـتي تفيـد الترتيب والتعقيب.

ولم يكتف القرآن الكريم بهذه الشواهد الواضحة، والتي لا تتعارض مع كون العذاب الحقيقي هو عذاب الآخرة، لأن ما دونه لا يساوي شيئا بجانبـه، وإنمـا ذكـر هـذا العـذاب بصـيغة صريحة لا يمكن لأحد أن يجادل فيها، فقال عن قوم فرعـون: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُـدُوًّا وَعَشِـيًّا وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر: 45، 46]

فقد أخبر أنهم وفي الوقت الحالي يعرضون على الناس غدوا وعشيا، وذلك ما يعني حياتهم في البرزخ على عكس ما يصور المنكرون لعذاب القبر، وهي أيضا تؤكـد مـا ذكرنـا من أن العذاب الشديد يكـون في الآخـرة، لا في الـبرزخ، وبـذلك يجمع بين الآيات الـتي تخـبر عن تأجيـل العـذاب إلى الآخـرة، وبين سائر الآيات.

---

[1] إحياء علوم الدين (4/ 174)

ولم يملك صبحي منصور بعد إيراده لهذه الآيات الكريمة إلا أن يسلم بها، لكنه راح يحتال عليها بكـون عـذاب الـبرزخ مرتبطا فقط بآل فرعون، ولسنا ندري ما وجه التخصيص، مع أن القرآن الكـريم يعتمـد الأمثـال والنمـاذج ليقـرر الحقـائق، والعاقـل هـو الـذي يفهم الحقـائق بإطلاقهـا، لا ذلـك الـذي يقصرها على شواهدها.

وهكذا نرى القـرآن الكـريم يـرد على تلـك الشـبه الـتي يتعلـق بهـا التنويريـون، والـذين يـوردون بعض الآيـات الـتي تتحدث عن كون أهل البرزخ يذكرون بعد بعثهم بـأنهم كـانوا في مرقـد كقولـه تعـالى:{وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَـإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَـالُوا يَاوَيْلَنَـا مَنْ بَعَثَنَـا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الـرَّحْمَنُ وَصَـدَقَ الْمُرْسَـلُونَ} [يس: 51، 52] بآيات كثيرة تقرر وجود حياة حقيقية عند البرزخ.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى عن الشـهداء: {وَلَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَيَسْتَبْشِـرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ } [آل عمران: 169،ـ 170]، فهاتان الآيتان الكريمتـان تقـرران بدقة ووضوح حياة الشهداء في البرزخ.

وهي لا تتنـافى أبـدا مـع الآيـات السـابقة، والـتي تـذكر مقولـة الخلائـق بعـد البعث، ذلـك أن المـراد منهـا هـو كـون الأجساد في مرقد، وكونها كذلك لا يعني عدم نعيمها، أو عدم عذابها.

بل إن النصوص تدل على أن كل حياة متدنية تعتبر موتا ونوما بالنسـبة لمـا قبلهـا، كمـا وردت الإشـارة إلى ذلـك في الأثر: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[1]

وقد أقر صبحي منصور في كتابه الذي حاول أن يسـتدل

---

[1] () البيهقي في الزهد الكبير (515) من قول سهل التستري، ورواه أبو الفضل الزهري في حديثه (710) من قول بشر بن الحارث.

فيه على عدم عذاب القبر بحياة الشهداء في البرزخ، لكنه جعله خاصا بهم، كما خصص العذاب بقوم فرعون ونوح، وهذا كله تصرف بالهوى المجرد مع النصوص المقدسة التي من شأنها أن تذكر الحقائق، لا أن تؤرخ لجهة من الجهات.

وقد قال في ذلك: (الذى يفقد حياته قتلاً مضحياً بها فى سبيل الله تعالى يهبه الله حياة أبدية وقت البرزخ وفى الآخرة يعيش فى نعيم دائم.. وفى المقابل فهناك من عاش حياته الدنيا بأكملها يحارب الله تعالى ويضطهد النبى المرسل إليه حتى يفقد حياته فى سبيل الشيطان، وذلك ما ينطبق على آل فرعون وقوم نوح فقط، ونقول فقط مع كثرة المكذبين الذين حاربوا الله ورسله، لأن القرآن ذكرهم فى هذا الخصوص بالتحديد، وذكر أيضاً أن المجرمين حين تقوم الساعة يقسمون ما لبثوا غير ساعة، إذن القاعدة العامة أن المجرمين يستيقظون عند البعث وقد مرت عليهم فترة البرزخ بدون إحساس أو شعور أو عذاب.. والاستثناء هو حالة آل فرعون وقوم نوح)

ولسنا ندري دليله على هذا الاستثناء، ولم لا يضع فيه أيضا تلك النصوص النبوية التي تجعل ذنوبا أخرى كالنميمة وعدم التنزه من البول وغيرها من موجبات عذاب القبر.

ولهذا فإن التنويريين أنفسهم يقرون بأن قوله تعالى: {قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: 52]، لا يفهم فهما حرفيا، بل يفهم على ضوء سائر القرآن الكريم، من كون المرقد دلالة على القبر أو على الحياة المتدنية، لا على كون مرحلة البرزخ تساوي صفرا زمنيا، كما يزعم بعضهم.

وقد حاول صبحي منصور أن يستعمل كل الوسائل للفرار مما تقتضيه الآيات الكريمة الواردة في آل فرعون، فراح يجادل في مصطلح [عذاب القبر]، فقال: (إن عذاب فرعون ليس فى القبر، ولكنه عذاب فى البرزخ لأن الخصوصية التالية لفرعون أن الله أنجى جسده وقال له عند

الموت ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ (يـونس 92). ولو كان هناك عذاب قبر كما يقول أشياع الثعبان لظـل جسد فرعون فى القبر ينهشه الثعبان)

ونحن وكـل من يـؤمن بعـذاب القـبر يقـره على هـذا؛ فمصطلح [عذاب القبر] ليس المراد بـه القـبر فقـط، فحـتى الذي لا يقبر قد يعذب، وقد ينعم.. ولكن جرى الاصطلاح على هذا، مع أن القـبر ليس فقـط محلا للعـذاب، وإنمـا هـو أيضـا محل للنعيم، لكن جرى الاصـطلاح على تسـميته بالعـذب، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وهكذا لـو قرأنـا القـرآن الكـريم، وتـدبرناه لوجـدنا فيـه الآيات الكثيرة التي تصرح بعالم الـبرزخ بمـا فيـه من نعيم أو عـذاب، بـل تصـرح ببعض تفاصـيله، كالمسـاءلة في عـالم البرزخ، والتي نص عليها قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا بِـالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الْآخِـرَةِ وَيُضِـلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: 27].

وقد ورد في الحديث ما يفسرها، فقد قـال رسـول اللـه ﷺ فيها: (نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيِّي محمدٌ ﷺ، فذلك قوله عـز وجـل: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا بِـالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الْآخِـرَةِ} [إبراهيم: 27])[1]

الشـبهة الثالثـة ــ عـذاب القـبر والسـنة المطهرة:

يقف التنويريون موقفين من الأحاديث النبوية المطهرة، والتي تنص صراحة على حيـاة الـبرزخ، بمـا فيهـا من نعيم أو عذاب.

أما أحدهما، وهو يمثل من يسـمون أنفسـهم [قرآنـيين]، فهو لا يهتم بتلك الأحاديث، ولا يراعيها، لأنه لا يعتبرها مصـدرا

[1] () رواه البخاري حديث: 1369/ مسلم حديث: 2871.

مقدسا؛ فهو يـرى أن القـرآن الكـريم وحـده يمكن أن يهديـه للحقائق، ولا خطاب لنا مع هذا الصنف عند هذه الشبهة، لأنــا خاطبناه في الشبهة السـابقة، وبينـا أن القـرآن الكـريم ينص صراحة على عذاب القبر، حتى أن شيخ القرآنـيين المحـدثين لم يملك إلا أن يقر بذلك، لكنـه خصـه بقـوم فرعـون، وقـوم نوح عليه السلام، وهو نوع من الهروب من الحقيقة القرآنيــة التي دلت عليها كل الأدلة.

أما الثاني، وهو الذي يقر بالسـنة، ولكنـه يتعامـل تعـاملا مزاجيا معها، ذلك أنه يضع حدودا للسنة المقبولة تتناقض كل حين، بحيث لا يستطيع هو نفسه أن يضع ضابطا يطبقــه على الجميـع.. فـإن أراد بالسـنة المتـواترة تـواترا لفظيـا فقـط، فسيلغي الكثير من العقائد والشرائع الـتي يقـر بهـا، ذلـك أن مثـل هـذا التـواتر لا يكـاد يوجـد.. وإن أراد بالسـنة مـا تـواتر معنويا، فعذاب القبر مما تـواتر معنويـا خاصـة إن قبلنـا بتلـك النصوص والروايات الكثيرة التي تعتمدها المدرسة الشيعية، والـتي نص جميـع أئمتهـا ابتـداء من الإمـام علي نفسـه على عذاب القبر، ولـه فيهـا مواعـظ لا تـزال تـردد في المجـالس الشـيعية.. وإن أراد عـدم مخالفـة القـرآن، فأحـاديث الـبرزخ تفسـر القــرآن، ولا تتنــاقض معــه.. وإن أراد عــدم موافقــة العقـل، فلسـت أدري أي عقـل يقصـد، ذلـك أن كبـار العقلاء والفلاسفة يقرون بحياة الـبرزخ وأنـواع النعيم والعـذاب فيهـا كما سنرى.

انطلاقا من هذا، سنورد هنا بعض الأحـاديث الـواردة في المصادر الحديثية المختلفة، بل في أوثـق المصـادر، والـتي لا يستطيع أي محترم للسنة النبوية المطهرة، أن يردهـا هكـذا، خاصة مع كثرتها، ودلالتها الواضحة.

فمن تلك الأحاديث ما روي أن النبي ﷺ كان يتعوذ قائلا: (اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، ومن عـذاب النـار، وأعـوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بــك من فتنة الغنى، وأعوذ بـك من فتنـة الفقـر، وأعـوذ بـك من فتنـة

المسيح الدجال)(1)

ومنها حديث مروره ﷺ على قبرين فقال: (إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبيرٍ، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة) (2)

ومنها ذلك الحديث الذي توهم البعض أنه يدل على أن هذه العقيدة مأخوذة عن اليهود، وهو أن يهوديةً دخلت على عائشة؛ فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذكِ الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: (نعم، عذاب القبر حق)(3)، فلا إشكال فيه، ذلك أن العبرة بالحديث، وليس بمورده، فكون عائشة لم تعلم ذلك إلا في ذلك الحين، لا علاقة له بالحديث، وقد يكون حصل ذلك في أول الهجرة، حين كان لليهود وجود في المدينة.

أما قول عائشة: (فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّى صلاةً إلا تعوذ من عذاب القبر)، فلا يدل ـ كما يتوهم ــ على أنه لم يكن يقول ذلك قبل ذلك، فهي أخبرت عن رؤيتها، ولم تخبر عن كل الأحوال، وهذا متفق عليه عند الأصوليين، بل حتى في الواقع؛ فعدم الثبوت لا يعني عدم الإثبات.

ومنها قوله ﷺ: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة (صباحًا) والعشي (مساءً)، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: (هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)(4)).

---

(1) البخاري حديث: 6376.

(2) البخاري حديث 218 / مسلم حديث 292.

(3) البخاري حديث: 1372.

(4) البخاري حديث 1379/ مسلم حديث 2866.

ومنها قوله ﷺ: (إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليتعوذ بالله من أربعٍ: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال)[1]

ومنها قوله ﷺ يوم الأحزاب: (ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا، كما حبسونا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)[2]

ومنها قوله ﷺ: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا ألا تدافنوا، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)[3]

وتخصيص رسول الله ﷺ هذه الأمة بالابتلاء في قبورها لا يعني عدم ابتلاء سائر الأمم، وإنما قد يعني أن هناك من لا يبتلى كأهل الفترة ونحوهم، بدليل ما ذكر في القرآن الكريم عن قوم نوح وآل فرعون.

ومنها قوله ﷺ: (العبد إذا وضع في قبره، وتولى وذهب أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم (صوتها عند المشي)، أتاه ملكان، فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمدٍ ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعًا، وأما الكافر ـ أو المنافق ـ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلا الثَّقَلين)[4]

---

(1) مسلم حديث: 588.

(2) مسلم حديث: 627.

(3) مسلم حديث: 2867.

(4) البخاري حديث: 1338/ مسلم حديث: 2870.

ومنها ما روي أن رسول الله ﷺ خرج بعدما غربت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: (يهودُ تُعذَّب في قبورها)[1]

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي لا يستطيع المسلم المسلّم للنبوة أن ينكرها جميعا، بل قد يكتفي بمناقشة بعضها بسبب بعض رواتها، أو قد يناقش في كون بعضها روي بالمعنى، أما أن يرميها جميعا، خاصة مع عدم مخالفتها للقرآن الكريم، ولا للعقل، فهو محض هوى.

وقد رويت هذه الأحاديث عن جمع كثير من الصحابة، لا كما يذكر التنويريون بأنها لم ترو إلا عن خمسة منهم، فقد قال عبدالغني المقدسي: (الإيمان بعذاب القبر حق واجب، وفرض لازم، رواه عن النبي ﷺ: علي بن أبي طالب، وأبو أيوب، وزيد بن ثابت، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وأبو بَكْرة، وأبو رافع، وعثمان بن أبي العاص، وعبدالله بن عباس، وجابر بن عبدالله، وعائشة زوج النبي ﷺ، وأختها أسماء، وغيرهم)[2]

وقال حافظ حكمي: (نصوص السنة في إثبات عذاب القبر قد بلغت في ذلك مبلغ التواتر؛ إذ رواها أئمة السنة وحَمَلة الحديث ونقَّاده عن الجم الغفير والجمع الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم: أنس بن مالكٍ، وعبدالله بن عباسٍ، والبراء بن عازبٍ، وعمر بن الخطاب، وابنه عبدالله، وعائشة أم المؤمنين، وأسماء بنت أبي بكرٍ، وأبو أيوب الأنصاري، وأم خالدٍ، وأبو هريرة، وأبو سعيدٍ الخدري، وسمرة بن جندبٍ، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابتٍ، وجابر بن عبدالله، وسعد بن أبي وقاصٍ، وزيد بن أرقم، وأبو بكرة، وعبدالرحمن بن سمرة، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وأبوه عمرو، وأم مبشرٍ، وأبو قتادة، وعبدالله بن مسعودٍ، وأبو طلحة، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وعبدالرحمن بن حسنة، وتميم الداري،

1() البخاري حديث: 1375/ مسلم حديث: 2869.

2() الاقتصاد في الاعتقاد ـ لعبدالغني المقدسي ص 174: 172.

وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، والنعمان بن بشيرٍ، وعوف بن مالكٍ)[1]

ولهذا حكى الكثير من العلماء تواتر هذه الروايات في المدرسة السنية وحدها، فقد قال الشوكاني، وهو من هو في علم الحديث: (تواترت بعذاب القبر الأحاديث الصحيحة، ودلت عليه الآيات القرآنية)[2]

ومما يقوي ذلك التواتر الأحاديث والروايات الكثيرة في المدرسة الشيعية، وهو ما يعطي المسألة قوة كبيرة تفوق التواتر، لأنه حينها يصبح إجماعا للأمة، لا مجرد إجماع للطائفة، والإجماع أكبر من التواتر، لأن التواتر قد يحصل في مدرسة واحدة، ويعبر عن وجهة نظرها فقط، بخلاف الإجماع الذي يدل على اجتماع الجميع.

ونحب أن ننبه الذي لا يعرف منهج الشيعة في التحديث إلى أن الروايات عندهم، وإن ظهرت بصيغة الوقف أو الانقطاع إلا أن لها حكم الرفع عندهم، لما روي عن الإمام الصادق، قال: (حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله ﷺ قول الله عز وجل)[3]

وأهل السنة يفعلون ذلك أيضا حين يحكمون على روايات الصحابة التي لا مجال فيها للاجتهاد بأن لها حكم المرفوع، كما قال محمد الأمين الشنقيطي: (فإن كان مما لا مجال للرأي فيه فهو في حكم المرفوع، كما تقرر في علم

---

[1] معارج القبول لحافظ حكمي جـ 2 صـ 117.

[2] فتح القدير للشوكاني ج 1 ص 184.

[3] الكليني في الكافي ج 1 ص 66.

الحديث، فيقدَّمُ على القياس، ويُخَصُّ به النص، إن لم يُعْرَف الصحابي بالأخذ من الإسرائيليات)[1]

بناء على هذا، فمن روايات الشيعة في هذا ما رووه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يأتي على الميت ساعة أشدّ من أول ليلة، فارحموا موتاكم بالصدقة، فإن لم تجدوا فليصلِّ أحدكم ركعتين، يقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب مرّة وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد مرتين، وفي الثانية بفاتحة الكتاب مرّة وألهاكم التكاثر عشر مرات ويسلم، ويقول: اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأبعث ثوابهما إلى قبر ذلك الميت فلان ابن فلان، فيبعث الله من ساعته ألف ملك إلى قبره، مع كلّ ملك ثوب وحلّة، ويوسع في قبره من الضيق إلى يوم ينفخ في الصور)[2]

ورووا عنه ﷺ أنه قال: (من صام اثني عشر يوماً من شعبان زاره في قبره كلّ يوم سبعون ألف ملك إلى النفخ في الصور)[3]

ورووا عن الإمام علي في رسالته لمحمّد بن أبي بكر، وقوله له: (يا عباد الله، ما بعد الموت لمن لا يُغفر له أشدّ من الموت، القبر فاحذروا ضيقه وضنكه وظلمته وغربته)[4]

ورووا عنه أنّه قال: (وبادروا الموت في غمراته، وامهدوا له قبل حلوله، وأعدّوا له قبل نزوله، فإنّ الغاية القيامة، وكفى بذلك واعظاً لمن عقل، ومعتبراً لمن جهل، وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس، وشدّة

1() مذكرة أصول الفقه (ص 256)

2() بحار الأنوار، ج6، ص244.

3() وسائلالشيعة، ج10، ص498..

4() بحار الأنوار، ج6، ص218..

الإبلاس، وهول المطّلع، وردعات الفزع، واختلاف الأضلاع، واستكاك الأسماع، وظلمة اللحد، وضيقة الوعد، وضمّ الضريح، وردم الصفيح)[1]

وروي في الدعاء عن الإمام زين العابدين: (اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، واجعلني وجميع إخواني بك مؤمنين، وعلى الإسلام ثابتين، ولفرائضك مؤدّين، وعند معاينة الموت مستبشرين، وفي وحشة القبر فرحين، وبلقاء منكر ونكير مسرورين، وعند مساءلتهم بالصّواب مجيبين)[2]

وعنه قال: (.. فإذا دخلها (أي حفرة القبر) عبدٌ مؤمنٌ، قال: مرحباً وأهلاً، أما والله لقد كنت أحبّك وأنت تمشي على ظهري، فكيف إذا دخلت بطني فسترى ذلك، فيفسح له مدى البصر، ويفتح له باب يرى مقعده من الجنة، ويخرج من ذلك رجلٌ لم تر عيناه شيئاً قطّ أحسن منه، فيقول: يا عبد الله، ما رأيت شيئاً قط أحسن منك! فيقول: أنا رأيك الحسن الذي كنت عليه، وعملك الصالح الذي كنت تعمله)[3]

ورووا عن الإمام الصادق، قال: (وإذا حُمل الميت إلى قبره فلا يفاجأ به القبر؛ لأن للقبر أهوالاً عظيمة، ويتعوّذ حامله بالله من هول المطّلع، ويضعه قرب شفير القبر، ويصبر عليه هنيهةً، ثم يقدِّمه قليلاً ويصبر عليه هنيهة؛ ليأخذ أهبّته، ثم يقدّمه إلى شفير القبر)[4]

ورووا عنه أنه قال: (إنّ لكلّ شيء قلباً، وإنّ قلب القرآن يس، من قرأها قبل أن ينام أو في نهاره قبل أن

1() بحار الأنوار، ج60، ص244..

2() الصحيفة السجادية، دعاؤه رقم 206، بحار الأنوار، ج91، ص123.

3() الكافي، ج3، ص130.

4() من لا يحضره الفقيه، ج1، ص170..

يُمسي، كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتَّى يُمسي، ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكّل الله به مئة ألف ملك يحفظونه من كلّ شيطان رجيم ومن كلّ آفة، وإن مات في يومه أدخله الله الجنّة)[1]

وعنه قال: (أيّما مؤمن عاد مؤمناً في الله عزّ وجلّ في مرضه، وكّل الله به ملكاً من العوّاد يعوده في قبره، ويستغفر له إلى يوم القيامة)[2]

وسأله أبو بصير: أيفلت من ضغطة القبر أحد؟ فقال: (نعوذ بالله منها، ما أقلّ من يفلت من ضغظة القبر)[3]

هذه مجرد نماذج، وإلا فالأحاديث الواردة عنهم في ذلك كثيرة جدا، وهي تفوق التواتر بكثير، ولهذا صارت الإيمان بحياة البرزخ من العقائد المقررة الأساسية في كتب الشيعة كما هي في كتب السنة، كما عبر عن ذلك الإمام الصادق بقوله: (من أنكر ثلاثة أشياء، فليس من شيعتنا: المعراج، والمُساءلة في القبر، والشفاعة)[4]

وهكذا نجد علماء المدرسة السنية يقررون هذا في باب العقائد، من دون خلاف، ومن أقول العلماء في ذلك، قول حنبل: (قلت لأبي عبدالله أحمد بن حنبل في عذاب القبر، فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها، كلما جاء عن النبي ﷺ إسناد جيد أقررنا به، إذا لم نقر بما جاء به الرسول ودفعناه ورددناه، رددنا على الله أمره؛ قال الله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7]،

(1) وسائل الشيعة، ج6، ص247..

(2) الكافي، ج3، ص120..

(3) الكافي، ج3، ص236..

(4) أمالي الصدوق : ٣٧٠ / ٤٦٤.

قلت: وعذاب القبر حق؟ قال: حق يعذبون في القبور)[1]

وقال أبو جعفر الطحاوي: (نؤمن بعذاب القبر لمن كان له أهلًا، وسؤال منكرٍ ونكيرٍ في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم، والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران)[2]

وقال ابن حزم تعليقا على قوله تعالى في آل فرعون: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر: 45ـ 46] : (فهذا العرض هو عذاب القبر، وإنما قيل: عذاب القبر، فأضيف إلى القبر؛ لأن المعهود في أكثر الموتى أنهم يقبرون، وقد علمنا أن فيهم أكيل السبع، والغريق تأكله دواب البحر، والمحرق، والمصلوب، والمعلق، فلو كان على ما يقدر من يظن أنه لا عذاب إلا في القبر المعهود لما كان هؤلاء فتنة ولا عذاب قبر ولا مسألة، ونعوذ بالله من هذا، بل كل ميت فلا بد من فتنة وسؤال، وبعد ذلك سرور أو نكد إلى يوم القيامة، فيوفون حينئذٍ أجورهم، وينقلبون إلى الجنة أو النار)[3]

وقال النووي: (مذهب أهل السنة: إثبات عذاب القبر، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة؛ وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من رواية جماعةٍ من الصحابة في مواطن كثيرة، ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزءٍ من الجسد ويعذبه، وإذا لم يمنعه

1() الروح لابن القيم ص 77.

2() شرح الطحاوية ج 2 ص 157.

3() الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج 4 ص 56.

العقل وورد الشرع به، وجب قبوله واعتقاده)[1]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي نجدها في كتب العقائد في المدارس الإسلامية المختلفة، وهي كافية للعاقل حتى لا يتجرأ على مخالفة جميع الأمة، بسبب رأي رآه أو سمعه من غيره، من غير تحقيق ولا تثبت.

الشبهة الرابعة ـ تعارض عذاب القبر مع العقل:

وهي الشبهة الأساسية التي ينطلق منها التنويريون من أجل إلغاء هذه القضية العقدية، أو التهوين من شأنها، ولأجل ذلك يحاولون استخدام القرآن الكريم كسند لعقولهم، لعلمهم أن العقل وحده لا يكفي للتدخل في الأمور الغيبية.

ومن خلال استقراء مقولاتهم المرتبطة بالاستدلال العقلي على إنكار عذاب القبر يمكن أن نجد ثلاث شبهات:

أولها ـ خلطهم بين التعقل والتصور؛ وتوهمهم أن ما لا يدركونه بحواسهم ليس له وجود واقعي، وهذا غير صحيح، لأن عذاب القبر مثله مثل سائر عالم الغيب، لا علاقة للحواس به، فلذلك يكون التعامل معه بالتعقل، لا بالتصور.

ومن هذا الباب توهمهم أن المراد من عذاب القبر ونعيمه، ارتباطه بالقبر الحقيقي المعروف، وهذا غير صحيح، وإنما هذه التسمية جاءت من باب الغالب، لا من باب الحقيقة المطلقة، والتسمية الصحيحة لذلك، بحسب ما يذكر القرآن الكريم هي البرزخ، وهي المرحلة الفاصلة بين الحياتين الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون: 100]

ولهذا نرى العلماء ينبهون كل حين إلى أن المراد بالقبر هي حياة البرزخ، لا القبر في حد ذاته، كما قال النووي:

---

[1] () مسلم بشرح النووي ج 9 ص 223.

(لا يمنـع من سـؤال الملكين وعـذاب القـبر كـون الميت قـد تفرقت أجزاؤه، كمـا نشـاهد في العـادة، أو أكلتـه السـباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك، فكما أن الله تعـالى يعيـده للحشـر، وهو سبحانه وتعالى قـادر على ذلـك، فكـذا يعيـد الحيـاة إلى جزءٍ منـه أو أجـزاءٍ وإن أكلتـه السـباع والحيتـان، فـإن قيـل: فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره، فكيف يسأل ويقعـد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهـر لـه أثـر؟! فـالجواب أن ذلك غير ممتنعٍ، بل له نظير في العادة، وهو النائم، فإنه يجـد لذةً وآلامًا لا نحس نحن شيئًا منهـا، وكـذا يجـد اليقظـان لـذةً وآلمًا لما يسمعه أو يفكر فيـه ولا يشـاهد ذلـك جليسـه منـه، وكذا كان جبرائيل يأتي النبي ﷺ فيخـبره بـالوحي الكـريم ولا يدركــه الحاضــرون، وكــل هــذا ظــاهر جلي، وأمــا ضــربه بالمطارق فلا يمتنع أن يوسع له في قبره فيقعد ويضرب)[1]

والمؤمن الذي يؤمن بالغيب، وبقـدرة اللـه المطلقـة، لا يتساءل عن الكيفية؛ فذلك لله تعالى، وعقولنـا أقصـر من أن تعرف حقيقة عالم الغيب، بل هي أقصر من أن تعـرف عـالم الشـهادة، ولكن مـع ذلـك حـاول العلمـاء أن يبسـطوا هـذا المعـنى، ويقربـوه خاصـة لأولئـك الـذين يـذكرون أنهم يـرون الموتى بصورة عادية، ولا يرون أي آثار للعذاب عليهم.

وقــد حــاول الغــزالي أن يقــرب للعقــول الكثيفــة هــذا المعنى، فذكر تعقيبا على تلك النصوص المقدسة الـتي تـذكر الحيات والعقارب وأنواع العذاب درجات الإيمان بهذا؛ فقـال: (فأمثـال هـذه الأخبـار لهـا ظـواهر صـحيحة، وأسـرار خفيّـة، ولكنهـا عنـد أربـاب البصـائر واضـحة، فمن لم تنكشـف لـه حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها. بل أقل درجـات الإيمـان التصديق والتسليم، فإن قلت: فنحن نشاهد الكافر في قــبره مدة ونراقبه، ولا نشاهد شـيئا من ذلـك، فمـا وجـه التصـديق على خلاف المشاهدة؟)[2]

---

[1] () مسلم بشرح النووي جـ 9 صـ 224.

ثم راح يجيب على هـذا السـؤال، بـأن للمـؤمن ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا:

أولها، وهو أكملها وأظهرها وأصحها وأسلمها وأكثرها أدبا مع الله، وهي التصديق موجودة فعلا، كما ورد في النصوص المقدسة، وهي تلدغ الميت، ولكننا لانشاهدها، لأن (هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت. أما ترى الصحابة رضي اللّه عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل، وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده؟)

ثم خاطب الغزالي من يشكك في هذا، بقوله: (فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك. وإن كنت آمنت به، وجوّزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة، فكيف لا تجوّز هذا في الميت؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا، بل هي جنس آخر، وتدرك بحاسة أخرى)

ثانيها، وهو للتقريب، وليس للحقيقة المطلقة، وقد عبر عنه الغزالي بقوله: (أن تتذكر أمر النائم، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه، وهو يتألم بذلك، حتى تراه يصبح في نومه، ويعرق جبينه، وقد ينزعج من مكانه. كل ذلك يدركه من نفسه، ويتأذى به كما يتأذى اليقظان، وهو يشاهده، وأنت ترى ظاهره ساكنا، ولا ترى حواليه حية، والحية موجودة في حقه، والعذاب حاصل، ولكنه في حقك غير مشاهد. وإذا كان العذاب في ألم اللدغ، فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد) [1]

وطبعا؛ فإن المراد الغزالي من هذا هو التقريب، لا الحقيقة المطلقة، لأنها غيب، والذي خلق النوم، وأودع فيه

2() إحياء علوم الدين، ج6 ـ الجزء16، ص: 6.

1() إحياء علوم الدين، ج6 ـ الجزء16، ص: 6.

تلك القدرات، يمكن أن يخلق غيره، ولا عجب في ذلك عند صاحب القدرة المطلقة.

ثالثها، وهو أدنى المراتب، وقد عبر عنه الغزالي بقوله: (.. أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم، بل الذي يلقاك منها وهو السم، ثم السم ليس هو الألم، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم؛ فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة.. و تكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب: والسبب يراد لثمرته لا لذاته)[1]

ثم ختم هذه المراتب ـ كعادته ـ بنصيحة غالية قال فيها: (والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك، ولا تشتغل بمعرفته، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان، فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين، أو بسيف، أو بموسى، وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه، وهذا غاية الجهل، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم، أو نعيم مقيم، فينبغي أن يكون الاستعداد له. فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان)[2]

وقد ذكر ابن أبي العز الحنفي ما أشار إليه الغزالي من التسليم لأمور الغيب من دون بحث فيها، ولا في كيفيتها، لتجاوزها حدود العقول؛ فقال: (قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا يتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا

[1] () إحياء علوم الدين، ج6 ـ الجزء16، ص: 7.

[2] () إحياء علوم الدين، ج6 ـ الجزء16، ص: 8.

عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عَوْدَ الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا، وسؤال الملكين في القبر يكون للروح والبدن جميعًا، وكذلك عذاب القبر يكون للروح والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم الروح وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به)[1]

ثانيها: توهمهم أن عذاب القبر يتنافى مع رحمة الله، وهذا غير صحيح؛ بل إن النصوص تدل على أن ما يظهر للإنسان في قبره هو عمله المتجسد له؛ فلذلك لا يلقى الإنسان في قبره إلا ما قدمه من عمل صالح، أو عمل سيء، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[2]

وتجسد الأعمال[3] مما دلت عليه النصوص الكثيرة، كقوله تعالى: { يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } [الزلزلة: 6 ـ 8]، وقوله: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران: 30]

ومثل ذلك قوله ﷺ مخاطبا بعض أصحابه: (لا بُدَّ لك من قرين يُدفن معك وهو حيٌ، وتدفن معه وأنت ميتٌ، فإن كان

---

[1] () شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي جـ 2 صـ 163.

[2] () مسلم، 2577..

[3] () تجسم الأعمال يعني: أنّ كل عمل يقوم به الإنسان سواء كان حسناً أو سيئاً، له صورتان، الأولى دنيوية، والثانية أخروية، وتكمن هاتان الصورتان في جوف وداخل العمل، وفي يوم الحشر وبعد التحولات والتطورات التي تحصل فيها، فإنّ العمل يترك صورته الدنيوية ويتجلّى ويتمثّل، ويظهر في صورته الأخروية الواقعية، وبها ينعم الإنسان ويتلذذ، أو يخسر ويتأذى.[السبحاني، مفاهيم القرآن، ج8، ص330.].

كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك، ولا تبعث إلا معه، ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإنه إن أصلح آنست به، وإن فسد لا تستوحش إلا منه، وهو فعلك)[1]

وبذلك، فإن العذاب في القبر وغيره لا يتعارض مع رحمة الله، لأن الله تعالى جعل أسبابا للنعيم، وأسبابا للعذاب، فمن فعل السبب، لابد أن يتحمل النتيجة، مثل الذي يضع يده على التيار الكهربائي، فإن سنة الله فيه أن يصعق، وكذلك المعاصي، فإن لها آثارها الذاتية التي لا يمكن تفاديها.

وقد أشار الغزالي إلى هذا المعني، وفسر به الروايات الواردة في ذلك، فقال تعليقا على الأحاديث التي تذكر الحيات والعقارب في القبر: (ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحيّات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر، والرياء، والحسد، والغل، والحقد، وسائر الصفات، فإن لها أصولا معدودة، ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام. و تلك الصفات بأعيانها هي المهلكات، وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين، والضعيف يلدغ لدغ العقرب، وما بينهما يؤذى إيذاء الحية. وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها، إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة)[2]

ثم بين وجه ارتباط عذاب الميت بعد موته بهذا؛ فقال: (وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيّات من غير وجود حيّات. وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق، فإنه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما

[1] الصدوق، الأمالي، النص 3، المجلس الأول.

[2] إحياء علوم الدين، ج6 ـ الجزء16، ص: 6.

يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال) [3]

ثم راح يطبق هذا المثـال، باعتبـاره الحقيقـة، لا مجـرد مثال؛ فقال: (بل هذا بعينه هو أحد أنواع عـذاب الميت، فإنـه قد سلط العشق في الدنيا على نفسـه، فصـار يعشـق مالـه، وعقاره، وجاهه، وولـده، وأقاربـه، ومعارفـه، ولـو أخـذ جميـع ذلك في حياته من لا يرجو، استرجاعه منه فما ذا ترى يكـون حاله؟ ليس يعظم شقاؤه، ويشتد عذابه، ويتمنى ويقـول ليتـه لم يكن لي مال قط، ولا جـاه قـط، فكنت لا أتـأذى بفراقـه؟ فالموت عبـارة عن مفارقـة المحبوبـات الدنيويـة كلهـا دفعـه واحدة.. فما حـال من لا يفـرح إلا بالـدنيا، فتؤخـذ منـه الـدنيا وتسلّم إلى أعدائه، ثم ينضاف إلى هذا العـذاب تحسّـره على ما فاته من نعيم الآخرة، والحجـاب عن اللّـه عـز وجـل، فـإن حب غير اللّه يحجبه عن لقاء اللّه والتنعم بـه، فيتـوالى عليـه ألم فـراق جميـع محبوباتـه، وحسـرته على مـا فاتـه من نعيم الآخرة أبد الآباد، وذل الرد والحجاب عن اللّه تعالى، وذلك هو العذاب الذي يعذّب به، إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم)

وبخلاف ذلك حال المؤمن، فهو ــ كمـا يصـفه الغـزالي ـ (من لم يـأنس بالـدنيا، ولم يحب إلا اللّـه، وكـان مشـتاقا إلى لقاء اللّه، فقد تخلص من سـجن الـدنيا ومقاسـات الشـهوات فيها، وقدم على محبوبه، وانقطعت عنه العوائق والصـوارف، وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد، ولمثل ذلك فليعمل العاملون)

ونحب أن نشير هنـا إلى مـا ذكرنـاه بتفصـيل في كتـاب [أسرار الأقدار]، من أن هذا العذاب الذي يعـذب بـه المـؤمن في قبره نتيجة بعض معاصيه هو في الحقيقة رحمة بـه، لأنـه يربيه، ويطهـره، حـتى يـأتي يـوم القيامـة سـالما طـاهرا من ذنوبه، لأن عذاب الآخرة {أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه: 127]

ثالثها: تصورهم أن المصـلحة الشـرعية تقتضـي تغليب

---

[3] إحياء علوم الدين، ج6 ـ الجزء16، ص: 6.

الرجاء على الخوف، وأنه لا يصح أن يذكر للناس عذاب القبر ونحوه، لأن ذلـك قـد يـؤذيهم، ويخيفهم، ويقنطهم من رحمـة الله.

ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ذكـره عـدنان إبـراهيم في شريط متداول له تحدث فيه عن أمان المـؤمن يـوم القيامـة استنادا إلى قولـه تعـالى: {الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ} [الأنعــام: 82]، حيث فسّر الظلم بالشرك، واعتباره قاصـرا عليـه، مـع أن القـرآن الكريم اعتبر كل معصية ظلما.

ثم راح يستهزئ بالذين يخوّفون النـاس من عـذاب يـوم القيامـة، ومن عـذاب القـبر، ويملئـون الـدنيا بتلـك الرسـائل والأشرطة عن فزع يوم القيامة وأهوال القـبر، ولسـت أدري ما المانع من ذلك إن كـان الغـرض منـه الـدعوة إلى التقـوى والصلاح.

فالقرآن الكـريم نفسـه مـارس هـذا، فقـد قـال تعـالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَـارًا وَقُودُهَـا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَـا أَمَـرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم: 6]

وهو نفسه الذي أخبر عن حال المؤمنين، بـل المقـربين منهم، وخشيتهم للـه؛ فقـال: {نَّ الْأَبْـرَارَ يَشْـرَبُونَ مِنْ كَـأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْـرَبُ بِهَـا عِبَـادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَـا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْـكِينًا وَيَتِيمًـا وَأَسِـيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُـكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: 5 - 10] }

ثم عقب على ذلك بقوله: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَـوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا } [الإنسان: 11]

وهكذا عنـدما ذكـر عبـاد الـرحمن، قـال عنهم: { وَعِبَـادُ الـــرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـــونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًـــا وَإِذَا خَـــاطَبَهُمُ

الْجَـاهِلُونَ قَـالُوا سَـلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُـونَ لِـرَبِّهِمْ سُـجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْـرِفْ عَنَّا عَـذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَـذَابَهَا كَـانَ غَرَامًـا (65) إِنَّهَـا سَـاءَتْ مُسْـتَقَرًّا وَمُقَامًـا} [الفرقان: 63 - 66]

وهكـذا نـرى القـرآن الكـريم يتوعـد المؤمـنين بالعـذاب الشديد على المعاصي المختلفة، ولم يذكر أبدا أنهم ما داموا مؤمنين، فهم معفون من ذلك.

ومن أمثلــة ذلــك تلــك التهديــدات الإلهيــة الخطــيرة المرتبطة بآكل الربا، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (278) فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة: 278، 279]، فهل يضمن عدنان إبراهيم لآكلي الربـا ألا يعـذبوا في الآخـرة بسبب عدم كونهم من المشركين؟

وهكذا توعـد اللـه تعـالى آكلي مـال اليـتيم؛ فقـال: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًـا إِنَّمَـا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: 10]، فهـل يضـمن هـؤلاء ألا يعذب آكل مال اليتيم؟

وهكذا؛ فإن من علامات المؤمنين تذكر الأهـوال وأنــواع العـذاب، حـتى تـردع النفس الأمـارة وتـؤدب، ولهـذا ورد في النصوص المقدسة بيان الأعمال التي يعـذب بهـا صـاحبها في القبر، حتى تكون تحذيرا له، وليس من الأدب مع الله تعـالى، ولا مع رسوله ﷺ، والذي استعمل هذه الوسـيلة التربويـة في أن نقوم نحن بالتهوين منها وتحقيرها.

وقد أحصى ابن القيم الكثير من المعاصي الـتي ورد في شأنها الوعيـد بعـذاب القـبر، فـذكر منهـا (النمـام، والكـذاب، والمغتـاب، وشـاهد الـزور، وقـاذف المحصـن، والـداعي إلى البدعة، والقائل على الله تعالى ورسوله ﷺ ما لا علم له بــه، وآكل الربا، وآكل أموال اليتامى، وآكل السحت من الرشــوة، وآكل مال أخيه المسلم بغير حـق أو مـال المعاهـد، وشـارب

الخمر، والزاني، واللوطي، والسارق، والخائن، والغادر، والمخادع، والماكر، وآخذ الربا، ومعطيه، وكاتبه، وشاهداه، والمحتال على إسقاط فرائض الله تعالى، وارتكاب محارمه، ومؤذي المسلمين، ومتتبع عوراتهم، والحاكم بغير ما أنزل الله، والمفتي بغير ما شرعه الله، والمعين على الإثم والعدوان، وقاتل النفس التي حرم الله، والمُعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها، والمقدم رأيه على سنة رسول ﷺ، والنائحة، والمستمع إليها، والمغنون الغناء الذي حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ، والمستمع إليهم، والمطففون في الكيل والميزان، والجبارون، والمتكبرون، والمراؤون، والهمازون، واللمازون، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرَّافين فيسألونهم ويصدقونهم، وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، والذي إذا خوفته بالله تعالى وذكَّرته به لم ينزجر، فإذا خوفته بمخلوق مثله خاف وكفَّ عما هو فيه، والذي يجاهر بالمعصية ويفتخر بها بين الناس، والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك، والفاحش اللسان البذيء الذي تركه الناس اتقاء شره، والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها، ولا يذكر الله فيها إلا قليلًا، ولا يؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولا يحج مع قدرته على الحج، ولا يؤدي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها، والذي لا يبالي بما حصل من المال، من حلال أو حرام، ولا يصل رحمه، ولا يرحم المسكين، ولا الأرملة، ولا اليتيم، ولا الحيوان البهيم، بل يزجر اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ويرائي الناس بعمله؛ ليكسب مدحهم له، ويمنع الماعون، ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه، وبذنوبهم عن ذنبه ـ فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم، بحسب كثرتها وقلتها، وصغيرها وكبيرها)[1]

وبذلك يصبح عذاب القبر وسيلة تربوية، تقمع النفس الأمارة بالسوء، وتعيدها إلى جادة الصواب، مثلها مثل ما ذكر في عذاب الآخرة، وقد روي عن روي عن الإمام علي قال

---

[1] () الروح لابن القيم صـ 103: 101.

في بعض خطبـه: (.. واللـه لقـد رأيت عقيلاً وقـد أملـق حتّى استماحني من برّكم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور غـبر الألوان من فقرهم كأنّما سودّت وجـوهم بـالعظلم، وعـاودني مؤكّداً وكرر عليّ مردداً فأصغيت إليه سمعي فظنّ أنّي أبيعه ديـني وأتبـع قيـاده مفارقـاً طـريقي، فـأحميت لـه حديـدة ثمّ أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضجّ ضجيج ذي دنف من ألمهـا، وكاد أن يحـترق من ميسـمها، فقلت لـه : ثكلتـك الثواكـل يـا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نـار سـجّرها جبّارهـا لغضـبه، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى، وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونـة شـنئتها كأنّمـا عجنت بريـق حيّـة أو قيئهـا، فقلت : أصـلة أم صدقة أم زكاة فذلك محرّم علينا أهل البيت؟ فقال : لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية، فقلت : هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني أم متخبط أم ذو جنّـة أم تهجـر؟! واللـه لـو أعطيت الأقـاليم السـبعة بمـا تحت أفلاكهـا على أن أعصـي اللـه في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإنّ دنياكم عنـدي لأهـون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنى ولـذّة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين) [1]

وهكذا كان لذكر العذاب، وتذكره دوره الـتربوي الكبـير، وقد سئل بعض الصالحين: كيف نصنع نجالس أقواما يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير؛ فقـال: (واللـه إنـك إن تخالـط أقوامـا يخوفونك حتى يـدركك أمن، خـير لـك من أن تصـحب أقوامـا يؤمنونك حتى يدركك الخوف)[2]

وهو نفس ما عبر عنه قولـه تعـالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مَـا آتَــوْا وَقُلُــوبُهُمْ وَجِلَــةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُــونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَـا سَـابِقُونَ} [المؤمنـون: 60،

1() خطب نهج البلاغة ٢ / ٢١٧.

2() إحياء علوم الدين (4/ 162)

61]، فقد اعتبر مسارعتهم للخيرات، ومسابقتهم لهـا بسـبب ذلك الوجـل الـذي يحـرك قلـوبهم، ويمنعهم من الركـون إلى أهوائهم.

نتيجـة لغلبـة الدنيويـة والماديـة على الفكـر التنـويري، والـذي يلح دائمـا على اعتبـار الحيـاة الـدنيا هي المحـور والمركز، وهي البداية والنهاية، فإنه يحتقر الكثـير من عـوالم الغيب، إما بتجاهلها، وعدم الاهتمام بها، أو بنقد أولئـك الـذين يعيشون فيها، ويتصورون أن الإيمان لا يكمل إلا بالإيمان بهـا، بل باختلاط المشاعر بها إلى أن تصبح جزءا أساسيا من حياة المؤمن لاينفك عنها لحظة.

أو كما ذكر ذلك الصحابي الجليل الـذي عـبر عن إيمانـه بقوله: (عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهـاري، وأسـهرت ليلي، وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهـل الجنـة في الجنـة يتنعمون فيها، وكـأني بأهـل النـار في النـار يعـذبون)، والـذي أثنى عليه رسول الله ﷺ بعد قوله هذا بقوله: (أصبت فالزم.. مؤمن نور الله قلبه)[1]

فهذا الحديث مرفـوض جملـة وتفصـيلا عنـد التنـويريين؛ فهم لا يؤمنـون بالزهـد، ولا بتلـك الرياضـات الروحيـة الـتي يمارسـها المـؤمن لـيرتقي بروحـه إلى الملأ الأعلى.. وهم لا يتطلعون إلى عرش الرحمن بقدر تطلعهم إلى التعـرف على المجـرات والنجـوم والثقـوب السـوداء.. والجنـة لا تشـكل عنـدهم شـيئا، لأن الجنـة عنـدهم هي تلـك الأبـراج العاليـة، والحدائق المزينة الموجودة في أمريكا وأوروبـا.. فتلـك البلاد هي منتهى هممهم.. أما جهنم فهي ليسـت سـوى البلاد الـتي يعيشون فيها، والتي يودون لو أحرقوها عن آخرها.

وهذا الكلام ليس تحاملا عليهم.. بـل هـو الحقيقـة الـتي تنطق بها كلماتهم، وتنطق بها قبل ذلك ملامح وجوههم عندما يسمعون المـؤمن يتحـدث عن عـوالم الغيب، ويعطيهـا قيمـة كبيرة في حياته.. لأنهم يريدون منه أن يعيش عـالم الشـهادة

---

[1] رواه البزار.

لا عـالم الغيب، وكـأن عـالم الغيب يحـول بينـه وبين عـالم الشهادة، وكأن الله تعالى لم يثن على المؤمنين الذين تركـوا لأجسادهم أن تعيش في عالم الشهادة بينمـا تحلـق أرواحهم في عوالم الغيب الجميلة، كما قال تعالى في أوائـل أوصـاف المؤمنين في سورة البقرة: {ذَلِكَ الْكِتَـابُ لَا رَيْبَ فِيـهِ هُـدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة: 2، 3]

فالإيمان بـالغيب هـو الأسـاس الـذي تنطلـق منـه حيـاة المؤمن، بل هو المعيار الذي يفرق بين الإنسان الكامل الـذي يعرف حقائق الوجود، ويطبق مستلزماتها، وبين ذلك الإنسان القاصـر النـاقص الكـل الـذي لا يعـرف من الحيـاة إلا جانبهـا الهزيــل البســيط، ولــذلك تكــون همتــه بحســب المعــارف البسيطة التي يعيشها، ويتصور أنها البداية والنهاية.

ومن مسائل الغيب التي نجـد للتنـويريين احتقـارا كبـيرا لها، بل حياء عظيمـا منهـا [الجنـة] الـتي هي سـلوة المـؤمن وعزاءه، كما أنها المحرك لهمته عندما تضعف نفسه، وتتخـدر إرادته، حينها يتذكر ما هيأه الله للصابرين من عظيم الجــزاء؛ فترتد إليه قوته وإرادته، ويصبح كالجبل الأشم الذي لا تحركـه أعاصير الأهواء.

وهي فوق ذلك سلوة المريض الــذي يعلم أن الجنــة دار الصحة الأبديـة، وسـلوة الفقـير الـذي يعلم أن الجنـة هي دار الغنى الأبدي، وسلوة المحرومين، والذين أرقتهم الحياة الدنيا لأنهم يعلمون أن الجنة هي دار الراحة الأبدية..

ولذلك لم تكن الجنة دار ضيافة إلهية في الآخـرة فقـط، بل هي أيضا ترياق وبلسم يـداوي كـل الجـروح، ويملأ النفس بالطمأنينة والانشراح وكل أنـواع السـعادة.. فيعيش المـؤمن مصحوبا بذكريات المستقبل الجميل الذي ينتظره عند الله.

لكن كــل هــذه المعــاني الــتي ســاهمت في الطمأنينــة النفســية للمؤمـــنين وفي رقيهم الأخلاقي على الـــرغم من الظروف الصعبة التي يعيشونها، لم يلاحظها التنويريـون، بـل

توهموا أنها حجاب دون العمل على الحصول على ذلك الرفاه الذي ينعم فيه الغرب، والذي لا يساوي في نظر المؤمن قطرة من بحار نعيم الجنة.

لقد تصور التنويريون ـ بسبب نظرتهم الدنيوية العوراء القاصرة ـ أن الجنة مثلها مثل كل عوالم الغيب هي سبب تخلفنا عن الغرب، وعن كوكب اليابان، وعن الكواكب الكثيرة التي يتصورون أنها الحقيقة الوحيدة المطلقة.

ومن أمثلة ذلك الجحود والاحتقار للجنة، بل السخرية منها تلك الأشرطة المنتشرة بكثرة، والتي يتحدث فيها أحد زعماء التنوير في العصر الحديث [أحمد القبانجي]، ذلك الذي يرتدي كذبا وزورا عمامة علماء الشيعة، مع كونه لا ينتسب لا للشيعة، ولا للسنة، بل هو معول لحرب كليهما، بل حرب الإسلام نفسه.

وقد أوهم ذلك بعض المغفلين بأن موقفه من الجنة وعالم الآخرة هو نفس موقف علماء الشيعة، دون أن يكلف نفسه بالبحث في التراث الشيعي، ليعرف حقيقة موقفهم من هذا.. ولكن الأحقاد تعمي وتصم.

وقد نشر القبانجي بعض أفكاره في هذه المجال في مقال[1] حاول فيه أن يبين عدم ضرورة الجنة، وأنها لا تشكل أي دافع للعمل الصاح، بل إنه لا حاجة إليها أصلا.

ولست أدري من الذي فوضه بأن يقول هذا الكلام، وهو الذي يسيل لعابه لمتاع الدنيا القليل.. لكن العقل التنويري المستكبر الذي حرم من ذلك الإيمان الذي ينعم به البسطاء والطيبون يتصور أن بيده كل شيء، ولذلك يتحكم في كل شيء، ابتداء من تحكمه في وظائف الإله نفسها.

وقد عبر عن ذلك الاحتقار للجنة بقوله: (أما الجنة،

---

[1] () انظر: الجنة والنار، أحمد القبانجي، الحوار المتمدن-العدد: 4363 ـ 2014 / 2 / 12 - 12:19.

فليس فيها سوى إشباع للغرائز الحيوانية من أكل وشرب ونكاح، وليس فيها أي إشباع للغرائز الانسانية كالإبداع والإيثار والكرم والشجاعة ونصرة المظلوم وتعليم العلم وحب الرئاسة ووو..)

ولست أدري كيف عرف ذلك، وهل زار الجنة حتى يحكم عليها، وهل أحاط بالنصوص المقدسة التي تتحدث عن الجنة، وكونها دار الضيافة الإلهية التي تتحقق فيها كل الرغبات المشروعة، ويتحقق معها كل أنواع السمو الروحي والأخلاقي، حيث يعيش أهل الجنة الحضارة الراقية والذوق الرفيع والأدب الجم، حيث لا لغو هناك ولا تأثيم.

لكنه ـ بسبب العشى الذي أحاط ببصيرته ــ لم يعرف الجنة إلا من خلال ذلك الوعظ البارد الذي يستعمله بعض عوام الوعاظ والدعاة بعيدا عن الحقائق التي وردت في النصوص المقدسة، ولذلك توهم أن الجنة مجرد دار للمتع الجسدية وحدها.

ثم راح ــ مثل سائر التنويريين ــ يتحدث عن ذلك الكوكب الذي يسمونه كوكب اليابان؛ فيقول: (أما عمليا، فنحن نرى اليابان مثلا وهم لا يعتقدون بالجنة والنار(الديانة السائدة هناك التاوية والبوذية) أحسن من المسلمين أخلاقا وأقل كذبا وسرقة وغشا في تعاملهم وخدماتهم للبشرية معروفة، وفي المقابل نجد المسلمين مع اعتقادهم بالجنة والنار وكثرة منابر الوعظ والارشاد والكتب الدينية وخطب الجمعة أصبحوا أسوأ المجتمعات البشرية أخلاقا)

وهذا التحليل يدل على سطحية العقل التنويري، فهو لا ينظر إلى المشكلة من زاويتها الحقيقية، وإنما ينظر إليها من الزاوية التي يرغب فيها؛ فالمشكلة في المسلمين ليس كونهم يعتقدون بعالم الغيب، ولا بالجنة والنار، وإنما المشكلة في ضعف إيمانهم بذلك.. وإلا لو كان الإيمان بالغيب والجنة والنار قائما، لكان المسلمون قمة في الرقي الأخلاقي والحضاري.

فهم في الحقيقة مثل ذلك المريض الذي يملـك الـدواء، ولكن لا يستعمله؛ فيتوهم من يراه بأن الدواء لم ينفعـه، ولم يجد مع مرضه، من غير أن يبحث في كون المريض اسـتعمل الدواء أو لم يستعمله، وهل استعمله بالطريقة الصـحيحة، أم استعمله بطريقة خاطئة.

ونفس الشيء يتوجه للقابنجي وللتنويريين جميعا الـذين جعلوا من حديث الإرهابيين عن الجنة سببا لإلغائها واحتقارها، كما عـبر القـابنجي عن ذلـك بقولـه: (أصـبح الاعتقـاد بالجنـة وحور العين سببا للإرهاب الآن.. أي سببا للرذيلة والجريمة لا لمنعها، فلـولا الجنـة وحـور العين لمـا قـام التكفـيريون بقتـل انفسهم وقتل الأبرياء)

وهذا يشبه أولئك الذين يحرمون الأدوية النافعـة بسـبب أن بعض الشواذ استعملها بطريقة خاطئة، فقتل نفسـه بهـا.. أو يشـبه أولئـك الـذين يمنعـون من بنـاء الجسـور حـتى لا تستعمل وسيلة للانتحار.

ولم يكتف القبانجي بكل ذلك، بل راح إلى ذلـك الرهـان الذي يستعمله المؤمنون بالغيب في حواراتهم مـع الجاحـدين والملاحدة، والذي عبر عنه أبو العلاء المعري بقوله:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأجساد قلت:

إن صح قولكما فلست ... أو صح قولي فالخسار عليكما

أو ما عبر عنه بعضهم، بقوله: (قال الملحد للمـؤمن: مـا موقفك اذا مت ولم تجد الجنة! فرد المؤمن: لن يكون اسـوأ من موقفك اذا مت ووجدت النار!)

أو ما عبر عنه مصطفى محمود في حـواره مـع صـديقه الملحد، والذي ذكر أنه قال له ساخرا: (ماذا يكون الحـال لـو اخطأت حساباتك، وانتهيت بعد عمر طويل إلى موت وتـراب ليس بعـده شـيء؟)، فأجابـه مصـطفى محمـود بقولـه: (لن أكون قد خسرت شيئا.. ولكنكم أنتم سـوف تخسـرون كثـيرا لو أصابت حساباتي وصدقت توقعاتي.. وإنها لصادقة.. سوف

تكون مفاجئة هائلة يا صاحبي)[1]

أو ما عبر عنه ـ قبل ذلك كله ـ الإمام الصادق مع بعض الملاحدة، حيث قال مخاطبا له: (إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون، يعني المؤمنين، فقد سلموا وعطبتم وإن يكن الأمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم وهم)، فقيل له: وأي شيء نقول وأي شيء يقولون ما قولي وقولهم إلا واحد؟ فقال: (وكيف يكون قولك وقولهم واحدا، وهم يقولون إن لهم معادا وثوابا وعقابا ويدينون بأن في السماء إلها وأنها عمران، وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد...)[2]

لكن القبانجي راح يرد على هذا السلاح القوي، بمقال له بعنوان [القمار مع الله!][3]، قال فيه ساخرا: (في الدنيا نحن غير متساويين أيضا، فالمتدين يتعب نفسه بالتكاليف الشاقة كالصلاة والصوم والحج والزيارات والخمس وغيرها ويترك الملذات كالغناء والرقص والملاهي والصداقة مع الجنس الآخر، بل الزواج مع أتباع الديانات الأخرى مع وجود حب بين الاثنين، بل قد يطلب منه الدين الجهاد أو تفجير نفسه أو الكراهية لأتباع المذاهب الأخرى، وليس على الوجدانيين شيء من ذلك)

وهذا كله كذب وبهتان، فكل تلك الشعائر التي يقوم بها المؤمن ليس لها علاقة بالتعب، لأن المؤمن يمارسها براحة نفسية كبيرة، بل إنه يشعر بتأثيرها في ترقية أخلاقه، وسمو روحه، وشعوره بالطمأنينة والسعادة، فوق ما لها من دور في حفظ من أهواء نفسه الأمارة بالسوء.

---

1) حوار مع صديقي الملحد.

2 () الكافي، ج1 ص74..

3() انظر: القمار مع الله، أحمد القبانجي، الحوار المتمدن-العدد: 4083 - 2013 / 5 / 5 - 11:47..

فـالمؤمن ــ نتيجــة إيمانــه بـاليوم الآخـر ــ لن يقـع في الفواحش التي تدمر صحته وصحة المجتمع، ولن يــدمن على المخدرات ولا على أي شيء يضره.. وفوق ذلـك كلـه يمتلـك دوافـع أخلاقيـة عاليـة بخلاف ذلـك الـذي لا يـؤمن باللـه، ولا باليوم الآخر، فهـو لا يملـك شـيئا يسـليه، كمـا لا يملـك شـيئا يدفعه لأي عمل صالح.

ولم يكتف القبانجي بـذلك الـتزوير للحقـائق، وإنمـا راح يفرض على الله ـ خلاف ما ورد في كتابه ـ من يدخلـه الجنـة أو من يدخله النار، فيقول: (ما دام الانسـان يسـير في حياتـه الدنيا بوحي وجدانه ويتحلى بالفضائل ويترك الرذائل فهو من أهل الجنة لأن القرآن يقـول: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ} [الشـعراء: 89] أي ســليم من الحقــد والحســد والانانيــة والتكالب على الدنيا وأمثال ذلـك. ومعلـوم ان التـدين لا يهتم لنقاء القلب بقدر اهتمامه بالقشور والطقوس فتكون النتيجة أن خسر الدنيا والآخرة ونكون قد ربحنا الدنيا والآخرة)

وهذه كلها مغالطات، فسـلامة القلب لا تقتصـر على مـا ذكره، بـل أول سـلامة للقلب هي عـدم الاعـتراض على اللـه والتسليم له والإذعان لشريعته والقيم الـتي جـاءت بهـا.. أمـا ادعاؤه أن التدين يهتم بالقشور، فهو ناتج عن نظرته السـلبية للدين مثله مثل سائر التنويريين، وإلا فـإن الـدين هـو مجمـع الفضائل، بل لا يمكن أن تتحقق الفضائل من دونه.. ذلك أنــه يستحيل أن يجد البشر معايير للأخلاق، أو دوافع تحــرك إليهــا من دون الدين.

ويختم القبـانجي حديثـه عن ذلـك الـذي توهمـه قمـارا بقوله: (إن هذه الفرضية كلهـا بمثابـة لعب القمـار مـع اللـه، لأنها تنزل بمستوى العلاقة مع الله الى الحضيض وتجعــل من هذه العلاقة تجارة او قمارا، فالمتدين يصلي ويصـوم.. بـدافع احتمـال وجـود جنـة ونـار لا بـدافع الايمـان باللـه والحب لـه والشكر لنعمائه، اي لو لم يكن هذا الاحتمال موجودا لا صـلى ولا صام ولا ترك الرذائل. أما الوجداني فهو يعمـل بالفضـائل

ويترك الرذائل لذاتها ويرتبط مع الله بدافع الحب له لا بـدافع الخوف من النار والطمع في الجنة لأنه لا يؤمن بهما أساسا)

ولست أدري من الذي أخبره أن الطمع في جنة الله، يتنافى مع حب المؤمن له.. فالمؤمن يحب الله لذاته، ويحبه لصفاته، ويحبه لكرمه وجوده، والذي تجلى في الدنيا فيما وفر لخلقه من أصناف الرعاية.. وفيما سيوفر لهم في المستقبل من أضعافها.

وهل يمكن لعاقل أن يدعي أننا إذ أحببنا كريما لكونه تكرم علينا بأصناف العطاء، ووعدنا بأضعافها أننا لا نحبه إلا لأجل ما يعطينا.. هذا كذب وبهتان عظيم لأن محبة المحسن ذاتية حتى لو لم يحصل إحسانه إلى المحب..

بالإضافة إلى أن القبانجي والتنويريين معه يتصورون الجنة بحسب عقولهم البسيطة، وإلا فإن الله تعالى الذي اعتبر كل ما نراه في الدنيا من أصناف الجمال مجرد متاع قليل، واعتبر الحياة التي نعيشها حياة دنيا لا تساوي شيئا، في نفس الوقت اعتبر الحياة الأخرى هي الحياة الحقيقية يجعلنا نقف أمامها مبهوتين منبهرين لا ندري منها شيئا، أو كما قال ابن عباس: (ليس في الجنة شيءٌ يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء)[1]

ولذلك فإن كل أحاديث التنويريين عن الجنة وعالم الغيب أحاديث منطلقة من معلومات خاطئة، لأنهم تصوروا أنهم قد أحاطوا بتلك العوالم بينما هم لم يعرفوا منها شيئا، بل لم يذوقوا من شرابها اللذيذ قطرة واحدة، ولذلك استقذروا الشراب، ولو ذاقوه لفنوا عن أنفسهم، وباعوا كل ما لديهم من جاه ومال وسلطان بلحظة واحدة يعيشها المؤمن في صحبة عالم الغيب.

---

[1] رواه أبو نُعَيْم في صفة الجنة (21 / 2)

من الأدلة الكبرى على تناقض العقل التنويري، وكونه يتعامل بمزاجية ورغبوية مع الحقائق المختلفة موقفه من نظرية التطور، وربطها بالمصادر المقدسة، وخصوصا القرآن الكريم؛ فهو متناقض في ذلك غاية التناقض.

فبينما نراهم يشنعون على الذين يربطون بين الحقائق العلمية والقرآن الكريم، ويعتبرونهم دجالين ومخرفين ومعقدين، نجدهم يفعلون ما ينهون عنه مع هذه المسألة خصوصا، مع كونها لم تثبت علميا، بل ثبت عكسها، ولم تثبت قرآنيا، بل ثبت عكسها أيضا.. ولكنهم، ولمزاجية تفكيرهم يقطعون بكلا الأمرين خلافا لكل علماء الطبيعة، ولكل علماء اللغة والتفسير.

ولا ينطبق هذا على نظرية التطور فقط، بل ينطبق على نظريات أخرى لم تثبت علميا، بل يستحيل إثباتها علميا، ومع ذلك نراهم يجتهدون في ربطها بمصادر الدين في نفس الوقت الذي يشنعون على من يربطون الحقائق القرآنية القطعية بالحقائق العلمية الثابتة.

ومن أمثلة ذلك محاولة عدنان إبراهيم للربط بين نظرية الأوتار الفائقة والمصادر المقدسة، مع أن هذه النظرية لم تثبت علميا[1]، بل يستحيل إثباتها علميا، لأن القصد منها ليس علميا، وإنما الفرار من الخالق، والبحث عن نماذج فيزيائية ترفض وجوده، أو تحاول أن تبرر وجود الكون بعيدا عنه، وقد قال عنها الفيزيائي الشهير [راسل ستانارد]: (إنها نظرية تحتاج لمصادم هيدروني بحجم مجرة لاختبارها وهذا غير ممكن.. حسنا لو قلنا ـ طبقا للنظرية ــ إن الكون خلق نفسه، فمن أوجد النظرية؟ ومن أوجد القوانين الفيزيائية

---

(1) ذكرنا الأدلة العلمية الكثيرة على بطلان هذه النظرية من كلام الفيزيائيين أنفسهم في كتاب [الكون بين التوحيد والإلحاد] من سلسلة [الإلحاد والدجل]

الخاصة بها؟.. ورغم ذلك فلا توجد لها معادلة فيزيائية حتى الآن.. أطلب منهم أن يكتبوا معادلة فيزيائية.. لن يفعلوا لانهم ببساطة لايمتلكونها)

وهكذا موقفه من نظرية الأكوان المتعددة، مع كونها لم تثبت علميا، بل يستحيل إثباتها علميا، ومع ذلك راح يجتهد كغيره في ربطها بمصادر الدين المقدسة، وذلك لتمريرها رغم أنفها للعقل المسلم.

فالأكوان المتعددة التي يحاول ملاحدة الفيزيائيين الإشهار لها تختلف تماما عن تعدد السموات أو خلق الله الواسع، لأن الأكوان المتعددة ليست سوى احتمالات كثيرة للخلق ممتلئة بالعبث بينما الخلق المتعدد كله متناسق وليس فيه أدنى عبث، ولا يخضع لمبادئ الاحتمالات.

وقد ذكر بعضهم الدوافع النفسية لتلك النماذج، فقال: (اعتقد علماء الكون أنّ عليهم الالتفاف وراء المشكلة.. لقد حاولوا على مرّ السنوات الماضية إثبات عدة نماذج مختلفة للكون تتفادى الحاجة إلى بداية، مع الاستمرار في اشتراط انفجار عظيم.. يبدو الآن من المؤكّد أنّ الكون كانت له بداية)

وهكذا راحوا يفعلون مع نظرية التطور التي لم تثبت علميا، ولن تثبت علميا، بل إن العلم الآن يسير في مواجهتها والرد عليها، واعتبار القائلين بها مجرد خرافيين.

بل إن بدائل علمية كثيرة ظهرت كـ [التصميم الذكي] [1]، كان الأحرى بهؤلاء التنويريون الإشهار لها والتعريف بها، لكونها تتناسب تماما مع القرآن الكريم، ومع العقل، والفطرة السليمة.

لكنا للأسف لا نزال نرى هؤلاء التنويريون يشيدون إلى

---

[1] () شرحنا هذا البديل وأطروحاته بتفصيل في كتاب [الحياة تصميم لا صدفة] من سلسلة [الإلحاد والدجل]

الآن بدارون، مع كون معارفه التي جاء بها لا تساوي في موازين العلم الآن شيئا..

ولهم في ذلك مغالطات كثيرة نحاول مناقشتها هنا، ويمكن تقسيمها إلى قسمين: مغالطات مرتبطة بعلمية نظرية التطور، ومغالطات مرتبطة بتفسيرهم لبداية الخلق في القرآن الكريم.

المغالطات المرتبطة بعلمية نظرية التطور:

من الأدلة التي تدل على افتقار التنويريين لكل أدوات البحث العلمي، وخاصة متابعة الجديد فيه، والاطلاع على كل ما كتب حوله، احتفاظهم بتلك المعلومات القديمة التي كتبها من انتصر من الغربيين لنظرية التطور دون البحث فيمن كتب في ردها من علماء الغرب أنفسهم، بل من المتخصصين الذين وضعوا بدائل لهذه النظرية بعد اكتشافهم لهشاشتها وبطلانها.

وبما أنا قد ذكرنا ذلك بتفصيل في كتاب [الحياة تصميم لا صدفة]، وكتاب [كيف تناظر ملحدا؟]، فسأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض المغالطات الكبرى، التي تمرر مثل هذه النظرية على المتنورين وأتباعهم المفتقرين لأدوات البحث العلمي، والذين يكتفون فقط بمخالفة المشايخ الذين يعتبرونهم تقليديين ومحافظين ومتزمتين، ولذلك يجعلون هدفهم من تبني الحقائق هو المخالفة، لا البحث عن الحقيقة نفسها.

أولا ـ المفاهيم المتعددة لنظرية التطور:

أول المغالطات التي يمرر بها التنويريون موقفهم من هذه النظرية على أتباعهم خلطهم بين مفهومين متداولين لهذه النظرية، أحدهما هو المفهوم الحقيقي، وهو الذي تطلق عليه النظرية عند الإطلاق، والثاني مفهوم مزيف، وأتي به بقصد تمريرها، ومحاولة إثبات أنها يمكن أن تخضع للتجربة.

أما الأول، وهو [التطور الكبير]، وهو المعروف عند الإطلاق، فيعني التغيّر في الصفات المورفولوجية والجينية مما يتسبب في الانتقال من نوع إلى نوع آخر، وهو المقصود الأصلي من نظرية التطور عند داورن وغيره من القدماء الذين تبنوا هذه النظرية، وهو الذي وقع فيه الجدل بين المتدينين من المسلمين وغيرهم، وبين الداروينيين.

وأما الثاني، وهو [التطور الصغير]؛ فيشير إلى مقدار التغير في تكرار المورث في العشيرة، ويتم التغير فيه على مستوى النوع الواحد نفسه، كتطوير كائن حي لمقاومته نحو جسم غريب، أو تغيير لون لجلد، أو تغيير في حجم عضو معين من الجسم، أو نحو ذلك.

وهذا النوع لا إشكال فيه، لأنه في أصله لا علاقة له بنظرية التطور، فالأنواع لا تنتقل فيه إلى أنواع جديد، وإنما تكتسب صفات جديدة بسبب التزاوج، ومن أمثلة ذلك أن هجرة الأوروبيين إلى أستراليا واختلاطهم بالشعب الأسترالي الأصلي، أدت إلى اختلاط العرقين، وقد أثر ذلك على أولادهم، بحيث أصبحت أشكالهم تمزج بين الأصلين.. وهم يعبرون عن هذا بالتطور البيولوجي للأستراليين.. ومن أمثلته أيضا ظهور فيروس الأنفلونزا كل مرة بصورة جديدة، بحيث لا تؤثر فيه اللقاحات السابقة.

وقد ورد في النصوص المقدسة ما يدل على أن هذا النوع عادي، ففي الحديث أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود ـ وهو يريد نفيه عنه ـ فقال له: (هل لك من إبل؟)، قال: نعم، قال: (ما ألوانها؟)، قال: حُمْر، فقال له: (هل فيها من أورق؟)، قال: نعم، قال: (فأنى كان ذلك ؟)، قال: أراه عرقٌ نزعه، قال: (فلعل ابنك هذا نزعه عرق)[1]

---

[1] رواه البخاري 9 / 389 و 390 في الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، وفي المحاربين، باب ما جاء في التعريض، ومسلم رقم (1500)

والمغالطة التي يمارسها الداروينيون في هذا الجانب هي أنهم إذا طولبوا بدليل على التطور الكبير يذكرون أدلة التطور الصغير، وفي ذلك تغرير وخداع كبير.

وقد عبر عن هذا الخلط [مايكل بيهي] بقوله: (الدارونية الحديثة فسرت التطور الدقيق بشكل رائع، لكن عند الحديث عن التطور الكبير فعلى التطوريون أن يصمتوا)

وذكر [نيكولاس كومنينلس]، الأستاذ بجامعة ميزوري ـ كنساس، في كتابه [Darwin's Demise]، أنه من الأخطاء الشائعة في الاستدلال العلمي استخدام التكيُّفات الملحوظة في التطور الصغير لافتراض صحة التطور الكبير، والانتقال من نوع إلى نوع آخر.

ثانيا ـ كذب التنبؤات العلمية لنظرية التطور:

من أهم أدلة مصداقية النظرية العلمية صدق تنبؤاتها في حال عدم إمكانية إثباتها عمليا، والأمثلة على ذلك في تاريخ العلوم كثيرة، ومن أشهرها وأقربها ما ذكرته وسائل الإعلام من أن العلماء رصدوا للمرة الأولى موجات جاذبية، وهي تموجات في المكان والزمان، تنبأ بها ألبرت أينشتاين، بالتزامن مع رصد ضوء ناجم عن الحدث الكوني نفسه، ولأجل ذلك فاز ثلاثة علماء أميركيين اكتشفوا تلك الموجات بجائزة نوبل في الفيزياء، وأثبت هؤلاء الباحثين أن النتائج التي اكتشفوها تساهم في تأكيد نظرية أينشتاين [1].

لكن الأمر مختلف تماما مع كل الدعاوى والنبوءات العلمية التي طرحتها نظرية التطور، حيث نرى أنها كلها تخلفت، بل كلها أثبت الزمن عكسها تماما، فقد كان داروين

1) انظر مقالا بعنوان: نبوءة أينشتاين تتأكد.. رصد متزامن لموجات الجاذبية بين أميركا وأوروبا تنبأ بها قبل أكثر من 100 عام، هاف بوست عربي، رويترز، تم النشر: 17/10/2017 10:44. على الرابط:

http://www.huffpostarabi.com/2017/10/17/story_n_18291660.html

ــ بعــد طرحــه لنظريتــه ــ يطمــع في أن تثبت الاكتشــافات اللاحقة في السجل الاحفوري نظريتـة، وبنـاء على ذلـك فـإن التنبؤ الدقيق لنظرية التطور هو اكتشـاف كميـات كبـيرة من الأشكال الانتقالية.

لكن صار المستقبل الذي كان يحلم به داروين بحد ذاتــه عبئا على الداروينيـة وكمـا يقـول هـنري جي المحـرر العلمي في مجلة الطبيعة:ـ (إنّ عملية أخـذ مجموعـة من الحفريـات والقــول بأنهــا تعكس وجــود سلســلة قرابــة هي في الواقــع ليست فرضية علميـة يمكن إخضـاعها للاختبـار، وكـل مـا في الامر انها مجرد حكايـة أو حدوتـه من احـاجي منتصـف الليـل المسلية التي قد تكون مُوَجِّهَةً أو مُرْشِـدَةً للإنسـان في كثـير من الأحيان إلا أنها ومع ذلك لا تستند لأيّ أساس علمي)[1]

كمـا اعـترفت مجلـة [National Geographic] مـؤخرا بقولهـا: (مضيء ولكن متقطع، يبدو السجل الأحفـوري كفيلم للتطـور فقد منه 999 من اصل 1000 صورة)

وهكذا يعـترف التطوريـون أن 99.9 بالمائـة من الـدليل مفقود، ومع ذلك يحاولون دائما خداعنا بنماذج مزيفة لحلقات انتقالية ليبرروا بها نظريتهم.

ولم يكن الأمــر قاصــرا على عــدم اكتشــاف الحلقــات المفقود، بل إن الاكتشافات الأحفوريـة كـل حين تثبت عكس كل التوقعات الـتي تبنتهـا الداروينيـة، ومن الأمثلـة على ذلـك تلك الحفرية البشرية الـتي عـثر عليهـا في أسـبانيا في سـنة 1995، على يــد ثلاثــة علمــاء أســبان من جامعــة مدريــد متخصصين في الأنثروبولوجيا القديمة، وقد كشـفت الحفريـة عن وجه صبي في الحادية عشرة من عمـره كـان يبـدو مثـل الإنسان العصري تماما، على الرغم من مرور800.000 سنة على وفاته.

---

1) نقلا عن الدّاروينيــة في الــزّمن القــديم، هــارون يحي، دط، دت، من موقعــه الالكتروني، ص34.

وقد هزت هذه الحفرية قناعات المكتشفين لها، فقد قال [أرساجا فريراس]، وهو أحد المكتشفين: (لقد توقعنا أن نجد شيئا كبيرا، شيئا ضخما، شيئا منتفخا... كما تعلم، شيئا بدائيا. لقد توقعنا أن يكون غلام عمره 800.000 سنة مشابها لطفل توركانا. ولكن ما عثرنا عليه كان وجها عصريا تماما... بالنسبة لي كان الأمر مثيرا للغاية... إن العثور على شيءٍ كهذا غيرِ متوقع على الإطلاق لهُوَ من الأشياء التي تهز كيانك. فعدم العثور على حفريات أمر غير متوقع، تماما مثل العثور عليها، ولكن لا بأس. إلا أن أروع ما في الأمر هو أن تجد شيئا في الماضي كنت تعتقد أنه ينتمي إلى الحاضر. إن الأمر أشبه بالعثور على شيء مثل جهاز تسجيل في كهف جران دولينا. سيكون ذلك مدهشا للغاية، لأننا لا نتوقع العثور على أشرطة كاسيت وأجهزة تسجيل في العصر البلستوسيني الأدنى. وينطبق ذات الشيء على اكتشاف وجه عصري عمره 800.000 سنة. لقد اندهشنا جدا عندما رأينا هذا الوجه)[1]

ثالثا ـ ممارسة الداروينيين للخداع العلمي:

بعد يأس العلماء المؤمنين بنظرية التطور من إيجاد الحلقات المفقودة التي تنبأ بها داورن، راحوا يموهون على أتباع هذه النظرية بالكثير من النماذج التي أثبت التاريخ بطلانها بعد ذلك، وللأسف لا زال التنويريون يؤمنون بها على الرغم من أن أصحاب النظرية أنفسهم تخلوا عنها.

ومن الأمثلة على ذلك، والتي استعملها الداروينيون لفترة طويلة، بل لا زال بعضهم يستعملها، ما يسمونه [إنسان بلتداون].. أو ما يطلق عليها الآن بـ [خدعة بلتداون][2]، ففي عام 1912، ادعى فريق بحثي بقيادة عالم حفريات بريطاني هاوٍ يُدعى [تشارلز داوسون] اكتشاف حفرية.. وقد

1) المرجع السابق، ص65.

2) انظر: مقالا بعنوان: خدعة إنسان بلتداون، هارون يحي.

كـان الأمـر حينهـا عجيبـا ومثـيرا.. ذلـك أن عظـام فـك تلـك الحفريـة الـتي تم عرضـها تشـبه عظـام فـك القـرد، بينمـا الجمجمة كانت تمتلك صفات جمجمة الإنسان.

وقد اهتمت الهيئات الكثيرة بذلك الاكتشاف الخادع، وتم إطلاق اسـم [إنسـان بلتـداون] على تلـك الحفريـة، والـتي عُرضت في أهم متـاحف العـالم لأكـثر من 40 عامًـا متتاليـة على أنها دليل قاطع على صحة نظرية التطور.

وكان صداها هائلًا على المستوى الأكاديمي، حتى أن مـا يقرب من 500 أطروحة للدكتوراه تمت كتابتها عن هذا الأمر لمدة 40 عامًا، بل كانت توصف بكونهـا رمـزًا لانتصـار نظرية التطور المزعومة، وُضـعت للعـرض والمشـاهدة في المتحف البريطـاني، والـذي يعتـبر واحـدًا من أشـهر المؤسسـات في العالم.

وقد تم فحصها ودراسـتها في تلـك الفـترة الطويلـة من قبل أشهر العلماء من جميع أنحاء العالم، بـل حـتى من قبـل أعداد لا تُحصى من الزائرين.

وفي الأخير، وبعد كل ذلك الانتصـار الكـاذب الـذي لبس لباس العلم اكتشـف أن الأمـر كلـه لا يعـدو أن يكـون مجـرد خدعة.

ففي عـام 1949، اسـتطاع [كيـنيث أوكلي] من قسـم الحفريات في المتحـف البريطـاني أن يطـور طريقـة جديـدة لتحديد أعمار الحفريات.. وبـدأ باسـتخدام هـذه التقنيـة الـتي أُطلق عليها اختبار الفلوريد على الحفريات الموجـودة داخـل المتحف.

وما إن راح يطبقها على جمجمة [إنسان بلتـداون] حـتى ذهل للمفاجأة، فقد اكتشف أن عظام الفـك خاليـة من مـادة الفلوريـد، بينمـا احتـوت الجمجمـة على نسـبة صـغيرة منـه.. وهذا يعني أن عظـام الفـك لا يتجـاوز عمرهـا بضـع سـنوات، والجمجمـة لا يتجـاوز عمرهـا بضـع المئـات من السـنين على

أقصى تقدير.

ومع تكثيف التحقيقات، اكتشف أن تلك الحفرية التي تم تصويرها على أنها أفضل دليل تم التوصل إليه لإثبات نظرية التطور كانت في الحقيقة محض كذب.. فعظام الفك تنتمي إلى إنسان الغاب المتوفى حديثًا.. والجمجمة تنتمي إلى إنسان متوفٍّ منذ فترة قاربت 500 عام..

ومن خلال الفحص عن قرب عرف أن الأسنان تم إرفاقها بعظام الفك في وقتٍ لاحق، وتم استخدام أداة صلبة لكشطها.. ثم تم غمرها في سائل ثنائي كرومات البوتاسيوم، وذلك لإعطائها مظهرًا قديمًا.

وقد أثبتت التحاليل المفصلة التي أجراها [جوزيف وينر] بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه الحفرية كانت مجرد خدعة.

وكان البروفيسور [لو جروس كلارك] أستاذ التشريح بجامعة أوكسفورد واحدًا من هؤلاء العلماء الذين كشفوا هذا الغش والاحتيال.. وفي نهاية التحقيقات التي قام بها، قال: (بالفعل فإنه يبدو جليًا افتعال هذه الخدوش، ويبدو أنه من الجيد طرح السؤال الأهم، وهو: كيف أن هذه الخدوش لم يتم ملاحظتها من قبل؟.. إنهم لم يبحثوا عن هذا الأمر من قبل.. لم يقم أي شخص في السابق ممن فحصوا عظام فك بلتداون بوضع فكرة وجود تزييف محتمل نُصب عينيه، إنه تلفيق متعمد)

أما [كلارك هاول] أستاذ الأنثروبولوجيا، فقد قال معلقا على هذه الخدعة الخطيرة: (اكتُشفت بلتداون عام 1953 ولم تكن سوى عظام فك لقرد تم إدخالها على جمجمة إنسان، فهي خدعة قد تم وضعها عن عمد، فهم لم يقروا بشكل واضح عما إذا كان هذا الفك ينتمي لقرد أو إذا كانت الجمجمة تنتمي لإنسان، وبدلًا من ذلك فقد أعلنوا أن كل جزء من الجزئين السابقين هو شيء في المنتصف ما بين القرد والإنسان.. وقد أرجعوا تاريخه لحوالي 500 ألف عام

مضت، وأطلقوا عليه اسم [الإنسان الفجرى الدوسوني أو إنسان داون]، وكُتب ما يقرب من 500 كتاب عن هذا الأمر خدع هذا الاكتشاف علماء الحفريات لمدة 45 عامًا)

هذا مجرد مثال.. والأمثلة كثيرة جدا.. بل إننا في كل يوم نسمع كذبة جديدة وخدعة جديدة، ويصدقها الكثير، لا لكونها علمية، ولكن لكونها تصب في ذلك التفكير الرغبوي المزاجي الذي جعل الداروينيين ينتصرون لهذه النظرية بالصدق أو بالكذب.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا خدعة أخرى اسمها [إنسان نبراسكا].. وتبدأ قصة هذه الخدعة عام 1922، وهو الوقت الذي كانت الجهود المكثفة تبذل فيه بهدف الوصول لبرهان على نظرية التطور.

حينها كان الجميع مهووسون بالوصل إلى ذلك الإثبات.. أو بالوصول إلى الحلقة المفقودة التي تصل الإنسان بالقرد أو بغيره من الحيوانات..

حينها أعلن [هنري فيرفيلد أوزبورن] رئيس قسم الحفريات بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي عن اكتشافه حفرية لضرس يعود تاريخه إلى الحقبة البليوسينية بالقرب من وادي الأفاعي غرب نبراسكا.

وقد حدث توافق بشكل تام بناءً على ضرس واحد فقط بأنه ينتمي إلى ما يسمى بالرجل القرد.. ثم دارت العديد من النقاشات العلمية العميقة حول هذا الدليل المزعوم، والذي لم يكن في الحقيقة أكثر من مجرد خيال.

وقد أُطلق على هذه الحفرية ـ والتي سببت جدلًا واسعًا ـ اسم [إنسان نبراسكا].. بل سرعان ما تم إعطاء اسم علمي عليها، وهو [هسبيروبايثيكوس هارولدكوكي].. وسرعان ما لقي مكتشفها الكثير من الدعم والاهتمام.

ومما يدل على فداحة التفكير الرغبوي لدى الداروينيين،

وتسلطه عليهم، أنهم راحوا يجرون العديد من الرسومات لإعادة بناء جمجمة وجسد إنسان نبراسكا اعتمادًا على ضرس واحد فقط.. بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث نُشرت العديد من الرسومات الإيضاحية لإنسان نبراسكا مع أولاده وزوجته في بيئتهم الطبيعية التخيلية.

بل بدأ التطوريون مرة أخرى بحشد جميع الوسائل المتاحة لهم من أجل هذا السيناريو الوهمي..

ومع أن بعض العقلاء في ذلك الحين أقر بأن الأدلة المتعلقة بخصوص [إنسان نبراسكا] غير ملائمة تمامًا، وأن الدليل المتاح لا يبرهن على أي شيء، وأن على هؤلاء الانتظار مزيدًا من الوقت.. إلا أن التطوريين، ولحرصهم على نظريتهم، وخوفهم من فقدان هذا الدليل الكاذب راحوا يشنون حملة مضادة تضمنت الدعاية التطورية المعتادة ضد من يخالفهم، باعتبارهم غير علماء ولا متخصصين ولا متطورين عقليا.

لكن بعد كل ذلك بفترة من الخداع والوهم اكتشف أن هذا الضرس لا ينتمي لا للبشر ولا للقردة، وإنما لفصيلة منقرضة من الخنازير البرية.

رابعا ـ التكتم على الانتقادات الكثيرة الموجهة لنظرية التطور:

وهو أمر مخالف تماما للمنهج العلمي، ذلك أن الحقيقة العلمية منفتحة على النقد، وتتقبل الآخر، وتناقشه مناقشة علمية هادئة، ولا تفرض عليه أي سلطة أو وصاية.

ومن الأمثلة التي تدل على ذلك الانغلاق الفكري الذي يعانيه الداروينيون، موقفهم من كتاب [التطور: نظرية في أزمة] الذي أصدره [مايكل دنتون] عام 1985، والذي أثار الكثير من الجدل، بل من العنف والمواجهة من طرف التطوريين، لسبب بسيط، وهو أنه أقر فيه بالحقيقة، وصرح فيه بما جبن غيره أن يصرح به؛ فقد ذكر فيه أن نظرية

التطور بالاصطفاء الطبيعي نظرية في أزمة علمية حقيقية.

ولهذا وُصف من قبل العديد من البيولوجـيين بأنـه نقض لأركان نظرية التطور وهـدمها بأسـس علميـة.. وبسـبب هـذا تعرض الكتـاب ومؤلفـه إلى حملـة كبـيرة من التشـويهات، لا لكونه غير علمي، ولا غير منسجم مع المنطـق.. ولكن لكونـه ناقض الخط العام المرسوم مسـبقا، والقائـل بقبـول نظريـة التطور حتى وإن كانت تناقض في كثير من نقاطهـا الحقـائق العلمية الواضحة.

وهكذا نرى في الوقت الحاضر أنه لا يوجـد سـبب يـدعو إلى ربط العلم بنظرية التطور، فالعلم يقـوم على الملاحظـة والتجريب، بينما تعبر نظرية التطور عن فرضية متصلة بماض لا يمكن إخضاعه للملاحظة.

ولهــذا نــراهم يــتركون الاحتجــاج العلمي المبــني على الأسس المنطقية التجريبية، ويلجـؤون إلى أسـاليب لا علاقـة لها بالعلم من أمثال ادعائهم أن النظرية مقبولة بشكل واسع في المجتمع العلمي.

وكـأن صـحة أي نظريـة تعتمـد على الأغلبيـة المفترضـة لأتباعها، لا على ما يدل عليها من أدلة.. ولهذا يمارسون نوعـا من الضغط النفسي والدعاية الخالية من اللغة العلمية.

لقــد أقــر الــدكتور [أدرا دينكــل]، وهــو برفيســور في الفلسفة، ومسـاند لنظريـة التطـور، بالطبيعـة الخاطئـة لهـذا الأسلوب، فقـال: (هـل الحقيقـة الـتي يـؤمن بهـا العديـد من الأناس البارزين أو المنظمات أو الهيئـات يثبت صـحة نظريـة التطور؟.. هل يمكن اثبـات النظريـة بقـرار المحكمـة؟.. هـل الحقيقة التي يؤمن بها الشخصيات أصـحاب السـلطة يجعلهـا صحيحة؟)[1]

1) انظر: أردا دِنكِل، ملحق العلوم والتكنولوجيا الصادر عن الكومهوريِت اليومية التركية، 27 شباط/ فبراير 1999..

ثم راح يجيب على هـذه التسـاؤلات بقولـه: (أريـد أن أسترجع حقيقة تاريخيـة.. ألم يقـف جـاليلو ضـد الشخصـيات الهامة والمحامين، وخصوصًا العلمـاء في ذاك الـوقت، وتكلم عن الحقيقـة لوحـده، وبـدون أي دعم من أي شـخص؟.. ألم تكشف محاكم الإستقصاء حالات أخرى مشابهة؟)

ثم ختم كلمتـه بقولـه: (إن كسـب دعم الـدوائر البـارزة والمؤثرة في صنع القرار لا يصنع الحقيقـة، وليس لـه علاقـة بالحقيقة العلمية)

إضافة إلى ما ذكره الدكتور [أدرا دينكل]، فإننا إذا تأملنا الواقع العلمي جيدا، وبنظرة حيادية، نجد نظرية التطـور غـير مقبولة من المجمتـع العلمي كلـه، كمـا يشـيع أنصـار نظريـة التطور.. بـل إنـه خلال العشـرين سـنة ماضـية، نـرى أعـدادا محترمة من العلماء ترفض الداروينيـة بشـكل متصـاعد؛ فقـد ترك معظمهم عقيدتهم الدوغماتيـة في الداروينيـة بعـد رؤيـة تصميم لا عيب فيه في الكون وفي الكائنات الحية.

والأهم من ذلـك كلـه أن الـذين تخلـوا عن النظريـة هم أعضاء من جامعات مشهورة، ومن جميع أنحاء العالم، خاصة في الولايـات المتحـدة، فهم خـبراء وأكـاديميون في مناصـب علميـة مثـل البيولوجيـا والبيوكيمـاء والميكروبيولـوجي وعلم التشـريح وعلم الدراسـات القديمـة وغيرهـا من الحقـول العلمية.. فلذلك، فإنه الخطـأ الكبـير القـول بـأن الأغلبيـة من المجتمع العلمي تؤمن بالداروينية.

وحـتى لـو فرضـنا أن هنـاك إجماعـا على قبـول هـذه النظريـة، فهـل الاحتكـام إلى الإجمـاع من الناحيـة العلميـة احتكام صحيح؟.. وهل الإجماع العلمي معصوم من الخطأ؟

لقد عبر عن هذا المعنى [مايكـل كريتشـتون] حين ذكـر أن الإجماع يمكن استخدامه في مجالات الـدين أو السياسـة، ولكن لا مكان له في العلم، ذلك أنه يعتمد فقـط على الأدلـة المكتشـفة من التجـارب العلميـة، ولا يعتمـد على أعـداد

العلماء..

لقد عبر عن ذلك بقوله: (دعنا نكن واضحين: الأسلوب العلمي ليس له أي علاقة بالإجماع، الإجماع هو عمل السياسة.. العلم في الوجه المقابل، يحتاج إلى محققين يصادف أنهم على صواب، وهذا يعني أن لديه معلومات قابلة للإثبات بالمراجع في العالم الواقعي.. أما الإجماع العلمي فليس له علاقة، فالذي له علاقة هي النتائج القابلة للإنتاج.. أعظم العلماء في التاريخ كانوا عظماء بالفعل لأنهم كسروا الإجماع.. لا يوجد شيء اسمه إجماع علمي.. إذا كان هناك إجماع فهو ليس علما.. وإذا كان هناك علم فهو ليس إجماعا.. نقطة على السطر)

وعبر عن ذلك في موقف آخر بقوله: (الإجماع يستخدم عندما لا يكون العلم صلبًا بما فيه الكفاية.. لا أحد يقول إن إجماع العلماء يتفق على أنّ بعد الشمس عنا هو 93 مليون ميل.. لم يحدث أبدًا أن تكلم أحد بهذه الطريقة)

وقال: (أريد أن أتوقف هنا لمهلة وأتكلم عن فكرة الإجماع، والفكرة التي انتشرت بكثرة وهي الإجماع العلمي.. أنا اعتبر الإجماع العلمي تطورا خبيثا يجب إيقافه بدون رحمة.. فتاريخيًا، ادعاء الإجماع كان مأوى الأوغاد.. إنها طريقة لتجنب المناظرة بإدعاء أن القضية صارت محلولة.. كلما سمعت عن إجماع العلماء في الموافقة على شيء ما أو آخر، فابحث عن محفظتك، لأنه يتم شراؤك..أو تفقد مخك، لأنه يتم غسيله)

وقبله بقرون عبر جاليلو عن موقفه من قضية الإجماع العلمي، فقال: (في الأسئلة العلمية، سلطة الآلاف لا تستحق التفكير المتواضع لشخص واحد)، هذا هو القانون الصحيح الذي يحتكم إليه في العلم، لا تفكير القطيع الذي يتصور أنه كلما كبر العدد كانت الحقيقة.

وفي هذا المقام نذكر نظرية التصميم الذكي التي هي

البديل الحقيقي لنظرية التطور، والتي تمنينا لو أن التنويريين اهتموا بها بدل اهتمامهم بنطرية التطور، وهي نظرية نشأت في مواجهة نظرية التطور[1]، وتحاول تفسير نشأة الأنواع الحية تفسيرا علميا بعيدا عن كل أنواع الأيديولوجيا والتفكير الغرضي، وهي تتبنى توجهاً مناهضاً للدور العشوائي اللاغائي الذي تعطيه نظرية التطور للطبيعة، باعتبارها أداة فاعلة في الخلق..

وهي لأجل ذلك تواجه دعاوى التطوريين عن وجود عيوب في تصميم الأنواع الحية؛ لكونها تطورت بعضها من بعض، فنشأت العيوب نتيجة السمكرة وإعادة التخليق، وهي لذلك لا تعترف بوجود أعضاء بلا وظيفة، أو أعضاء غيّرت وظيفتها عبر المشوار التطوري.

وهي ترى في الأنظمة الحيوية تعقيدات وظيفية متخصصة، وتعقيدات غير قابلة للاختزال، ومن ثم تعجز الرؤية التطورية التدرجية التراكمية عن تفسيرها.

وهي تحصر دورها في وصف حقيقة الحياة كما هي، وتزيل عنها الرؤية التطورية الخرافية.. وترى كل نوع من الأنواع عالما قائما بذاته، لم يتطور من غيره، ولم ينشأ عنه.. وهي لذلك تفسر خلق الأنواع الحية بكونها تمت من قِبل مصمم ذكي، ولا تسمي اسم ذلك المصمم ليجتمع فيها جميع الأديان المؤمنة بوجود مصمم ذكي بغض النظر عن اسمه وصفاته وحقيقته، وهذا ما يفرقها عن النظريات الدينية.

وقد تعرض أصحاب هذه النظرية لمضايقات كثيرة من طرف التطوريين؛ فمنذ بدأت حركة التصميم الذكي، والتطوريون يشيعون عن أصحابها أنهم [خَلْقَوِيُّون]، مع أن المنضمين إلى هذه الحركة والمؤسسات التابعة لها ليسوا كذلك جميعا.. فبعضهم دينيون مع اختلاف دياناتهم.. وبعضهم لا أدريون.. بل إن بعضهم ملاحدة.

---

1) انظر مقالا مهما بعنوان: اتجاهات في تفسير التنوع الحيوي، منى زيتون.

ومن أقطاب هـذه النظريـة البروفيسـور [دين كيـنيون]، وهو من أوائل المؤسسـين لهـذه الحركـة، وأحـد المشـاركين في وضع نموذج شهير لتفسير نشأة البروتين في بدء الخلــق من خلال الأُلفة الكيميائية للأحمـاض الأمينيـة، بعـد أن تراجـع عن نموذجه واعترف بعدم وجود قيمة تفسيرية له.

ومنهم البروفيسور [أنتوني فلو]، الذي قضى عمـره في الإلحاد، ثم عاد عنه وصنّف كتاب [هناك إله] الـذي أعلن فيـه تراجعه عن إلحاده، وانضم إلى حركة التصميم الذكي..

ومنهم الدكتور الـبيولوجي [هـنري جي] المُحـرر بمجلـة نيتشر التطورية الشهيرة، وذلك في كتابه [البحث في أعماق الـزمن]، والـذي علـق على الاستشـهاد ببضـعة عظـام لا تملأ صندوقا صغير على تطـور الإنسـان أو غـيره ــ مـع كونـه من التطوريين ـ: (إن أخذ سلالة من الأحـافير وادعـاء أنهـا تمثـل خطاً تكاثرياً لا يعتبر فرضية علميـة قابلـة للاختبـار، وإنمـا هـو تأكيد على قصة تحمل نفس قيمة القصص الـتي تـروى قبـل النوم ـ ربما مفيدة.. ولكن ليست علمية)

ومنهم [جيري فـودور]، وهـو بروفيسـور الفلسـفة وعلم الإدراك بجامعــة ولايــة نيوجيرســي، والــذي كتبت كتابــه في التشكيك في حقيقة وجود خرافة الانتخاب الطبيعي مع كونــه كان حينها ملحـدا، وذلـك في كتابـه [لمـاذا لا تملـك الخنـازير أجنحة؟]

المغالطـــات المرتبطـــة بربـــط نظريـــة التطور بالقرآن الكريم:

لم نكن لنهتم لأطروحـات التنـويريين المرتبطـة بنظريـة التطور لو أنهم اكتفوا بتبنيها، والدعوة إليها، دون أن يربطوها بالمصـادر المقدسـة، ويلـووا أعناقهـا في سـبيل ذلـك، فنحن نعلم عشــقهم لكــل غــربي ثبت أو لم يثبت، كمــا نعلم حبهم لمخالفة ما عليه سائر العلماء، واعتبارهم ذلـك تحـررا ووعيـا وتعقلا.

والتناقض الأكبر الذي يقع فيه هؤلاء هو اهتمامهم بمثل هذه القضايا، التي لو طرحها علماء المسلمين لاعتبروهم متخلفين، ذلك أن هذه النظرية ــ في حال التسليم جدلا بثبوتها ــ لا علاقة لها بأي مجال من المجالات العلمية الواقعية، فسواء قلنا: إن الزرافة تطورت عن حيوان سابق، أو خلقت خلقا جديدا.. فإن ذلك لن يغير من الزرافة، ولا من فوائدها أو مضارها شيئا.. وبذلك فإن البحث في هذا نوع من الترف العقلي مثله مثل البحث في أيهما السابق البيضة أم الدجاجة.

بالإضافة إلى أن في هذا الكثير من التكلف.. فالله تعالى ما أشهدنا خلق كونه، ولا شيء منه، والاستشهاد بالحاضر على الغائب قياس فاسد.. مع أنه لم يثبت في المخابر أي دليل على التطور.. كل ما فيه بضاعة كلامية مزجاة خالية من كل دليل.. لا يهدف أصحابها إلا إلى تفسير كيفية نشوء الحياة، ومحاولة عزل الله عن ذلك النشوء، ابتداء أو استمرارا.

وبناء على سريان الشبهات التي طرحوها على الكثير من الناس، حتى أصبحوا تطوريين أكثر من داروين نفسه؛ فإننا سنناقش هنا أدلتهم، لا بتفاصيلها، وإنما بهدم الأسس التي تقوم عليها، وبيان مخالفتها للمصادر المقدسة.

ومن خلال استقراء النصوص المقدسة في هذا الجانب نجد ناحيتين اثنتين ركز عليهما القرآن الكريم، وفيهما أحسن الردود على من يتبنى هذه النظرية، أو يحاول ربطها بالمقدس، أولهما يرتبط بسنة الله تعالى في خلقه، وثانيهما يرتبط بخلق آدم عليه السلام، وكيف تم ذلك.

أولا ـ المصادر المقدسة والخلق المباشر:

تحاول نظرية التطور في أساسها الفلسفي تفسير التنوع الحاصل في الحياة، كما تحاول تفسير نشأتها الأولى، بعيدا عن الحاجة للإله إما كليا بعدم الحاجة مطلقا، وهو

مذهب الملاحـدة، أو جزئيـا على مـذهب الربوبـيين، باعتبـاره أعطى الشـرارة الأولى للخلـق، ثم تركـه يتنـوع بحسـب مـا تمليه العشوائية أو التوجيه الإلهي.

ولهذا نجد الكثير من المؤمنين بالله من جملة أتباع هـذه النظرية، باعتبارها لا تلغي الله مطلقا، وإنما تعتبره ـ وخاصـة على مذهب الربوبـيين ــ مشـعل الشـرارة الأولى، لتبقى نـار الحياة بعدها تسري من غير إدارة تتحكم فيها.

لكن المشكلة التي تواجـه هـذه النظريـة هي مصـادمتها للمصادر المقدسة للأديان الثلاثة خصوصا الإسلام والمسيحية واليهودية.. ولهذا انبرى رجالها جميعا للرد عليها.

فهي تتفق جميعـا في قـدرة اللـه المطلقـة على الخلـق المباشر لأي نوع، متى شاء وكيف شاء من غـير حاجـة لـذلك السـلم الطويـل من التطـور، ولا تلـك الأحقـاب الطويلـة من الزمان.

وهــذا مــا أثبتــه القــرآن الكــريم بصــيغ كثـيرة إمــا على العموم المرتبط بجميع أنواع الخلق، أو على الخصوص بخلـق الحياة نفسها.

وقد كان في إمكان التنويريين أن يفسـروا تنـوع الحيـاة على هذا الأساس من غير أن يصدموا بالحقـائق العلميـة، ولا بالمصـادر المقدسـة.. ذلـك أن اللـه تعـالى في إمكانـه وهـو القادر على كل شيء أن يخلق ما شاء متى شاء كيف شاء.

ولــذلك فــإن التفسـير الأسـهل بالنسـبة لهم ــ خلافــا للملاحـدة ــ هـو ألا يفسـروا التنـوع بـالطفرة، وإنمـا بـالخلق الجديد، فالطفرة عشوائية، والعلم الآن لا يثبتها بالصورة التي تبناها الداروينيون الأوائل، أو الداروينيون الأواخر.

ونظرية الخلـق الجديـد الـتي يـذكرها القـرآن الكـريم لا تلغي وجود تقارب بين المخلوقات.. وإنما تعني أن الله تعالى باعتبـاره خلاقـا، لا يطـور الخلـق السـابق ليتحـول إلى خلـق

جديد، وإنما يخلقه ابتداء، كما صور ذلك بدقة عند ذكره لخلق آدم عليه السلام، والذي ورد في النصوص القرآنية والنبوية أنه خلق من طين، ومن حمأ مسنون..

بل أشار إليها القرآن الكريم عند ذكره للبعث، بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: 15]، فالله تعالى يرد على المشركين الذين تعجبوا من البعث، والذي هو خلق جديد، لا علاقة له بالتطور، بأن ذلك يسير جدا بالنسبة لقدرة الله المطلقة.

كما صور ذلك بدقة عند ذكره لناقة صالح عليه السلام، والتي أخرجها من الصخر آية من آيات الله.. كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: 73]

فقد كان لهذه الناقة المخلوقة خلقا جديدا من الصفات والمميزات ما لم يكن لسائر النوق، فقد كانت تعطيهم لبنا كثيرا، كما أنها تستقي كثيرا، قال تعالى:﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 155]

وهكذا فإن من مقتضيات الإيمان بالبعث الإيمان بالخلق الجديد، فالإنسان عند بعثه لن يتطور من كائن آخر، وإنما سيخلق من جديد من تراب الأرض، وبخصائص جديدة تخالف الخصائص التي ولد بها في هذه النشأة.

ولهذا رد الله تعالى على الذين يفرضون عليه ماذا يفعل، وكيف يفعل، بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: 15]، ومعناها ــ كما يذكر المفسرون ـ: (أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد؟ أي لم نعجز عن الخلق الأول وهو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته)

والمراد بالخلق الجديد (تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة

أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الـدنيا فإن في النشأة الأخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فنـاء وحياة من غير موت)

وقد أشار إلى هذا أيضا مـا ورد في القـرآن الكـريم من القـدرات العظيمـة الـتي آتاهـا اللـه للمسـيح عيسـى عليـه السلام، ومنها إحياء الموتى، وإبراء الأكمـة والأبـرص.. والـتي وصلت إلى حد القدرة على الخلق بـإذن اللـه.. والـتي وردت في مواضع من القـرآن الكـريم، وبصـيغ متعـددة، منهـا قولـه تعـالى على لسـان المسـيح معـبرا عن فضـل اللـه عليـه: ﴿وَرَسُولًا إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَـدْ جِئْتُكُمْ بِآيَـةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْـرِ فَـأَنْفُخُ فِيـهِ فَيَكُـونُ طَيْـرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]

ومنهـا منـة اللـه عليـه بالقـدرة على ذلـك، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَـا فَتَكُـونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: 110]

وهذه الآيات فيهـا رد شـديد على أولئـك الـذين يحيلـون على الله أن يخلق أي أمـة من الأمم ابتـداء، ويتصـورون أنـه يفتقر إلى أن يطـور خلقـا سـابقا، ليحصـل منـه خلـق جديـد، وكأنـه عامـل في مصـنع، أو مخـترع في مخـبر، وليس قـادرا على كل شيء.. يخلق ما يشاء.. متى يشاء.. كيف يشاء.

ولـو أن هـؤلاء نظـروا فيمـا يخترعونـه من مخترعـات يزهـون بهـا، لكـان ذلـك وحـده كفيلا بتسـليمهم لخـالقهم، واعترافهم بقدرته المطلقة على الخلق ابتداء من غـير حاجـة لأي وسائط.

فهـل كـان الجيـل الثـاني من جهـاز الكمـبيوتر صـناعة جديـدة، أم أن المخـترعين راحـوا إلى نفس الجهـاز القـديم ينقصون منه ويضيفون، حتى تحـول إلى جيـل جديـد.. لاشـك أن الواقـع لم يـدل على هـذا.. بـل إن كـل جيـل من الأجيـال يقتضـي أن يصـنع صـناعة خاصـة تتناسـب معـه، مهمـا كـان

القرب بينه وبين الأجيال السابقة.

ثانيا ــ المصادر المقدسة وخلق آدم عليه السلام:

لم يكتف التنويريون بالصراع مع تلك النصوص الدالة على قدرة الله المطلقة، وكونه {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [البقرة: 117]، وإنما راحوا ــ بكل وقاحة وجرأة ـ يصادمون النصوص الصريحة التي تنص على أن آدم عليه السلام خلق من تراب، ومن طين، ليحولوه إلى كائن متطور عن كائن سابق، وأن تلك التسوية التي ذكرها القرآن الكريم ليست سوى ألفاظا عبثية اعتباطية لا دلالة حقيقية لها.

والمشكلة أن هؤلاء في تكلفاتهم يربطون ذلك بالقرآن الكريم، فيستدلون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59]، ويلبسون على أنفسهم وعلى الناس، بأن الله شبه المسيح بآدم غافلين عن أن المشبه به لا يساوي المشبه في كل الوجوه.. وغافلين عن أن الله تعالى ما ذكر ذلك إلا ليبين أن له الإرادة المطلقة، ولذلك ــ كما خلق آدم عليه السلام ـ من غير أبوين، فهو قادر على خلق المسيح من غير والد.

ولو أن هؤلاء تخلوا عن كبريائهم، وراحوا يحترمون لغة القرآن الكريم، ويتدبروا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 28، 29] والذي ورد في مواضع متعددة من القرآن الكريم.. لما وقعوا فيما وقعوا فيه.. ولما فضلوا أي فرضية مهما كانت على هذه الحقائق المقدسة.

وبناء على تلك الجرأة نشأت نظريات تأويلية مختلفة للقرآن الكريم يمجها الذوق السليم، وتمجها قبل ذلك اللغة

القرآنية الراقية.

وسنشير هنا إلى بعضها لنرى مدى التهافت الذي وقعت فيه.. فمن ذلك استدلالهم بقوله تعالى: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا } [نوح: 14]، وكونها ـ حسب تفسيرهم ــ تشير إلى نظرية التطور، وهذا لا يصطدم فقط مع موقفهم السلبي من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وإنما يصطدم أيضا بالحقائق القرآنية المرتبطة بهذا الجانب.

فالآية الكريمة، والتي وردت في خطاب نوح عليه السلام لقومه، لا تشير إلى تطور الأنواع، كما تنص نظرية التطور، والتي تعني تحول الكائنات من نوع إلى نوع عبر العديد من الطفرات والانتخاب الطبيعي خلال زمن طويل.

وإنما تعني مراحل الخلق التي يمر بها كل كائن حي.. حيث تمر آحاد الكائنات الحية خلقا من بعد خلق حتى تتحول من نطفة إلى كائن كامل، كما أشارت إلى ذلك آيات كثيرة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون: 12 - 14]

ومن ذلك استدلالهم بقوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الأنعام: 133]، فقد فسروا [القوم الآخرين] في الآية الكريمة بكونهم خلقا آخر غير البشر.

مع أنهم لو رجعوا للقرآن الكريم نفسه لوجدوا تأويلها واضحا جليا، فالله تعالى ذكر سنته في استبدال كل من ينقض العهود بغيرهم من الأقوام، مثلما فعل مع بني إسرائيل حين نقضوا العهد، فأبدلهم بالعرب، ثم هدد العرب أنفسهم أنهم في حال استبدالهم سيعوضهم بغيرهم، كما قال تعالى: { إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا

غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: 39]، وقال: { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد: 38]

فهل تعني هذه الآية الكريمة ــ على حسب تصور التنويريين ــ هو تطور الإنسان إلى خلق آخر، لأن الآية الكريمة ذكرت عدم شبههم بالقوم السابقين: { ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}؟

وقد صرحت آيات أخرى بهذا المعنى، فالله تعالى قال: { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النساء: 133]، وقال: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [إبراهيم: 19]، وقال: { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [فاطر: 16، 17]

ومن ذلك استدلالهم بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [آل عمران: 33]، فقد تصوروا أن الله تعالى اصطفى آدم عليه السلام عبر طفرة جعلته مخالفا للجنس السابق الذي كان عليه أجداده.

وغفلوا عن أن الله تعالى ذكر اصطفاء نوح وآل عمران، فهل كان اصطفاؤهما أيضا عبر طفرة ميزت بينهم وبين آبائهم وأجدادهم؟

بل إن القرآن الكريم ذكر سنته في الاصطفاء؛ فقال: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 59]، وقال: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [فاطر: 32]

وذكر نماذج عن ذلك الاصطفاء، ومنهم مريم عليها السلام، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ

اصْـطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْـطَفَاكِ عَلَى نِسَـاءِ الْعَـالَمِينَ } [آل عمران: 42]

ومنهم طـالوت، كمـا قـال تعـالى: {وَقَـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَـالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْـطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْـمِ} [البقـرة: 247]

فهل هؤلاء جميعا تحولت جيناتهم عبر طفرة وراثيــة من نوع إلى نـوع، أم أن المـراد منـه الاصـطفاء المرتبـط بـالقيم والأخلاق والإيمان، لا بالنواحي البيولوجية الـتي يشـترك فيهـا البشر جميعا.

ومن ذلـك اسـتدلالهم بقولـه تعـالى: { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًـا} [نـوح: 17]، فقـد فسـروها بتلـك التفسـيرات المادية لمبدأ الخلق [الحساء البدائى]، والذي لم يثبت علميا، ويستحيل أن يثبت علميا، وقد ذكرنا الردود على ذلك بتفصيل في كتاب [الحياة: تصميم لا صدفة]

والمـراد من الآيـة الكريمـة هي نفس المـراد من قولـه تعالى عن مريم عليها السلام: { فَتَقَبَّلَهَـا رَبُّهَـا بِقَبُـولٍ حَسَـنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} [آل عمران: 37]، وقد نقل الفخر الـرازي عن ابن الأنباري في تفسيرها قوله: (التقدير أنبتها فنبتت هي نباتا حسنا، ثم منهم من صـرف هـذا النبـات الحسـن إلى مـا يتعلـق بالـدنيا، ومنهم من صـرفه إلى مـا يتعلـق بالـدين، أمـا الأول فقالوا: المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثـل مـا ينبت المولود في عام واحد، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة)[1]

ومن ذلك اسـتدلالهم بقولـه تعـالى: {الَّذِي أَحْسَـنَ كُـلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْـقَ الْإِنْسَـانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَـلَ نَسْـلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَـاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَـوَّاهُ وَنَفَخَ فِيـهِ مِنْ رُوحِـهِ

[1] () تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (8/ 206).

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [السجدة: 7 ـ 9]، وقد حملوا هذه الآية محامل عجيبة، لا علاقة لها باللغة، ولا بسائر الآيات القرآنية.

فقد فسروها على أن المراد منها أن الله تعالى بدأ خَلْق الإنسان من طين أي من [الحساء البدائي] كما يقول الداروينيون، والذي اختلفوا في الطاقة التي وهبته الحياة؛ ثم جعله يتناسل بالماء المهين، عبر المراحل المختلفة.. ومن عفن الطين المنتن نشأت أبسط وأصغر أنواع الحياة ممثلة في بعض أنواع البكتيريا، وبعض الكائنات وحيدة الخلية التى لم تتميز بعد على أنها نبات أو حيوان.. ومن هذا الأصل المشترك لجميع الكائنات نبت فرعان من الخلايا المجهرية تولد من أحدهما النبات، ومن الآخر الحيوان.. وعبر ملايين السنة تطورت هذه الحيوانات لينشأ منها آدم[1].

وهذا تفسير عجيب جدا لا يصلح في أبسط التعابير البدائية التي نستعملها، فكيف باللغة القرآنية الدقيقة والمتماسكة، فهل يصح لشخص تسأله عن المادة التي بنى بها بيته أن يذكر لك أنه بناها من إلكترونات وبروتونات ونترونات، أو من المواد الأولية البسيطة التي تتشكل منها الذرة، أم أنه يذكر لك آخر شيء تتشكل منه الجزيئات التي بنى بها بيته.

وهكذا نرى هذه اللغة مستعملة في حياتنا جميعا، فلا نذكر في تعابيرنا إلا آخر شيء متشكل، لا أوله، ولا مقدماته.

ولو كان الأمر كما ذكروا لأخبر الله تعالى الملائكة عليهم السلام أنه خالق بشرا من سلالة الشمبانزي، أو من

---

[1] () يقول عمرو شريف في بيان دلالتها على ذلك: (تشير الآية إلى أن الإنسان لم يخلق من الطين مباشرة، بل من سلالة خلقت من طين، وهذه السلالة هي الكائنات الحية التي خلقت من مادة الأرض، وتسلسل ظهورها حتى وصلنا إلى الإنسان)، ثم يقول: (تأمل هذه الآيات - آيات سورة المؤمنون - مع الأخذ في الاعتبار أن حرف العطف (ثم) يفيد التابع مع التراخي، بالتالي نفهمه على أنه عطف يشير إلى الانتقال من نوع من الكائنات إلى نوع آخر، إذ يستغرق ذلك وقتاً طويلاً قد يمتد إلى ملايين السنين) [كيف بدأ الخلق (257-258)]

أي حيوان آخر، وأنه سيقوم بإجراء طفرة في سبيل ذلك، ولم يقل لهم: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [ص: 71، 72]، وهي كلها مرتبطة ببعضها بفاء الترتيب والتعقيب.

ولو كان الأمر كما ذكروا لما قال الله تعالى: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4]، وهو يشير إلى أن كل إنسان في أحسن تقويم، وأن البشر لم يمروا بأي مراحل تطورية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن القرآن الكريم ذكر لنا مثالا مقربا لذلك، والقرآن يفهم بعضه من بعض، فقد قال تعالى عن المسيح عليه السلام: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي } [المائدة: 110]، فهل كان المسيح عليه السلام أكثر قدرة من الله تعالى بحيث خلق الطير في لحظة واحدة، بينما على مذهب الداروينيين احتاج الله تعالى إلى مئات الملايين من السنين لتتشكل الطيور؟

أما معنى السلالة التي توهموا أن المراد منها هو سلالة الحيوانات السابقة لآدم عليه السلام، فذلك غير صحيح، وبحسب اللغة القرآنية نفسها، ذلك أن السلالة في اللغة مشتقة من قولهم: [سلَّ الشيء] إذا انتزعه واستخرجه من غيره، والشيء المسلول هو المنتزع من شيء آخر، والآية الكريمة نصت على أن الإنسان مستل ومستخرج من الطين.

وقد قال الزمخشري ـ اللغوي الكبير ـ معبرا عن ذلك: (السلالة: الخلاصة، لأنها تسلّ من بين الكدر، و «فعالة» بناء للقلة كالقلامة والقمامة. وعن الحسن: ماء بين ظهراني الطين. فإن قلت: ما الفرق بين من ومن؟ قلت: الأوّل للابتداء، والثاني للبيان، كقوله مِنَ الْأَوْثانِ. فإن قلت: ما معنى: جَعَلْناهُ الإنسان نطفة؟ قلت: معناه أنه خلق جوهر

الإنسان أوّلا طينا، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة)[1]

فالآيــة الكريمــة تــدل على أن أصــل خلقــة بــني آدم وابتــداءها كــانت من الطين مباشــرة، وليس من حيوانــات سابقة، كما قال تعالى مقررا ذلك في آية أخرى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } [السجدة: 7 - 9]

بالإضافة إلى ذلك، فإن الآية الكريمة التي لـووا أعناقهـا تخالفهم تمام المخالفة، فالله تعالى ذكر أن آدم عليه السلام خلق من طين، بينما هم يذكرون أنه خلق لأبـوين، أي من أب وأم.. وبذلك يمكن أن ننسب خلقة كل شخص إلى الطين مع أن الله تعالى أخبر أن سلالة آدم عليه السلام من سـلالة من ماء مهين، كما قال تعـالى: { ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [السجدة: 8]، بينما يرى التنويريون أن آدم نفسه من سلالة من ماء مهين.. وهو خلاف ما ذكره القرآن الكريم.

أما الإشكال الأكبر الذي وقعوا فيه، والذي نشأ من عدم معرفتهم باللغة القرآنية، فهو تصورهم أن قوله تعالى: { ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } [السجدة: 9] خـاص بـآدم عليـه السلام، بينما الأمر ليس كذلك، فهذه الآية الكريمة جاءت بعد قولـه تعـالى: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } [السجدة: 8]، وهي تشير إلى أن تلـك التسـوية والنفخ تعبـير عن المراحل التي يمر بهـا الجـنين، كمـا ذكـر ذلـك في آيـات أخرى، وبالتالي فإن أداة «ثم» التي استدلوا بها ليس المــراد منها تأخر خلـق آدم عن الطين، وإنمـا المـراد منهـا المراحـل التي يمر بها الجنين، والتي ذكرت في القـرآن الكـريم بنفس الصيغة، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

---

[1] () الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (3/ 178)

مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} [الحج: 5]

ومن ذلك استدلالهم بالتفريق بين البشر والإنسان، وهو تكلف عجيب، وعدم فهم للغة القرآنية، وهو نفس ما وقعوا فيه من التفريق بين أمور كثيرة لإلغاء حقائق الأشياء، بدعوى عدم الترادف، مع أن عدم الترادف لا يعني تغير حقائق الأشياء، وإنما يعني أوصافها فقط.. كما يقول الغزالي: (هذه الأسامي مختلفة المفهومات، وليست مترادفة لأن الصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل على السيف من حيث نسبته إلى الهند، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشارة إلى غير ذلك)[1]

وهكذا، فإن لفظتي البشر والإنسان مترافتان من حيث الحقيقة المرادة منهما، ومختلفتان من حيث دلالة كل منهما على الأوصاف المرتبطة بالإنسان.. فالبشر له دلالته اللغوية الخاصة، والإنسان له دلالته اللغوية الخاصة، ولو أن كليهما يشتركان في الدلالة على الإنسان.

ومثل ذلك مثل أسماء الله الحسنى، فهي لا تعني أن لكل اسم إله الخاص به، وإنما تعني أن الله تعالى واحد لكن له أسماء كثيرة بحسب الاعتبارات المختلفة.

ومن هذا الباب نجد في اللغة أسماء كثيرة للسيوف وللجمال بل حتى للخمر، وذلك لأن لكل اسم دلالته على وصف من الأوصاف، لا على حقيقة جديدة.

هذه أبرز النصوص التي استدلوا بها على قضية لم تثبت علميا، بل ثبت عكسها، وهو دليل على مزاجية العقل التنويري، وحبه لمخالفة ما عليه جماهير العلماء، لا لشيء، وإنما لمجرد المخالفة.

---

(1) المقصد الأسنى (ص: 28).

القسم الثالث

التنويريون.. وأحكام الشريعة

التنويريون.. والصلاة

من القواسم المشتركة للتنويريين جميعا، قديمهم وحديثهم، هو التهوين من قيمة الصلاة والشعائر التعبدية، وما يرتبط بها من معان روحية سامية.

وسر ذلك بسيط، وهو أن تصورهم للدين تصور مادي بحت، يبدأ بالحياة الدنيا، وينتهي بها، وغاية الحياة عندهم هي تحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وأن تكون للمسلمين حضارة مادية راقية كالحضارة الأوروبية، باعتبارها نهاية التاريخ، والنموذج المثالي للرقي الإنساني.

ولذلك ينظرون إلى الشعائر التعبدية، في أحسن الأحوال، باعتبارها مجرد أدوات ووسائل لتحقيق هذه الغايات المادية الدنيوية، لا باعتبارها أهدافا بحد ذاتها، أو أهدافا كبرى.

وبناء على ذلك ينكرون الأحاديث النبوية المطهرة التي اتفقت عليها الأمة بمدارسها المختلفة، والتي تعظم تلك الشعائر، وتبين خطر جحودها، أو التقصير فيها، أو التهوين من شأنها.

وبناء عليه أيضا نجدهم يحملون على الفقهاء، ويزدرون بحوثهم في هذه الجوانب، لتصورهم أن هؤلاء الفقهاء، قد غاب عنهم جوهر الدين ولبابه، الذي هو الرقي المادي، لا الرقي الروحي.

وبعد أن يقوم هؤلاء التنويريون بعزل الحديث الشريف المبين للقرآن الكريم، والمؤكد لمعانيه، والمفصل لها، وبعد أن يحملوا حملتهم على الفقهاء والمفسرين والمحدثين، يخلو لهم الجو مع القرآن الكريم، ليتلاعبوا بألفاظه ومعانيه، ويحولوها إلى المسار الذي يريدونه عبر استعمال خدع وحيل كثيرة.

ومن تلـك الحيـل إخـراج الصـلاة من مفهـوم العبـادة الواردة في القرآن الكـريم، والـذي اعتـبره اللـه تعـالى غايـة الغايات عندما قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ } [الذاريات: 56]

فشـحرور والكثـير من التنـويريين يفسـرون هـذه الآيـة تفسيرا ماديـا دنيويـا بحتـا، حيث يقصـرون العبـادة على تلـك التعاليم الـتي اتفقت الأديـان عليها[1]، والـتي وردت في آخـر سـورة الأنعـام، والـتي تشـمل: بـر الوالـدين.. والقسـط في اليـتيم.. والوفـاء بالعهـد.. وعـدم الاقـتراب من الفـواحش.. وعدم قتل النفس.. وعـدم الغش بالمواصـفات.. وغيرهـا من القيم الأخلاقية التي لا يجادل أحد في أهميتها.

ولكنـــه لا يمكن أيضـــا أن يجـــادل في أهميـــة الصـــلاة، واعتبارها غاية في حد ذاتهـا، لا مجـرد وسـيلة.. لكن شـحرور الـذي يفسـر القـرآن الكـريم بمزاجـه، يأخـذ ببعض الكتـاب ليضـرب بعضـه، فيأخـذ قولـه تعـالى: { وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلَاةِ وَإِنَّهَـا لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِـعِينَ } [البقـرة: 45]، ليصور أن الصلاة مجرد أداة للاسـتعانة بهـا على تحقيـق تلـك العبـادات أو القيم الأخلاقيـة غـافلا عن أن المقصـود بذاتـه وبالأصالة، يمكن استعماله وسيلة لغـيره، وهـو لا يعـني كونـه غير مقصود بالأصالة.

وخطـورة هـذا الطـرح، الـذي هـو اعتبـار الصـلاة مجـرد وسيلة يوقعنا في ذلك الانحلال من الشـريعة الـذي وقـع فيـه بعض الصوفية عندما تصوروا أن الغاية هي الوصول إلى الله، فإذا وصل المـرء إلى اللـه لم يعـد مطالبـا بتطـبيق الشـريعة وتكالفيها، ويسـتعملون في ذلـك نفس مـا اسـتعمله شـحرور من ضرب القرآن الكريم بعضه ببعض، فيجعلون اليقين غايـة تنتهي عندها العبادة مستدلين على ذلك بقوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: 99]،

---

[1]() انظـر مقـالا بعنـوان: الإسـلام عنـد د. شـحرور، الشـيخ حسـن بن فرحـان المالكي..

وهكذا يفعل شحرور عندما يجعل الصلاة التي هي عمود الدين، مجرد وسيلة لتحقيق تلك القيم الأخلاقية والاجتماعية، وحينها يقول المتحقق بهـا: مـا دامت هـذه القيم هي الهـدف المقصود من الدين، ومن شـعائره التعبديـة، فمـا الحاجـة بي إلى الصلاة؟

وهـذا الكلام ليس مجـرد اسـتنتاج اسـتنتجناه من كلام شحرور وغـيره في هـذا المجـال، وإنمـا هي حقيقـة واقعيـة، ينطقون بها، ويتباهون بها، ويحتقرون الأحاديث الـتي اعتـبرت الصلاة ركنا من أركان الدين، وعلامة أساسية كبرى للمسلم، وفارقا بينه وبين غيره.

ومن أمثلة ذلك قول شـحرور ــ في بعض لقاءاتـه الـتي يحرص الإعلام على بثها ونشرها لتحقير أركان الدين الكـبرى ـ يخاطب الفقهاء محتقرا لهم: (أود أن أسأل السادة الفقهاء: ما حكم جاحد الصلاة أو مهملهـا؟ ومـا هي عقوبتـه؟ هـل هـو كافر أم فاسق أم منافق أم عاصي؟ فقد اعتاد الفقهــاء على إطلاق الأحكام على الناس بناءً على تركهم الصلاة أو إقامتها، وقد سئلت أنـا شخصـياً إن كنت أقيم الصـلاة أم لا، ورفضـت الإجابة لأنه لا يمكن لأحـد أن يحكم على علاقـتي مـع اللـه إلا الله نفسه.. وأنصح القراء بأن يردوا بجواب على هذا السؤال بأنه لا علاقة لكم أيها الفقهاء بذلك، وكثـيرون منهم قـالوا أن جاحد الصـلاة كـافر، وحكمـوا عليـه بـالردة، والـردة عقوبتهـا الإعـدام إذا رفض الاسـتتابة كمـا يقولـون، والمتقـاعس عن الصـلاة يتم جلـده.. علمـاً إن الشـعائر من صـلاة وزكـاة وحج وصوم لا يحق لأحد الحكم عليها، حتى الزكاة يمكن أن يـزكي الإنسان بالسر، والله تعالى سمح بالإنفاق بالسر والعلن)

ثم يـبين موقفـه مقابـل موقـف الفقهـاء؛ فيقـول: (أمـا موقفنا فهـو: لا يحـق لأي إنسـان أو سـلطة أن يكـره النـاس على إقامة الصلاة أو يمنعهم من إقامة الصلاة، وبالنسـبة لنـا الثواب والعقاب يكمن ضمن كلمة الله العليا الـتي هي حريـة الاختيار، فحرية الاختيار يقابلها طاعة الطاغوت.. أي أن حرية

الاختيار هي رأس الأمر كله، فإن كنا نؤمن بالله يجب أن نؤمن بحرية الاختيار.. وليس من مهمة السلطة أو أي مؤسسة سوق الناس بالقوة إلى الجنة، ولايحق لها إبعادهم بالقوة عن النار)

وهذا كله من الوسائل التي تهون من شأن الصلاة، وتجعل منها شيئا شخصيا بحتا لا مظهرا اجتماعيا للمسلمين الذين يعظمون الصلاة فرادى وجماعات.

وهو في ذلك يغفل عن تلك الآيات الكريمة الكثيرة التي لا تدعو إلى الصلاة فقط، وإنما تدعو إلى الأمر بها، والمبالغة في الأمر بها، كما قال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 132]، وكما أثنى على إسماعيل عليه السلام، فقال: {اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم: 54، 55]

بل إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ ـ في أول الدعوة الإسلامية ــ بأن يقيم مع أصحابه الصلاة، لا العادية فقط، وإنما قيام أوقات كثيرة من الليل، وأخبر أنهم طبقوا ذلك أحسن تطبيق، فقال: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المزمل: 20]

فهل كان قيام رسول الله ﷺ وأصحابه السابقين بهذا الجهد الكبير من الصلاة في الليل أو أكثر الليل مجرد وسيلة لتحقيق تلك الغايات التي هي موجودة عندهم أصلا، ولا حاجة

لهم للاستعانة بالصلاة لأجل تحقيقها؟

هذه مجرد خدعة من الخدع الـتي يسـتعملها التنويريـون للتحقير من شأن الصلاة، وهي مع خطورتها لا تسـاوي شـيئا أمام ذلك التأويل لمعناها.

ومن أمثلتـه مـا نشـره شـحرور في موقعه[1] لكـاتب تنـويري يشـرح معـنى الصـلاة، فيقـول مقـدما لـذلك بهـذه المقدمة التي توضح تصور التنويريين لغايـة الـدين: (مـاذا لـو أن سيدنا محمدا ﷺ لم يؤت القرآن.. أقصد لو كان مثل باقي معظم الأنبياء (مثل لـوط، يـونس، إدريس، إليـاس، شـعيب.. فهؤلاء أنبياء لم يفضلهم الله بكتب) ماذا نحن فاعلين كعـرب (قومية عربية) من حيث المعـــاملات والإنتـــاج والأبـــداع والأختراعات؟.. هل سنكون مثل اليابـان، فلم يـؤت لهم نـبي أو رسـول.. وانظـر الى حضـارتهم وتقـدمهم ونضـوج عقلهم واختراعاتهم!)

هذه هي المقدمة الخطـيرة الـتي توضـح البنيـة الماديـة للعقل التنويري؛ فالإنسان الكامل عندهم ليس أولئك الأنبيـاء والأولياء الممتلئين بالروحانية والتواصـل مـع اللـه، وإنمـا هـو الإنسان الياباني المنتج والمبدع والمخترع.

ثم راح ينطلــق من تلــك المقدمــة، ليوضــح المفهــوم الحقيقي للصلاة، والـذي غـاب عن السـنة النبويـة المطهـرة، كما غاب عن الفقهاء والمفسرين والعلماء في كـل العصـور، ومن كل المدارس الإسلامية؛ فيقـول: (لابـد من تعريـف مهم في حياتنا كمؤمنين.. هذا التعريف يخص الصلاة واسمح لي يا دكتور ـ يقصد شحرور ـ أن أعرفها: هي الديمومة الــتي يبقى فيها الفـرد متصـلاً باللـه، باحثـاً عن الحقيقـة والوسـيلة الـتي توصـله الى المعـارف الإلهيـه مـادام حيـاً.. ومن خلال هــذا الاتصال والبحث سيكتشف النور والحقيقة)

وقد يخطر على البـال هنـا أن مـراد الكـاتب هـو نفسـه

---

[1] مفهوم الصلاة، يعقوب العبيدي، موقع شحرور.

مـراد العـارفين من هـدف الصـلاة الـذي هـو المعرفـة باللـه والتواصـل معـه، لكن الأمـر ليس كـذلك، فهـو يقـول بعـد استعراضه لكم الكبير من الآيات القرآنيـة، يلـوي أعناقهـا كم يشـاء: (وبعـد انتهـاء عهـد وعصـر النبـوات كـان ولابـد على الانسان من مواصلة هذا النهج (الصلاة) من خلال هذا المقام العلمي للتوصـل إلى مزيـد من العلـوم والمعـارف الـتي لم تكتشف حتى يومنـا هـذا (مطلـع القـرن الواحـد والعشـرون) وعلينا نحن كمؤمنين بالله وبرسـوله وكتبـه وملائكتـه العـودة الى هـــذا النهج العلمي (الصـــلاة)، وأن نبقي في ديمومـــة التواصـل في البحث عن الظـواهر المعرفيـة وبـاقي العلـوم الـتي سـتخرج من الظلمـات الى النـور، وبهـا سـنخرج نحن كذلك دون الرجوع والنظر الى الخلف أو إلى الوراء وما قاله السلف وغيرهم.. ومن خلال هذه الأبحاث و الاكتشافات التي توصلنا إليها سيكافئنا الله عز وجل. من هنا نصل الى تعريـف مفهوم نظرية الصلاة)

وهكذا تتحول الصـلاة بهـذا المفهـوم إلى بحث علمي، لا إلى معـراج روحي، ويصـبح المصـلي حينهـا ذلـك البـاحث والمخـترع والمكتشـف، لا أولئـك البسـطاء الـذين يركعـون ويسجدون.

ولست أدري ما الداعي لخلط الأمور ببعضـها.. فـالمنهج العلمي محترم، والعلم محترم، والعلماء مهما كـانت أبحـاثهم محـترمين.. وهم ليسـوا جميعـا بحاجـة لأن نهـون من شـأن الصلاة من أجلهم، أو نعتبر أفعالهم صلاة، مـع أن الصـلاة في الشرع لها مفهومها ودلالتها الخاصة، والمقترنة بالتواصل مـع الله، لأجلـه، لا لأجـل شـيء آخـر، فاللـه هـو الغايـة الكـبرى، وليس هو مجرد وسيلة لتحقيـق رفاهنـا في الـدنيا، كمـا قـال تعـــالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } [النجم: 42]، وقـــال: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْـهُ نَـذِيرٌ مُبِينٌ} [الـذاريات: 50]، وقـال: {فَـإِذَا فَـرَغْتَ فَانْصَـبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَـارْغَبْ } [الشرح: 7، 8]

ومن هذا المنطلق يتلاعب شحرور بالألفاظ القرآنية، بل بالرسـم القـرآني ليعتـبر أن كـل كلمـة وردت في المصـحف الشريف بالألف [الصلاة]، فالمراد منها مجرد صــلة بين العبد وربه، وقالبها الدعاء، ولا تحتــاج إلى إقامة وطقــوس، ويؤديها كل إنسان له بالله صلة على طريقته الخاصة.

أما الواردة بالواو [الصـلوة]، فهي صـلة بين العبد وربـه، ولها طقوس وحركات محـددة خاصـة بهـا، كالقيـام والركـوع والسجود والقراءة، وتحتـاج إلى إقامـة، أي على الإنسـان أن يقوم ليؤديها.. ويعتبر أنها وردت في القرآن الكريم باعتبارهــا من شعائر الإيمان.

وربما يتوهم المرء بـادئ ذي بـدء أن هـذا الكلام لا غبـار عليه، ولا حرج فيه، فالصلاة مثل الركـوع والسـجود وغيرهمـا قد يقصد بها تلك الحركات المعروفة، وقد يقصـد بهـا مجـرد الصلة المطلقة مع الله، لكن شحرور لا يكتفي بهذا، ولا يقف عند هذا الحد، وإنما يستعمل حيلا كثيرة ليصل من خلالها إلى نتائج خطيرة جدا.

وملخص تلك النتائج ـ باختصار ـ هو أن الصلاة ـــ عنـده ـ نوعان: الأولى لا يصح الإسلام من دونها، وهو وجود صـلة مـع الله بأبسط صورها، كـأن نقـول (يـا رب ارحمـني) بـأي لغـة، وبـأي وقت وشـكل.. ومن يقطـع الصـلة مـع اللـه فهـو وفـق التنزيل الحكيم مجرم، وهو عكس مسلم.. فكل إنسان قطـع صلته بالله تماماً وكذَّب باليوم الآخر هـو من المجـرمين وهـو ليس من المصلين.

وبناء على هذا يفسر كل الآيات الـتي وردت في عقوبـة تارك الصـلاة كقولـه تعـالى: {فَوَيْـلٌ لِلْمُصَـلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون: 4ـ، 5]، والـتي يعقب عليهـا بقوله: (فهنا الكلام ليس عن ظهر وعصر ومغـرب، بـل عمن قطع صلته مع الله، لأن الويـل أيضـاً للمكـذبين باللـه واليـوم الآخر، وهذا لا يمكن أن يكون لمن فقـط تقـاعس عن إقامـة صلاته، فنرى أن هناك عقوبة واضحة للمجرم قاطع الصلة)

أما النوع الثاني، وهو ما يسميه [الصلاة الشعائرية]، ويرى شحرور أن الله تعالى لم يذكر أي عقوبة لتارك هذا النوع من الصلاة، ذلك أن الصلاة الأساسية عنده هي الصلاة الأولى، أما الصلاة الثانية، فليست لها تلك الأهمية، ولا يتعلق بها العقاب لا الدنيوي، ولا الأخروي، وقد أجاب عن سر ذلك عند تعليقه على قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45]، فقال: (رب سائل يسأل: الله أكبر من ماذا؟ السؤال الصحيح: ذكر الله أكبر؟ وذكر الله أكبر ممن ماذا؟ أقول: ذكر الله أكبر من إقامة الصلاة ذاتها، أي أن الإنسان يجب أن يكون من المصلين أولاً، وإذا دخل الإيمان يكون من مقيمي الصلاة، أي في بعض البلدان إن وجد مسجد ولم يوجد من يقيم الصلاة فعلى الأقل نحافظ على الأذان لأنه ذكر الله علناً)

وبهذا فإن الصلاة الحقيقية والتي توعد الله التاركين لها عنده هي الدعاء، والمصلي عنده هو الذي يكتفي بدعاء الله، ولا يهم على أي دين كان.. فالمسلم عنده يشمل كل منتسب لأي دين من الأديان.

ولا يكتفي التنويريون بهذا، وإنما راحوا للصلاة الشعائرية نفسها يردون على جميع ما اتفقت عليه المدارس الإسلامية في شأنها، وشأن أركانها ومواقيتها ومستحباتها.. ويحتقرون كل الفقهاء الذين تحدثوا عن تفاصيلها.

ومن الأمثلة على ذلك ما نشره شحرور في موقعه من تنويري يتحدى كل فقهاء المسلمين بأن يردوا عليه إن استطاعوا[1]، وهو يتعلق بعدد الصلوات، والتي يرى أنها ليست تلك الصلوات الخمسة المعروفة، وإنما هي ثلاثة فقط: صلاة في الصباح الباكر، ووقتها في أول النهار.. ومقدارها من الوقت: هو مقدار طرف النهار، ويبدأ من بداية النهار عند تلاشي الظلام إلى قبل طلوع الشمس.. وصلاة

---

(1) انظر مقالا بعنوان: أنزل الله ثلاث صلوات وليس خمسا – بنور صالح.

في المساء، ووقتها في آخر النهار، ومقدارها من الوقت: هو مقدار طرف النهار، ويبدأ هذا التوقيت من قبل غروب الشمس إلى آخر النهار عند بداية الظلام، أي عكس ما يقع في الصباح تماما.. وصلاة في الليل، ووقتها في أول الليل، ومقدارها من الوقت: يبدأ توقيتها من أول الليل إلى غسقه أي حتى يشتد الظلام.

ويلخص ذلك بقوله: (وخلاصة القول أن الله فرض علينا ثلاثة أوقات تقام فيها الصلاة، صلاة في أول النهار وتسمى الفجر، وصلاة في آخر النهار وتسمى الوسطى، وصلاة في أول الليل وتسمى العشاء، ولم ينزل الله غير هذا إلا ما كان نافلة في الليل، ومن قال غير هذا فقد افترى على الله كذبا وقال على الله ما لم ينزل به سلطانا)

وبعد أن يذكر مجموعة آيات كريمة تتحدث عن الصلاة وأوقاتها بعيدا عما ورد في تفسيرها من السنة المطهرة المتواترة والمجمع عليها، يقف على برجيه العاجي قائلا بكل غرور: (إلى جميع العلماء، رؤساء الأحزاب الإسلامية، رؤساء الأحزاب التالية: السنة، الشيعة، الإباضية، المعتزلة، المالكية، الحنفية، الحنبلية، الشافعية، الزيدية، الجعفرية، الإمامية، المهدوية، الصوفية، الشاذلية، القادرية، التيجانية، العلوية.. القرآنيين، الباطنية، الظاهرية.. إلى جميع الشعوب العربية والإسلامية.. اذكروا لنا الصلاة التي أنزلها الله ومواقيتها، ومن الآيات العديدة التي أنزلها الله في الصلاة إليكم)

ثم يذكر قوله تعالى: { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: 114]، ثم يسأل تلك الطوائف جميعا قائلا: (هل هذه الآية منسوخة؟.. هل هي فاعلة إلى يومنا هذا؟.. وهل يجب أن نعمل بها أملا؟.. كم صلاة أنزل الله فيها؟ 3 أم 5.. وما هي هذه الصلوات؟ أذكر أوقاتها، وأين هي الصلاة الوسطى في هذه الصلوات.. هل قرأ النبي هذه الآية على الناس؟.. هل بلغها؟.. هل تكلم بها بلسانه أم لا؟.. هل عمل بها؟.. وكم

صلى حين عمل بها؟.. وهل هو الذي شرع الظهر والعصر؟.. إذا لم يكن هو فمن الذي شرعهما؟.. هل صلاة الظهر والعصر فرض؟.. إذا قلتم فرض فمن فرضهما؟ وأين فرضهما؟.. وما حكم الذي لم يصليهما، هل ارتكب معصية؟ إذا قلتم نعم، فمن عصى؟.. من الذي يشرع للعباد؟.. إذا شرع آخر مع الله هل هذا شرك بالله أم لا؟)

وهكذا يتحول من صلى الظهر والعصر عنده مبتدعا ومشركا وضالا بمجرد أسئلة يسألها عن آية لم يفهم معناها، ولا معاني غيرها من الآيات، وكيف يفهمها، وقد أبعد من أوكله الله بتأويلها وتوضيحها وتحديد المقصود منها، وهو رسول الله ﷺ الذي ذكر الله دوره العظيم المرتبط بالقرآن الكريم، فقال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 44]

وقد ختم عجرفته تلك بقوله: (قدموا شهادة على الصلاة التي تصلونها على أن الله هو الذي أنزلها عليكم، وأي شخص يقول بصلاة معينة يقدم شهادة عليها على أن الله هو الذي أنزلها، وإذا لم تجيبوا على هذه الأسئلة، وتقدموا شهادة عليها وعلى صلاتكم، فاعلموا أنكم حكمتم على أنفسكم أنكم مشركين، لست أنا الذي أحكم عليكم، بل تركتكم لتحكموا على أنفسكم، لقد أشركتم بالله في تشريعه ما لم ينزل به سلطانا، ومن فعل ذلك علم أم لم يعلم فهو من المشركين، فلا أحد يكفركم ولا أحد يضللكم بل أنتم الذين ستحكمون على أنفسكم هنا في الدنيا قبل الآخرة، والذي أنزله الله هو الذي كشف شرككم كما كشف شرك الذين من قبلكم، فهو الوحيد الذي يكشف ما قبله وما بعده، والآن أنتم على علم بضلالكم وشرككم، وما يزيدكم هذا الحق والتبيان إلا نفورا وطغيانا، استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله)

ثم راح يقدم شهادته في كيفية الصلاة قائلا: (أشهد أني المسمى بنور صالح صاحب هذه الدعوة، وأشهد أن كل نبي

رسول من الله وختمت الرسالة والنبوة بمحمد، وأشهد أمـام الله وأمام العبـاد وأقسـم باللـه العلي العظيم أن اللـه أنـزل ثلاث صلوات مفروضة، صلاة الفجر والصلاة الوسطى وصلاة العشاء، وصلاة النافلة في الليل فقط، هذه هي الصـلاة الـتي أنزلها الله وختم التنزيل على هذه الصلاة، وأن اللـه لم يـنزل صلاة الظهر ولا صـلاة العصـر، وأن نبينـا محمـدا كـان يصـلي الثلاث صلوات الـتي ذكرتهـا وأنـه مـات على هـذه الصـلوات الثلاث، وليس هو الذي شرع صلاة الظهر وصلاة العصـر، بـل الناس هم الذين شرعوا ذلك، وأن كـل الأنبيـاء كـانوا يصـلون هذه الصلوات الثلاث وفي هذه الأوقات، ولم ينزل الله بصلاة في الظهيرة أبدا على الإطلاق في جميع الكتب المنزلة الـتي نعرفها والتي لا نعرفهـا، وأن الصـلاة لم تتغـير منـذ أن أنـزل الله الهدايـة على البشـر إلى يـوم الـدين، وأن اللـه لم يـنزل الصـلاة مقـدرة بالركعـات، بـل أنزلهـا دائمـا وأبـدا مقـدرة بالوقت، وأن النبي كان يصلي الصلاة مقـدرة بـالوقت وليس بعــدد الركعــات، وأن الصــلاة الوســطى تبــدأ قبــل غــروب الشـمس، وأن النـبي والأنبيـاء كلهم كـانوا يصـلون الوسـطى قبل غروب الشمس، وأن الركوع ليس الانحناء، وأن اللــه لم ينزل الانحنـاء ولم يشـرع بـه في الصـلاة، وأن النـبي وجميـع الأنبياء لم يكونوا يقومـون بالانحنـاء في الصـلاة، وأن اللـه لم يـنزل صـلاة الجمعـة، ولا صـلاة الأحـد، ولا صـلاة السـبت، إلا الصلاة المذكورة سابقا، وأن النبي وجميـع الأنبيـاء لم يكونـوا يصلون صلاة الجمعة ولا صـلاة السـبت ولا صـلاة الأحـد، وأن الله لم يـنزل صـلاة الأعيـاد، ولا صـلاة في الأعيـاد أبـدا، وأن النبي وجميع الأنبياء لم يكونوا يصلون صلاة الأعياد، وأن اللــه لم ينزل صـلاة الاستسـقاء إلا إن أراد النـاس أن يتقربـوا للـه بالصلاة النافلة في الليل، وأن الله لم ينزل صـلاة الجنـازة إلا أن يدعو الناس لموتاهم كدعاء بعضهم لبعض وهم أحياء، وأن الصلاة على النبي هي الدعاء له بالرحمـة والاسـتغفار، وليس هذا الشكل الذي يقال، وأخـيرا إن كنت كـذبت على اللـه في شـيء من هـذه الشـهادة ولـو شـيء قليـل فلعنـة اللـه على الكاذبين.. هذه شهادتي، فقـدموا عكسـها في مـا تخـالفونني

فيه، واعلموا بإذن الله أنكم لا تفعلون.. لأنكم تعلمون أنكم تكذبون)

ثم ختم بملاحظة يقول فيها: (كل من قرأ هذا الموضوع أرجو أن ينقله إلى علمائه وشيوخه للرد عليه إن كانوا صادقين في ما يعبدون.. وليعلم الناس أن علماءهم يعلمون الحق ولكنهم يكتمونه، فهم يفعلون كما فعل الذين من قبلهم، فهم لا يهتدون)

هذا مجرد نموذج عن التلاعب بالصلاة واحتقارها واحتقار كل ما ورد في شأنها، ولو تتبعنا تفاصيل ما ذكره التنويريون الجدد في شأنها لوصلنا إلى نتائج أخطر بكثير من التي ذكرناها، فذلك نكتفي بهذا، لنعرف مدى التطرف الذي وقع فيه التنويريون، وأنهم حاولوا أن يعالجوا التطرف السلفي، فوقعوا في تطرف أشد منه.

التنويريون.. والصيام

من العبادات التي تضايق بها دعاة التحضـر والتنـوير في بلادنا العربية والإسلامية، ومنذ فترة طويلة [عبـادة الصـيام]، والتي توهموا أنها تقف دون العمل والإنتاج، وتقف بــذلك بين بلادنا وبين أن تتطور مثلما تطور العـالم الغـربي الـذي يعتـبر عندهم نموذج الحضارة المثالية.

ولم يقف ذلك الموقف المتضايق من الصيام المفكرون والباحثون من حملة الأقلام فقط، بل انضم إليهم السياسيون أيضا.. وكان من أبرزهم الرئيس التونسـيّ السـابق [الحـبيب بورقيبة]، الذي دعا العمـالَ إلى الإفطـار في رمضـان لزيـادة الإنتاج، وقدم خطبة طويلة في ذلك.

وقد ذكر في مصادر إخبارية كثيرة أنه طلب من العلامـة الفقيه [محمد الطاهر بن عاشـور] أن يفـتي في الإذاعـة بمـا يوافق ذلك، وذكرت أن الجمهور التونسي ترقّب تلك الفتــوى من خلال البثّ الإذاعيّ، لكن الشيخ أخلف ظن رئيســه، وراح يقرأ قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّـيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183]، ثمّ قال بعـدها: (صـدق اللـه، وكـذب بورقيبـة)، ثم أفـتى بحرمـة الإفطار بحسب الفتوى التي اعتمدها الرئيس التونسي.

لست أدري مدى دقة هذه المعلومة، والـتي وجـدتها في مصادر كثيرة جدا، ولكن مهما يكن شأنها؛ فإنها تـدل على أن العلماء المحققين من أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشــور ـ مع علمه باللغة العربيـة، ومقاصـد الشـريعة ــ لم يفهم من آيات الصيام إلا ما يفهمه كل مؤمن عادي بسيط.

فهو لم يتكلف، ولم يخـرج عن المـألوف، ولم يبحث لـه عن رأي نشاز يتميز به بين الناس، وذلك كله مع علمه الكبير بالقرآن الكريم، وباللغة العربية، وبمقاصد الشريعة، والذي لا يستطيع أحد من التنويريين وخاصة من أولئك الـذين يسـمون

أنفسهم قرآنيين، أن يضاهوه فيه.

لكن إذا تركناه، وذهبنا إلى هؤلاء التنويريين الجدد الذين رزقوا جرأة على اقتحام كل شيء، والبحث عن أي جديد، والخروج عن كل معروف ومألوف ومجمع عليه، وجدنا العجب العجاب.

وأول ذلك العجب هو اتفاق أكثر التنويريين على ما يهدم الصيام من أساسه، بحيث يجعل منه شعيرة اختيارية الأولى تركها، واستبدالها بإطعام المساكين.. لأن في إطعام المساكين ـ بحسب تصوراتهم ـ خدمة اجتماعية حضارية، بخلاف الصيام الذي يؤثر على الإنتاج والتطور والرقي.

وممن أدلى بدلوه في هذا، وكان للإعلام دور كبير في الإشهار لطروحاته [المهندس محمد شحرور] الذي نشر المقالات والفيديوهات الكثيرة التي يجيز فيها الإفطار في رمضان لمن شاء، مع إطعام المساكين بدل ذلك.

والمشكلة الكبرى هي أنه استعمل القرآن الكريم لذلك مستخدما قواميسه المعروفة، والتي تجعله يجادل في القرآن الكريم كما يشاء، وكيف لا يفعل ذلك، وقد عزل رسول الله ﷺ الذي كلفه الله ببيان القرآن.. وعزل الفقهاء والمفسرين عزلا تاما.. ليعتبر نفسه صاحب الفهم الصحيح الوحيد للقرآن الكريم.

والآية التي اعتمد عليها هي قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 184]

وقد قال الراغب الأصفهاني ـ وهو العالم اللغوي صاحب السبق في البحث في مفردات القرآن الكريم ــ في تفسيرها: (وروي عن ابن عباس في أصح الروايتين أن ذلك في الشيخ والشيخة الهرمين والحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما، فلفظ (الطاقة) ههنا ينبيء عن ذلك، فإن الطاقة هي التي تبلغ غاية المشقة، ولا يخرج عن القدرة

والعجز، فذكر أن هؤلاء الذين يبلغ بهم الصوم غاية المشقة يجوز لهم الإفطار والفدية وقرئ (يُطَوقونه) أي يتكلفونه بجهد، وقرئ (يطوقونه) أي يحملون على أن يتطوقوا)[1]

ومثله قال الزمخشري، وهو الذي لا يجادل أحد في معرفته باللغة العربية، وتذوقه لبلاغتها، فقد قال في تفسيره للآية الكريمة: (ويطيقونه ويطيقونه بمعنى يتطوقونه، وأصلهما يطيوقونه ويتطيوقونه، على أنهما من فيعل وتفعيل من الطوق، فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء كقولهم: تدير المكان وما بها ديار. وفيه وجهان: أحدهما نحو معنى يطيقونه. والثاني يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز، وحكم هؤلاء الإفطار والفدية)[2]

لكن شحرورا وأصحابه ـ والذي توهم نفسه قد أحاط بالعربية وبالقرآن الكريم ـ راح يستعمل تلك الكلمة القرآنية للإجهاز على هذه الشعيرة من شعائر الله، بحيث يفرغها من محتواها تفريغا تاما.

وقد قال في مقال له بمناسبة حلول شهر رمضان[3]، وبعد أن راح يحرض على الشعب السوري والدولة السورية، ويعتبرهما سبب ما يحصل من فتن، ناسيا أنه لولا تلك العمائم الممتلئة بالاستبداد لما استطاع أن ينشر أفكاره التخريبية للدين والدنيا جميعا.

بعد أن قال ذلك راح يستعمل كل الحيل المعهودة ـ باسم رفع الحرج ـ ليقضي على الصيام، إلى أن انتهى إلى هذه النتيجة، التي عبر عنها بقوله: (فالآية الأولى هي الآية المحكمة المتعلقة بالصوم، وكل ما ورد فيما يتعلق

1() تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 389)

2() الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 226)

3() الصيام وفق الاستطاعة، محمد شحرور، منشور بتاريخ 22 يونيو 2015.

بالموضوع هو تفصيل لهذه الآية، وفي التفصيل حدد من يشمله الإعفاء من الصيام (الآية 184)، بداية من لا يتحمله (لا طاقة له به) وهما المريض والمسافر فيمكنهما تأجيل الصيام لوقت آخر، ثم من يتحمله (يطيقونه) فيمكنه دفع فدية [إطعام مسكين]، فإن كنت تستطيع الصيام فالصيام خير لك، وإن كنت لا تريد فعليك بالفدية وهي إطعام مسكين كحدٍ أدنى)

ثم راح يتهم جميع المفسرين في جميع مراحل التاريخ أنهم لم يفهموا معنى الآية الكريمة، فقال: (والمفارقة هنا أن السادة المفسرين وضعوا [لا] قبل [يطيقونه]، فيجد الباحث عن تفسير [يطيقونه]: [لا يطيقونه]، أو [يطيقونه بصعوبة].. وحرموا على الناس الإفطار برمضان مهما كانت الأسباب عدا المرض والسفر، وإلا صيام شهرين متتاليين، وقد يغفر الله وقد لا يغفر، مع أن التنزيل الحكيم لم يقل بذلك)

وهذا افتراء على المفسرين وعلى اللغويين قبلهم، لأن نفس كلمة [يطيقونه] في اللغة العربية تدل على معنى العنت والجهد الشديد الذي يصيب الصائم، والذي يبيح له الإفطار مع الفدية أو القضاء، بحسب حالته العمرية والصحية.. وقد ذكر ذلك جميع علماء اللغة واتفقوا عليه.. لكن شحرورا فهم هذه الكلمة على حسب المتعارف عليه، مع أنه يعلم أن اللغة العربية واسعة، أن اللفظة الواحدة لها دلالات متعددة..

ولم يكتف بذلك، بل راح إلى إطعام المسكين نفسه يتساهل فيه، ويلغيه، أي أن الذي يقدر على الصيام، ولكنه لا يرغب فيه، ويرغب في الفدية بدله، يمكنه ألا يقدمها أيضا إن لم يكن قادرا على تقديمها، وقد قال معبرا عن ذلك: (قد يقول البعض، وهل العامل قادر على دفع الفدية؟ وهل هذا الدين للأغنياء فقط؟ أقول لا، فالصيام وفق الاستطاعة ومن لا يملك قوت يومه لا حرج عليه، وكفانا تصوير الله تعالى وكأنه شرطي يتربص بالعباد، فقد قال وجل من قائل {وَأَن

تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} وأتبعها بقوله {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ})

ثم راح ـ كسائر التنويريين ـ يصور الآثار العملية لهذه الفتوى الخطيرة التي تزيل هذه الشعيرة عن الإسلام، وتجعل المسلم مخيرا بين الصيام والفدية، بل تضع عنه الفدية نفسها، وتجعله في حل من إخراجها، فقال: (ولنتخيل حال عالمنا العربي والإسلامي لو كل من لا يريد الصيام أطعم مسكيناً في اليوم، أو لو تم جمع البدل النقدي عن فدية صيام من يعيشون في شمال أوروبا، هل سنجد جائعاً في بلداننا؟)

ثم راح يعلل ذلك بتصوره للحرية الدينية، والتي تتيح للمسلم أن يترك الصلاة والصيام وكل الشعائر التعبدية ما دام غير راغب فيها، من غير أن يخل ذلك بإسلامه ولا إيمانه ولا دينه، فقال: (وأكرر أن الشعائر يأتيها الإنسان طواعية، دون إرغام، وهي أهم تطبيق للآية {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} (البقرة 256)، والصيام يفقد معناه إن كان إلزامياً، لذا فإن فرض عقوبة أو غرامة على المفطرين هو أمر غير مقبول، ومراعاة مشاعر الصائمين أمر جميل، لكن ليس أكثر من ذلك. أيضاً ما نراه من تحميل عباد الله فضلاً بحجة الصيام، أو تعطيل الأعمال والأشغال بهذه الحجة، فهذا أبعد ما يكون عن ديننا)

ولم يكتف شحرور وسائر الشحارير الذين يظهرون كل يوم بهذا، بل راح إلى ميقات شهر رمضان نفسه، والذي حدده القرآن الكريم بدقة، ليحوله إلى شهر شمسي، مرتبط بفصل محدد هو فصل الخريف، حتى يزيل عن أتباعه مشقة الصيام في فصل الصيف.

وقد قال معبرا عن ذلك: (يبقى أن نشير إلى أن الأشهر القمرية تحتاج لتصحيح، يقوم به المختصون ويجمعون عليه، بحيث توافق الأشهر القمرية الأشهر الشمسية، أي ما يسمى بالنسيء، وأعتقد أن رمضان يوافق الشهر التاسع الميلادي

(أيلـول، سـبتمبر)، إذ يكـون النهـار مسـاوياً لليـل في نصـفي الكرة الأرضية، علماً أن النسيء المحرم هو ما كان يقوم بــه العرب من تأخير وتقديم للأشـهر بحيث يوافـق الحج مواسـم التجارة، وليس تصحيحاً وفق قواعد ثابتة)

وفي آخر مقاله لم ينس أن يعيد ما يكرره كــل حين من دعـوة الشـعب السـوري إلى الثـورة للحصـول على الحريـة، ناسـيا أنــه يقتـات من أمـوال الملـوك والأمـراء، وأعظم من عرفهم التاريخ من أصناف المستبدين.

ولم يكتف شحرور بطـرح أفكـاره في مقالاتـه، بـل هـو يفتي بها باعتباره مفتي الإسلام الأكبر، وقد سألته امــرأة عن بعض أحكام الصيام؛ فأجابها بقوله: (أشكرك على مشاعرك، وقت الصيام يدخل ضمن حدود الله التي نهانـا عن الاقـتراب منهـا وهي من الفجـر وحـتى الليـل.. ولكن لـك أن تعلمي أن من لا يــرغب الصــوم يمكن أن يطعم مســكينا.. وعليــك أن تعلمي أن هناك ثلاث فئات من الناس: المرضى – على سفر – القـادرين على الصـيام.. أي ليسـوا مرضى ولا على سـفر، هـؤلاء رغبة الصـوم عنـدهم مفتوحة على الفدية أو الصـوم، والحد الأدنى للفديـة هـو طعـام مسـكين حسـب إمكانياتـك ومستوى البلد الذي تعيشين فيـه، وهنـا قـال: {وَأَنْ تَصُـومُوا خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: 184] هنا يخاطب المسـتطيع، والـذي لـه الخيـار بين الفديـة والصـوم، قـال الصـوم خـير لكم من بـاب الترجيح وليس الفرض، لـذا فعليـك الفديـة ولا تسـتمعي إلى من يقول الصوم حسب مكـة أو حسـب أقـرب بلـد إسـلامي فهذه إفتاءات ليست أكثر من هراء، وكوني مطمئنة بالفديــة، وانصحي الآخرين)

ثم راح يقترح عليها، وعلى المسـلمين ــ بحسـب الـدين الجديد الذي جاء به ـ قائلا: (وأرى إنشاء مؤسســة في بلـدان أوربا الشمالية تسمى (مؤسسة إطعام مسكين) توضـع فيهـا أمـوال فديـة رمضـان، ويفتح بهـا مطـاعم لإطعـام الفقـراء والمحتاجين فهذا أفضل)

أي أن هذا أفضل من الصيام.. وبذلك فعل شحرور بهذه الأمة نفس ما فعله بولس في المسيحية عنـدما حـررهم من شريعتها وأحكامها.

ولم يقف الأمر عنده، بـل إننـا نجـد كـل يـوم من ينـادي بمثل هذه الطروحات، بل يحاول أن يغرب فيها، لأن دين الله أصبح سلعة لكل تاجر، وباحث عن الشهرة.

ومن الشخصـيات الـتي كتبت في هــذا، ودعت إليــه بحماسـة لا تقـل عن حماسـة شـحرور أسـتاذ جـامعي اسـمه [يوســف قرنفل] الــذي كتب مقــالا بعنــوان [هــل الصــيام اختيار؟]، ومما جـاء فيـه قولـه: (المـؤمن مخـير بين الصـيام وبين الإفطار. إن شاء صـام وإن شـاء أفطـر ولا ذنب عليـه.. ويفدي عن كل يـوم أفطـر فيـه بإطعـام مسـكين؛ وإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم أفطر فيه فهو خير) [1]

ومنها [فوزى فراج] الذي راح يدعي أن له الســبق على الفكرة التي طرحها شحرور، فقد قال في مقال له في ذلك: (التفسير الذى جاء به الاستاذ شحرور ليس جديدا، فقـد قلت مثله منذ سنوات، والآية من وجهة نظرى واضـحة جـدا، فقـد قسم الله الناس فى موضوع الصـيام إلى ثلاثـة أنـواع: الأول هم المرضى أو من على سفر، وقد صـرح لهم بعـدم الصـيام أى الإفطار على أن يصوموا فى أيام أخرى بعد إنتهاء السـفر او المـرض.. الثـانى وهم الـذين يسـتطيعون الصـيام ولكنهم لأسبابهم الخاصة والتى لا يعرفها إلا الله، لا يريـدون الصـيام، فأحل لهم الإفطار مع إطعام مسـكين، أو أكـثر من مسـكين، ولكنـه فى نفس الـوقت نصـحهم بـأن الصـيام خـير لهم من ذلك.. الثالث وهم الأغلبية من الناس الذين سـوف يصـومون الشهر كما كتب الله ذلك عليهم)[2]

---

[1] هل الصيام اختيار؟، يوسف قرنفل، 29 ماي 2016.

[2] شهر رمضان الذى يأتى كل عام، فوزى فراج، 02 تموز 2014.

ثم راح يـردد مـا ذكـره شـحرور وغـيره، والجديـد الـذي أضافه في هذا الباب هو تفسيره لمعنى التقـوى الـواردة في الآية الكريمة، والتي اعتبرت علة للصوم، لكونه يـربي النفس ويهذبها، ويرفع عنها القيود التي تقيدها بها شهواتها.

لكنه نظر إلى المسألة من زاوية تجديدية مادية، فقــال: (الصيام ليس من أجل أن يجـوع أو يعطش الصـائم أو يحـرم من معاشرة زوجته أو زوجها، الصيام من أجل التقوى كسبب رئيسـى ورغم ذلـك فليس من المؤكـد ان كـل صـائم سـوف يصل إلى التقوى بصيامه.. والإحصائيات تفيد بـأن خلال شـهر رمضان يقل الإنتاج فى العالم الإسلامى إلى النصف أو أقــل، وجميعنـا من عـاش فى المجتمعـات العربيـة والمصـرية يعلم ذلك جيدا، ويعلم التبـاطؤ والتكاسـل والتغيب ممـا يـؤدى إلى تعطيل المصالح وكثرة الإختلافات والشجار بين الناس وزيادة حالات الطلاق، وكل ذلك كما يدعون بسبب الصيام، والصـيام الذى أمر الله به بريء من كل ذلك)

ولذلك؛ فإن الحل بالنسبة لـه هـو اعتبـار الصـيام عبـادة تخييرية؛ فمن شاء أن يصوم صام، ومن شاء أن يفطر أفطـر من غير حرج، وليس عليه سوى أن يطعم مسكينا واحدا بدل ذلك اليوم.. وإن كان هو المسكين؛ فيمكنـه أن يطعم نفسـه، ويعتـبر بـذلك صـائما.. بـل يـؤجر أكـثر إن اسـتطاع أن يرفـع الإنتاج، ويحقق الرفـاه الاجتمـاعي الـذي هـو الغايـة العظمى التي خلق من أجلها الإنسان، كما يصور التنويريون.

التنويريون.. ومعركة الحجاب

من المعارك الـتي اتفـق التنويريـون قـديمهم وحـديثهم، على خوضـها، واعتبارهـا من المعـارك الأساسـية المفصـلية الكـبرى المعركـة الـتي يمكن أن نطلـق عليهـا [معركـة الحجاب]، وهي معركة لا يصح الاستهانة بهـا، ولا التهـوين من شأنها، لأنها لا تتعلق فقط بذلك اللباس الـذي ترتديـه المـرأة لتحصن العيون من سهامها المسمومة، وإنما لـه علاقـة بكـل القيم الأخلاقية والاجتماعية والحضارية.

فالحجاب رمز للعفة والطهـارة والتضـحية، ولكـل القيم النبيلـة، ذلـك أن المـرأة الـتي تسـتر محاسـنها وفتنتهـا، في الوقت الذي تحب بفطرتها أن يظهر ذلك منها، تقوم بتضـحية كبيرة، وتؤدي واجبـا إنسـانيا وأخلاقيـا رفيعـا، ذلـك أنهـا بهـذا السـلوك الرفيـع تـرحم مـا أودع اللـه في شـقيقها الآخـر من تطلع إليها، وفتنة بها، ولا تكلفه عنتا بأن يغض طرفه عنها، أو يكف نفسه عن التحرش بها.

وهو رمز لطهـارة القلب، وسـمو الـروح، وتجـرد العقـل وتحكمـه في صـاحبه، ذلـك أن المـرأة الـتي تسـتر مفـاتن جسدها، إنما تقول للمجتمع، ولكل المتطلعين إليها: أنا لست جسدا فقط، وإنما أنـا روح وعقـل وقلب ولـدي من الأشـواق والسـمو الـروحي مـا للرجـل تمامـا؛ فلـذلك لا ينظـر إليهـا باعتبارها فتنة، وإنما باعتبارها أسـوة ونموذجـا ومثـالا إنسـانيا رفيعا.

وهكـذا نـرى الحجـاب معـنى من المعـاني الـتي اتفقت عليها جميع الديانات، وتوحـد على الـدعوة إليهـا كـل الأوليـاء والأنبياء والمصلحين.

لكن التنويريين القـدامى والجـدد لم يلاحظـوا كـل هـذه المعاني، وإنما تصوروه مجرد خرقة ولباس لا معنى لهـا، بـل تصـوروه نوعـا من التـدخل الإلهي أو الـذكوري في شـأن

المرأة، وأنه مخالف للحضارة، وأن البشرية لن تتحضر حتى تتحرر المرأة من لباسها، لتصبح مرعى خصيبا لكل ذئاب الدنيا وكلابها.

وقد استعملوا في هذه الحرب مجموعة أسلحة، نشير إلى أهمها هنا:

أولا ـ سلاح التحضر والرقي:

وهو سلاح اتفق عليه القدامى والمحدثون، حتى أن بعضهم تصور أن سبب تخلف المسلمين هو الحجاب، وأن رمز رقيهم هو نزعه، ولذلك راح ينادي بخلع الحجاب حتى تترقى الأمة، وتترفع عن تخلفها.

ولذلك لا يربط التنويريون التطور العلمي والتقني الأوروبي بتوفر الظروف المناسبة للبحث والإنتاج العلمي، وإنما يربطونه بوجود المرأة التي تتخلى عن حجابها، كما تتخلى عن حيائها وعفتها، وتعمل بنفسها كل ما يرضي نزوات الرجل.

وقد صرح بذلك بعضهم، فقال ـ يمدح الانحلال الأخلاقي في المجتمع الأوربي ـ: (يضم المجتمع الأوربي الرجال والنساء دائماً، فيسهل الاتصال بينهم، وتنشأ فيما بينهم علاقات آلفة وصداقة وحب، وهذا الاختلاط بين الجنسين في الاجتماعات يُسبغ، عليها عذوبة ورقة، فالسحر الذي تشيعه المرأة في كل مكان توجد فيه شيء ممتع ونفاذ كعطر الزهور. وفي مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائماً بالمرح، وغالباً ما يتودد للغير، ويخرج في النهاية مفعم القلب بالرضا!) (1)

وبناء على هذا تصور أنه لا يمكن أن تترقى الأمة، ولا أن تتحضر، ولا أن ترفع عنها جلباب التخلف إلا إذا رفعت عن المرأة الجلباب الذي أمرها الله بلباسه، وقد قال معبرا عن

---

1) المصريون، ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين، تحقيق الدكتور محمد عمارة (ص 258)

ذلك: (ليس من الممكن أن تصل المرأة إلى هذه المنزلة الأدبية ما دامت في الحجاب، ولكن من السهل جداً أن تصل إليها بالحرية، تصل إليها كما وصلت إليها غيرها من النساء الغربيات.. فإنا نرى أنه كلما زيد في حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها) (1)

وهو لا يستدل لهذا بما نراه في واقع المرأة الغربية من تحولها إلى مجرد سلعة للإعلانات التي توضع فيها بجانب الحلويات والمأكولات والملبوسات، وكأنها مجرد متعة من تلك المتع، وإنما يستدل لها بما تعود السلفيون أن يستدلوا به، وهو الرجال، فهو يرى أن العقل الأوروبي الذي استطاع أن يتقدم في الكثير من المجالات لا يمكن اتهامه في هذا المجال.

وقد عبر عن ذلك بقوله: (هل يظن المصريون أن رجال أوروبا، مع أنهم بلغو من كمال العقل والشعور مبلغاً مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده بأعيننا، وأن تلك النفوس التي تخاطر في كل يوم بحياتها في طلب العلم والمعالي وتفضل الشرف على لذة الحياة، هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التي نعجب بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها؟! هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيراً فيه؟ كلا!. وإنما الإفراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول السذج وتركن إليها نفوسهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق) (2)

وهو ـ هنا ـ يقع في خلط كبير بين الرقي المادي والرقي الأخلاقي، فيتصور أنهما يسيران في خط واحد، مع أن الأمر مختلف تماما، فقد يسير الإنسان إلى أعلى قمم التطور المادي، في نفس الوقت الذي ينهار فيه أخلاقيا إلى

1) المرجع السابق (ص 451).

2) المرجع السابق (ص 372).

أدنى مـراتب الإنسـانية، بـل قـد يـنزل إلى مـراتب البهيميـة نفسها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هـذا المعـنى عنـدما اعتـبر كل التطور المـادي، والعلـوم المرتبطـة بـه، إنمـا هـو ظـاهر الحياة الدنيا، لا حقيقة الحياة، كمـا قـال تعـالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُـونَ ظَـاهِرًا مِنَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: 6، 7]

ولـذلك، فـإن المفتـون بـالغرب المـادي محجـوب عن الغـرب القيمي، ذلـك الـذي انهـار فيـه الإنسـان انهيـارا تامـا بشـهادة الغربـيين أنفسـهم، بـل بشـهادة هـؤلاء التنـويريين أنفسهم، فقد قال قاسم أمين ناقضا كلامه السـابق: (المـرأة الفرنسية حين تتزوج تصبح كائناً ناقصـاً، وترتـد إلى الطفولـة ثانياً)(1)

وقال: (إن عادات بعض الطبقات الأوربيـة سـاهمت .كما لو كـــان ذلك عن قصد- في زيـــادة الفـــرص الـــتي تيسر السقوط)(2)

وقال: (تكشف الإحصاءات الفرنسية عن أن نسبة واحـد وأربعين في المائــة من نســاء الهــوى المعروفــات رســمياً قاصرات، وأن أكـثر من ربـع المواليـد المعـروفين أبنـاء غـير شرعيين، وأن المجتمع يفقـد كـل عـام مائـة وخمسـين ألـف طفل يُقتلون ساعة ولادتهم أو خلال الحمل)(3)

وقال: (إن ما هـو القاعـدة في أوربـا .بخاصة فيما يتعلق

1) المرجع السابق (ص 250).

2) المرجع السابق (ص 260).

3) المرجع السابق (ص 274).

بخيانة الأزواج- ليس في مصر إلا الاستثناء) (1)

وقال: (إن في أوربا شراً كبيراً) (2)

بل هو نفسه الذي شهد لمجتمعه المحافظ بأنه أكثر تطورا في القيم الأخلاقية من المجتمعات الأوروبية نفسها، فقد قال معبرا عن ذلك: (إن مشهد الأم المتفانية يملؤني حناناً، كما يحرك شعوري مشهد الزوجة التي تعنى ببيتها، في حين أني لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على خطى الرجال، ممسكة كتاباً في يدها، وتهز ذراعي في عنف، وهي تصيح بي: كيف حالك يا عزيزي؟ بل لعلي أشعر بشيء غير بعيد عن النفور) (3)

ثانيا ـ سلاح حقوق الإنسان:

وهو السلاح الذي تستعمله أمريكا والغرب اليوم لتشويه الشعوب المستضعفة؛ فبدل أن تنقل إليها منتجاتها العلمية والحضارية التي تستأثر بها تدعوها لخلع الحجاب والعفة، وممارسة النمط الأمريكي والغربي للحياة.

وللأسف نجد بعض الدول العربية، وخاصة دول الخليج تسير في هذا المسار، فيحمل إعلامها حملته الشديدة على إيران، وفرضها للحجاب، ويعتبره امتهانا لكرامة المرأة، وتدخلا في شؤونها الخاصة.

مع أنه في أصله ليس سوى مراعاة لحقوق الإنسان؛ فالمرأة التي لا تلتزم بلباس العفة، لا تختلف عن المخدرات والمسكرات التي اتفق البشر جميعا على أنه لا علاقة لها بالحرية الشخصية، وكذلك المرأة التي تخلع حجابها، أو لا

1) المرجع السابق (ص 262).

2) المرجع السابق (ص 275).

3) المرجع السابق (ص 249).

تلتزم بالحد الأدنى من اللباس المراعي للأخلاق، إنما هي سم يسري في المجتمع ليقتله، ويقتل جميع القيم النبيلة فيه.

ولا ينبغي أن نكذب على أنفسنا، فذلك واقع البشر، وهو فطرة مجبولون عليها، ويمكن للمجتمعات التي لا ترى ضررا في الفواحش أن تعتبر ذلك شيئا عاديا، لكن المجتمع المزين بزينة العفة، يتضرر بذلك ضررا شديدا، كما قال بعضهم معبرا عن ذلك:

كل الحوادث مبداها من النظر... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وهنا قد يقول بعض المتحذلقين: فلم لا يغض الرجل طرفه، حتى يحمي نفسه.. وهنا نقول له: ولم لا نضع المخدرات والمسكرات في الشوارع والطرق، ثم نترك للورع الموجود في النفوس أن يتجنبها..

كلا الأمرين واحد.. فالله تعالى كما يحاسب ذلك الذي أطلق بصره للمرأة حتى ترديه قتيلا مفتونا، يحاسب المرأة كذلك، لأنها جعلت نفسها سلعة للشيطان يستعملها ليغوي الإنسان.

وللأسف، فقد غاب عن التنويريين هذا المعنى أيضا، حين توهموا أن اللباس حرية شخصية، وأن للمرأة أن تلبس ما تشاء، وأنه لا يحق لأحد أن يتدخل في ذلك حتى لو كان ربها الذي تؤمن به، الذي هو أدرى بمصالحها.

وقد عبر عن هذا المعنى نصر حامد أبو زيد حين ذكر أن حجاب المرأة ليس سوى تجسيد رمزي لكل معاني التغطية العقلية والاجتماعية لها.

وقال قبله قاسم أمين ــ رائد التنويريين القدامى في

هذا المجال ـ في كتابه (المرأة الجديدة): (إن إلـزام النسـاء بالحجاب هو أقسى وأفضع أشكال الاستعباد) (1)

وقال: (أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتهـا الفطرية) (2)

وقال: (أول عمل يعد خطوة في سبيل حرية المرأة هـو تمزيق الحجاب) (3)!!

بل إنه راح يتهم ـ من حيث لا يشعر ـ الدين نفسه بكونه سبب ذلك الظلم الذي تعانيه المـرأة عنـدما تلـتزم الحجـاب، فقال: (الكمال البشـري لا يجب أن نبحث عنـه في الماضـي، بـــل إن أراد اللـــه أن يمن على عبـــاده فلا يكـــون إلا في المستقبل البعيد جداً) (4) !.

وقـال: (عاشـت المـرأة حـرة في العصـور الأولى، حيث كانت الإنسـانية لم تـزل في مهـدها، ثم بعـد تشـكيل العائلـة وقعت في الاستعباد الحقيقي) (5).

وهو يردد نفس ما يردده التنويريون المحدثون من عـدم وجود علاقة بين الحجاب والعفة والقيم النبيلة المرتبطة بهـا، فيقول: (إن المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتهـا وتصـون نفسها عما يـوجب العـار وهي مطلقـة غـير محجوبـة لهـا من الفضل والأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة؛ فـإن عفـة

1) المرجع السابق (ص 441).

2) المرجع السابق (ص 450).

3) المرجع السابق (ص 442).

4) المرجع السابق (ص 498).

5) المرجع السابق (ص 432).

هـذه قهريـة أمـا عفـة الأخـرى فهي اختياريـة، والفـرق كبـير بينهما)(1)

ويقول: (إن المرأة التي تخالط الرجـال تكـون أبعـد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة)(2)

ويقول: (إن القول بأن الحجـاب مـوجب العفـة، وعدمـه مجلبة الفساد قول لا يمكن الاستدلال عليه؛ لأنه لم يقم أحـد إلى الآن بإحصاء عام يمكن أن يعرف به عـدد وقـائع الفحش بالضـبط والدقـة في البلاد الـتي تعيش فيهـا النسـاء تحت الحجاب وفي البلاد الأخـرى الـتي تتمتـع فيهـا بحـريتهن، ولـو فرض وقوع مثل هذا الإحصـاء لمـا قـام دليلاً على الإثبـات أو النفي في المسألة؛ لأن ازدياد الفساد في البلاد ونقصـه ممـا يرتبط بأمور كثيرة ليس الحجاب أهمها) (3)

وسبب ذلك كله هو تصور أن الحجاب مسـألة شخصـية، وليس مسألة اجتماعية؛ فالحجاب لا يحمي المـرأة فقـط، ولا يمثل عفتها فقط، وإنما يحمي المجتمع، ويحمي قيم العفـاف فيه.. ولذلك حتى لو كانت المرأة ليسـت عفيفـة في نفسـها، فإن المجتمع يطالبها بأن تظهر بمظهر العفة فيه حـتى تحمي أبناءه من الانهيار.

ولهذا فرق الرسـول ﷺ بين المجـاهرة بـالإثم والإسـرار به؛ فقال: كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل العبد بالليل عملا، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان! قـد عملت البارحـة كـذا وكـذا، وقـد بـات يسـتره ربـه،

---

1) المرجع السابق (ص 366).

2) المرجع السابق (ص 165).

3) المرجع السابق (ص 364).

ويصبح يكشف ستر الله عنه)[1]

بل ذكر القرآن الكريم ذلك، فقال: { لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ } [النساء:148]

فالجهر بالسوء دعاية مجانية له، بخلاف الإسرار به.. ولذلك فإن مقولة بعضهم من أن الحجاب قناعة شخصة لا يختلف عن الذي يعتبر الأفيون والمخدرات والمهلوسات قناعة شخصة.. فكلاهما واحد.. بل إن خطر المتبرجة أشد، لأنها لا تقتل القيم النبيلة في إنسان واحد، بل في آلاف الناس.. ومن شاء أن يتأكد من ذلك، فليذهب إلى تلك الجرائد والمجلات التي لا تباع أعدادها إلا بقدر ما تنشره من أفيون العري والفسوق والفجور.

ثالثا ـ سلاح الدين:

وهو أخطر الأسلحة التي استعملها التنويريون، وخصوصا المتأخرون منهم، أولئك الذين راحو يجادلون في قطعيات الدين التي اتفقت عليها الأمة بمذاهبها جميعا عليها.

وهؤلاء راحوا يكذبون الفقهاء باعتبارهم ذكوريين، وراحوا يكذبون السنة باعتبارها جميعا مكذوبة وموضوعة، فلما خلا لهم الجو مع القرآن الكريم راحوا يعبثون بألفاظه كما تعودوا ليحولوه عن معناه تحويلا تاما.

ومن أمثلة ذلك الدجل الممارس مع القرآن الكريم ما ذكره محمد شحرور في حديثه لبعض القنوات الخليجية [2] التي لا هم لها إلا نشر الفواحش والدعوة للانحراف، حيث راح كعادته يتلاعب بالألفاظ، ويجادل في القطعيات التي اتفقت عليها كل كتب التفسير والحديث والفقه من لدن

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) وهذه المعاني ذكرها بتفصيل في كتابه: نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي - فقه المرأة.

جميع المدارس الإسلامية.

فيذكر أن (أن كلمة الحجاب وردت في التنزيل الحكيم ثماني مرات، ولم تمت في كل استعمالاتها إلى اللباس بأية صلة من قريب ولا من بعيد، فكانت الألفاظ التي تدل على اللباس هي الثياب والجلابيب والخُمر)

وهو نوع من المصادرة على المطلوب، والتي يخدع بها عادة عوام الناس، فالحجاب مصطلح، ولا مشاحة في الاصطلاح، ولا يهم أن يذكر في القرآن الكريم أو لا يذكر، لأن القرآن الكريم ذكر الستر ودعا إليه، واعتبر التعري بمختلف أشكاله ومستوياته دعوة شيطانية لا تنويرية، فقال: {يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 27]

بل إنه صرح بذلك حين قال: { يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الأحزاب: 59]

ولم يكتف بذلك، بل راح يوضح ويبين بدقة كيفة يكون الستر ومحاله؛ فقال {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: 31]

وهذه الآية الكريمة وحدها تكفي لمن تأملها في التعرف

على مقصد الشرع من الحجـاب وأهميتـه.. حيث أن نـرى أن القرآن الكريم الذي لم يذكر عدد ركعات الصـلاة، ولا مقـادير الزكاة، ولا أركان الحج وكيفيته، ولا أحكامـا تفصـيلية كثـيرة.. لكن مع ذلك يذكر الحجـاب، وكيـف يكـون، ومـع من يكـون.. وهو يدل على أهميتـه القصـوى في حفـظ المـرأة والمجتمـع على حد سواء.

لكن التنويريين الذين لم تعجبهم أمثـال هـذه النصـوص، وتمنوا لو استطاعوا حذفها من القرآن الكريم راحوا يحتـالون عليها، ويتلاعبون بها.

ومن صور ذلك الاحتيـال والتلاعب تلـك الفهـوم العجيبـة التي خرج بها شحرور على القنوات الفضائية ليقنع المؤمنات بأن الحجاب خدعة خدعهم بها الفقهاء، ولا علاقة لها بالدين.

فهو يرى ـ من خلالـه فهومـه للآيـات الكريمـة الواضـحة التي ذكرناها ــ أن المـرأة ليسـت مكلفـة سـوى بـأن (تسـتر جيوبها السفلية (الفرج والإليتين) وهو الحد الأدنى للباس وهو ما يسمى بالعورة المغلظة أمام المذكورين في الآية 31 من سورة النور بما فيهم بعلهـا، والمحـارم المـذكورون في هـذه الآية هم نصف المحارم وليس كلهم)

أي أن المرأة ـ بحسب فهمه هذا ـ يمكن أن تسير أمــام أبيها وابنها وأخيها وجميع أقاربها المذكورين في الآية الكريمة فقط بلباسها الداخلي الـذين يسـتر العـورة المغلظـة، وليس عليها أن تستر أي شيء آخر عدا ذلك.

أما عندما تريد أن تخرج خارج بيتها، فليس عليهـا سـوى أن تغطي (الجيوب العلوية (الثديين وتحت الإبطين) بالإضافة إلى الجيـوب السـفلية (العـورة المغلظـة)، وبـذلك تتحقــق باللبــاس الشــرعي، أو بالحجــاب الشــرعي، كمــا فهمــه من القرآن الكريم.

أما ما عدا ذلـك، فهـو يـرى أنـه حريـة شخصـية يقررهـا المجتمع، لا الدين، فلذلك يراه ساريا (حسب أعراف المجتمع

الذي تعيش فيه، وحسب ظروف الزمان والمكان بحيث لا تتعرض للأذى الاجتماعي)

وبذلك فهو يرى أن كل التبرج الذي نراه في الغرب ليس تبرجا، بل هو حجاب شرعي، لأن المجتمعات الغربية رضيت بذلك، وألفته، وصار شيئا عاديا بالنسبة لها.

وبناء على ذلك يرى أن الخمار أو غطاء الرأس ليس له علاقة بالإسلام ولا بالإيمان وإنما هو عرف اجتماعي، أو بدعة اجتماعية لبست لباس الدين.

بناء على تشبع التنويريين بالثقافة الغربية، وتصورهم أنها في جانبها الروحي والقيمي والأخلاقي تشبه جانبها المادي والتقني، راحوا يستعملون كل الوسائل للاحتيال على أحكام المواريث، وخاصة في الجانب القطعي منها، والذي ذكر في القرآن الكريم، حتى لا يتلاعب به المتلاعبون، أو يحتال عليه المحتالون.

وهم يركزون بصفة خاصة على ما ورد في قوله تعالى: { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} [النساء: 11]؛ فيُحجبون عن كل معاني العدل الواردة في المواريث، وحتى في هذه الآية الكريمة نفسها بما ذكر فيها من كون نصيب الأنثى نصف نصيب الذكر.

وهم لا ينتبهون إلى أن إعطاء الأنثى نصف أخيها الذكر مرتبط بمنظومة تشريعية كاملة، لا يشكل الإرث إلا جزءا بسيطا منها، ولذلك كان العدل فيها ليس هو المساواة، بل العدل أن ينال كل طرف بحسب حاجاته ومسؤولياته.

وكمثال تقريبي على ذلك ما نراه في الواقع من أن بعض المؤسسات أو الكثير منها قد تعطي بعض العمال نصف المرتب الذي تعطيه لعمال آخرين، لكن في نفس الوقت، تعطيهم الكثير من الحوافز والهبات تحت أسماء مختلفة، والتي لو حسبناها لوجدناها تصل إلى نفس المرتب الذي فضل عليهم، بل قد تفوقه.

وهذا ما طبقته الشريعة الإسلامية العادلة والسمحة بالضبط مع المرأة؛ فعندما نتأمل الأحكام المالية المرتبطة بها نجد أنها لم تكلفها بالسعي في طلب رزقها، بل جعلت رزقها مضمونا في كل مراحل حياتها ابتداء من صباها إلى وفاتها، فهي تعيش في كنف والديها، أو قوامة زوجها، أو رعاية أولادها؛ فإذا لم يبق لها واحد من هؤلاء كلفت جماعة

المسلمين بالإنفاق عليها.

بالإضافة إلى أن الشريعة التي فضلت الابن في العطـاء هي الشريعة التي كلفته بالإنفاق على أخته، وهي التي كلفتـه بدفع المهر لمن يريد الزواج منها.. فهل تكلفه بكل هذا، ثم لا تجعل له من الحقوق ما يفي بما تتطلبه هذه الواجبات؟

بالإضافة إلى ذلـك؛ فقـد أتـاحت الشـريعة بنص القـرآن الكريم، وفي الأحوال الطارئة التي يرى الوالـد فيهـا أن ابنتـه قد يهضم حقها، أو قد يفرط أبنـاؤه فيهـا، أو يـرى أن حاجتهـا للمال أكثر منهم.. في هذه الأحوال جميعا، وفي غيرها أتاحت له أن يوصي لها بما يسـد تلـك الحاجـة، بحيث يصـير نصـيبها مساويا للذكور، أو ربما يفوق أنصبة الذكور.

وهو ما عـبر عنـه صـريح قولـه تعـالى: {مِنْ بَعْـدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ} [النساء: 11]، وهـو النص الـذي كـرر كـل حين بعد ذكـر أحكـام المـواريث ليـبين أن الوصـية تتمم تلـك الأحكام، لتتناسب مع كل الظروف والأحوال والحاجات.

وقد صرح قولـه تعـالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَـرَ أَحَـدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِـدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ بِـالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُـهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَـهُ إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقـرة: 180، 181] على أن الوصية يمكن أن تكون للورثة وغـيرهم، وأنهـا حق شرعي للموصي، يضعه حيث يشاء.

لكن للأسف ذهب فريق من الفقهاء إلى تحريم الوصـية للورثة، وبالتالي حرمان المورث من النظر في مصالح ورثتـه من بعده.. وكل ذلك بناء على حديث يروونه، وهم يعلمون أن حديث رسـول اللـه ﷺ يسـتحيل أن يعـارض القـرآن الكـريم، فكيف ينسخ أحكامه؟

ومثـل ذلـك تلـك الأحـاديث المرتبطـة بالعصـبة، والـتي حرموا فيها البنات من كثير من حقـوقهم في الإرث، وجعلـوا أبناء الأعمام مزاحمين للبنات.. وهـو مـا لم يـدل عليـه دليـل

قطعي، بل كل الأدلة الواردة في ذلك مناقضة للنصوص القرآنية القطعية، والتي تنص على أن {أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الأنفال: 75]

كان يمكن للتنويريين أن يأخذوا بمثل هذه الأقوال الفقهية، وخاصة تلك الواردة عن أئمة أهل البيت، والتي تنص على إمكانية الوصية للورثة، وعلى أن الأقربين أولى بالمعروف، وبذلك تنتفي المشكلة من أساسها.

لكنهم لا يريدون إلا أن يظهروا مجددين في هذا المجال، كما ظهروا في غيره، ولذلك راحوا يتلاعبون بالنصوص، ويحتالون عليها، وكم فرحوا عندما سمعوا بالتشريع التونسي المرتبط بهذا المجال، وكأن الأمة لا ينقصها إلا سد هذه الثغرة.

وقد قال محمد شحرور تعليقا على ما فعلته تونس: (وإذ أهنىء شعب تونس على هذا الإنجاز، أهنىء نفسي ببارقة الأمل هذه، فرغم أن الطريق شائك لكن الشعوب لا بد لها أن تستيقظ لو بعد حين)

وقد كان لشحرور الذي تجرأ على كل أحكام الشريعة، وراح يجدد فيها من غير أن تتوفر له تلك الأدوات قصب السبق في هذا المجال، مع أنه، وفي فترة قريبة، وفي لقاء سجل معه، سئل فيه عن فهمه لآيات المواريث فأجاب بأنه[1] لم يصل لرؤية واضحة فيها، ولكنه بصدد دراستها وفق التغيرات المعاصرة في علم الرياضيات الحديثة التي توصلت لعلوم جديدة من التحليل الرياضي والإحصاء.

لكنه بعد فترة قصيرة، راح يخرج لنا بنظرياته العجيبة في هذا المجال، والتي لا علاقة بالرياضيات الحديثة، ولا بأي شيء حديث.. بل كلها من نوع الهرطقات اللغوية التي يستعملها، ويتصور أنه فهم من النصوص ما لم يفهمه الأوائل والأواخر.

---

[1] () انظر: تخبط محمد شحرور في فهم آيات الميراث، د.خلدون مخلوطة.

وقد ذكر في بعض حواراته معبرا عن فهمه لقوله تعالى: {يُوصِـيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلـذَّكَرِ مِثْـلُ حَـظِّ الْأُنْثَيَيْنِ } [النسـاء: 11]، وأنـه سئل في الجزائـر ومصـر والسـعودية والعراق عن معناها؛ فقال لهم: (إذا أنا أعطيتك أنت ورفاقـك وأنتم خمسة أشخاص كل واحـد مائـة دولار، وقلت لي: مـاذا أعطيتني؟ قلت لك: أعطيتـك مثـل رفاقـك، أليس هـذا يعـني أنني سويتك تماما برفاقك؟، وهكذا الآية إذا أعطيت أخاً مائـة دولار وأختيه لكل واحدة مائة دولار، وسألني كمـا أعطيتـني؟ فقلت له: أعطيتك مثل أختيك، يعني هذا أنني أعطيت الجميع مثل بعضهم البعض)

وبذلك تصور أنه قد حل المشكلة، وأن الآية الكريمـة لم تنص أبدا على كون نصيب الذكر ضعف نصـيب الأنـثى، وإنمـا أخـبرت عن الحكم المرتبـط بثلاثـة أولاد: ابن وأختيـه، حيث ينـال الابن مثـل نصـيب كـل واحـد من أخواتـه.. وهـو تلاعب واضح بالنص الصريح والواضح والذي يخاطب كل الحالات، لا مجرد الحالة التي افترضها.

فالآية الكريمة ذكرت أن نصيب الذكر حظ الأنثيين معـاً، ولم تقـل ــ كمـا تـوهم ــ أن نصـيبه (مثـل الأنثـيين)، وهاتـان الكلمتان [المثل] و[الحظ] تدلان على ذلك.

ثم هو بعـد ذلـك ينـاقض نفسـه، لأن حـالات المـيراث لا ترتبط فقط بعائلـة مكونـة من ثلاثـة أولاد، وإنمـا عـدد الأولاد في أكثر العائلات يكون أكثر من ذلك بكثير، وهنا يقع الارتباك والخلـط في منظومتـة الهشـة الـتي أسسـها على الفهم المزاجي للنص، لا على الفهم الصحيح الذي تتطلبـه ألفاظـه، والـذي اتفـق عليـه جميـع اللغـويين والمفسـرين من جميـع المدارس الإسلامية في جميع فترات التاريخ.

حيث أن تسـاوي الـذكور مـع الإنـاث عنـده لا يتم إلا في حالتين فقط: إذا كان الوارث ابنا وبنتـا؛ فيأخـذ الابن النصـف، والبنت النصـف، أو إذا كـان هنـاك ابن واحـد وابنتـان، فلكـل واحـد الثلث بالتسـاوي، ولكن عنـدما يكـون البنـات أكـثر من

اثنتين، أي ابن واحد وأربع بنات فيعطي الابن الثلث، والبنـات الأربع الثلثان، وهنا ينتقض التساوي عنده، بل يصبح مـا ذكـره الفقهاء أكثر عدلا بكثير مما ذكره.

وقد أجـاب شـحرور عن هـذا التنـاقض الـذي حصـل في العدالــة الــتي راح يبحث عنهــا بــأن هــذا التفســير العلمي واللغوي للآيـة يحقـق العـدل للمجموعـات لا للأفـراد، (فبنـاءً على ما تم ذكره فإنـه في بعض الحـالات يحصـل الـذكر على ربع أو ثلث ما تحصل عليه الفتاة، ولذلك فإن حدود المــيراث في القرآن تعمل على تحقيق العدل بين مجموعـة الأولاد من الفتيات ومجموعـة الأولاد من الـذكور، لا العـدل بين الأفـراد، فرداً فرداً)

وهو نوع من الخداع والحيل التي تمرن عليها، لأنـه وجـد من يستجيب لها، ويعجب بهـا، ولسـنا نـدري كيـف يجيب عن ذلك الارتباك الذي سيحل به لا محالة عنـدما يـرى أن نصـيب الزوج في الميراث ضعف نصيب الزوجـة، والـذي لـه مـبرره الشرعي الممتلئ بالعدالـة، والـذي نص عليـه بصـراحة قولـه تعالى: {وَلَكُمْ نِصْـفُ مَـا تَـرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَـدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَـا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُـعُ مِمَّا تَـرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَـدٌ فَـإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَـرَكْتُمْ مِنْ بَعْـدِ وَصِـيَّةٍ تُوصُـونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ} [النساء: 12]

ولست أدري أي حيلـة يـدبر لهـذه الآيـة الكريمـة، حـتى يحتال عليها، ويخرجها عن دلالاتها الواضحة والقطعية، والــتي اتفق عليها جميع الفقهاء.

ومثل ذلك قولـه تعـالى عنـد ذكـره للأحكـام المرتبطـة بـالإخوة، والـتي نص فيهـا صـراحة على كـون نصـيب الـذكر ضعيف نصب الأنثى، كمـا قـال تعـالى: {يَسْـتَفْتُونَكَ قُـلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَـدٌ وَلَـهُ أُخْتٌ فَلَهَـا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَـدٌ فَـإِنْ كَانَتَـا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْـوَةً رِجَـالًا وَنِسَـاءً فَلِلـذَّكَرِ

مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النساء: 176]

وقد كان من حكمة الله تعالى أن يختم هذه الآية الكريمة بقوله: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النساء: 176]، ليبين أنه سيأتي من يتلاعبون بالألفاظ، ويحتالون على النصوص ليضلوا الناس عن هدي ربهم وعدالة ربهم إلى الدين المزاجي الذي يؤسسونه بأهوائهم، لا بسلطان من العلم أو الحجة.

وقد كان في إمكان التنويريين أن يدرسوا هذه الآيات الكريمة ضمن المنظومة الإسلامية الشاملة لحقوق المرأة وواجباتها، ليعلموا أن الشريعة التي كلفت المجتمع بالإنفاق على المرأة، وكلفت الزوج بجلب المهر لزوجته، هي نفسها التي فرضت للمرأة نصيب نصف الذكر.

فإذا ما حصل اختلال في المجتمع؛ فقصر في حق المرأة، ندعو إلى إصلاح الخلل الذي حصل، لا إلى تبديل أحكام الله.. وإلا فإنا لو طبقنا ذلك، فسيصبح الزمان أداة لمحو أحكام الله الصريحة والقطعية واحدا واحدا.

وقد كان في إمكانهم أيضا أن يدعو إلى تفعيل الوصية للأقربين بمفهومها الشرعي لتغطي الحالات الخاصة، مثلما فعل الفقهاء مع الوصية الواجبة المرتبطة بإرث الأحفاد الذين مات والدهم قبل موت جدهم، فأعطوا نصيب والدهم من الميراث بناء على الوصية الواجبة، مع أنها تخالف ما اتفقت عليه المدارس السنية من عدم وصية للورثة.

كان في إمكانهم أن يلجأوا إلى مدرسة أهل البيت في هذا المجال، فيجدوا فيها أشياء كثيرة تتناسب مع العدالة في الميراث، والتي يمكن الاستفادة منها كما استفيد من كثير من أحكام الطلاق.. فالكل مسلمون، ولا حرج في الاستفادة من أي مدرسة من المدارس ما دامت تتحقق من خلال أقوالها مقاصد الشريعة.

لكن التنـويريين، نتيجـة ضـغوط الاتصـالات الكثـيرة، ووسائل الإعلام التي تزاحم أوقات فراغهم لم يجدوا الـوقت الكافي للبحث في ذلك، واكتفوا بمـزاجهم وأهـوائهم وآرائهم المجردة عن كل دليل.

هذا الكتاب

من أخطر مظاهر التنوير المعاصر تلك الجرأة على الحقائق المقدسة المعصومة التي وردت في القرآن الكريم أوالسنة الصحيحة القطعية التي لا مجال معها للفكر، ولا للنظر، لأن كل ذلك جرأة على الله، وسوء أدب معه، وتقديم للهوى على النص..

فمن ذا الذي يعطي لنفسه الحق في أن يعقب على كلام ربه، أو كلام رسوله الذي لا ينطق عن الهوى؟.. ومن ذا الذي يتصور أنه أكثر علما وفهما وإحاطة بحقائق الوجود حتى يعطي لنفسه ذلك الحق؟

لكن التنويريين باتجاهاتهم المختلفة أعطوا لأنفسهم هذا الحق؛ فراحوا يناقشون في كل المقدسات التي اتفقت عليها الأمة وأجمعت عليها إجماعا كليا، لا طائفيا، وراحوا لأجل ذلك يلوون أعناق النصوص المقدسة، ويتلاعبون بها ليتحول الدين إلى مزاجهم وأهوائهم ورغباتهم.

ولـذلك حاولنـا في هـذا الكتـاب أن ننـاقش القضـايا الكبرى التي تركز عليها الدعوات التنويرية، والتي حاولت بكل الوسائل أن ترفع عنها القداسة، ليصبح الـدين مـادة هلامية يتلاعب بها كل من هب ودب، وذلـك عـبر مقـالات مختلفة كتبت في أوقات متباينـة، وعـبر بعض السـجالات التي حصلت بيننا وبين بعض التنويريين.